وليم هويد

رحلة من ساحل مالابار الى القسطنطينية

عبر الخليج الفارسي، بلاد العرب، بلاد مابين النهرين، كُردستان، تركيا وبلاد فارس

ترجمة
د. سعاد محمد خضر



رحلة

من ساحل مالابار الى القسطنطينية

عبر الخليج الفارسي، بلاد العرب، بلاد مابين النهرين، كُردستان، تركيا وبلاد فارس

قام بها عام ١٨١٧

السيد وليم هويد William Heude

الملازم في الجيش البريطاني

ترجمة

د. سعاد محمد خضر

(استاذ مساعد بجامعة بغداد، موسكو، صنعاء سابقاً)



السليمانية ٢٠١١

كتب

الرحلات التي اخذت مكانها على رفوف المكتبة

- **رحلات في بلوجستان، وبلاد السند، تقدم الوصف الجغرافي والتأريخي لهذين البلدين،** بقلم السيد "هنري بوتنجر Henry Pottinger"، وترجمها عن الانجليزية "ج. ب. بيجرس J. B. Bgries" في
مجلدين، بصور وخرائط، طبع عام ١٨٠٨م، والسعر (١٥) فرنكاً

- **رحلة في آسيا الصغرى، ارمينيا وكُردستان،** خلال السنوات (١٨١٣-١٨١٤)، مع ملاحظات حول سيرة الاسكندر الاكبر، والعشرة الاف، بقلم "جون ماكدونالد كينار John Macdonald Kinnar" اليوزباشي العامل في مطار شركة الهند، والتابع لجلالة النباب دوكارنات في دُربار؛ ترجمها عن الانجليزية السيد "بيران Perrin" في مجلدين وتحوي خارطة جميلة قدمها "آروسميث Arrowsmith" والسعر (١٥) فرنكاً.

- **رحلة في ربوع الهند البريطانية،** تتحدث عن الاوضاع الحالية في البلد، تأريخ الحرب الانجليزية ضد "هولكار Holkar "و"سِندياج Scindiah"، تأريخ الشاه "اولتوم Aulum" امبراطور المغول، مع وصف لعادات ذلك البلد، مع آراء حول امكانية اجتياح للبلاد من قبل دولة اوروبية، ترجمها عن الانجليزية السيد "وليم ثورا William thora " و"جون ماكدونالد كينا J. Mocdonald Kinneir" صدر الكتاب في مجلد واحد عام ١٨١٨, السعر خمس فرنكات.

- **الرحلة (الثانية) التي قام بها السيد "جاك موريية Jacques Morier" في بلاد فارس** وارمينيا، وفي آسيا الصغرى، عبر البرازيل، بومباى، الخليج الفارسي، وكان ذلك ما بين الاعوام (١٨١٠-١٨١٦)، مع تفاصيل بعثة السير "جور اوسلي Gore Ouseley"، سفير صاحب الجلالة ملك بريطانيا لدى الشاه، وترجمت عن الانجليزية في مجلدين مع بعض الصور الملونة المطبوعة، صدرت عام ١٨١٨، السعر خمسة عشر فرنكاً.

- **رحلة من الهند الى انجلترا براً عبر بلاد فارس، چورچيا، رُوسيا، بولندا و بروسيا،** قام بها المقدم جونسون في العام (١٩١٧)، ترجمها عن الانجليزية السيد الذي قام بترجمة رحلة "ماكسويل Maxweel"، عام ١٩٨١. وصدرت في مجلدين مع عشرين صورة معظمها ملونة والسعر (٢٤) فرنكاً.

(من مطابع "جون سميث J. Smith")

الفهرست

الفصل الاول

مقدمة، ملاحظات حول الوضع الحالي لاقليم مالابار، وحول التغييرات التي حدثت في ظروف ذلك البلد منذ ان كان خاضعاً للسلطة البريطانية، نتائج تلك التغيرات، حكومة مدنية وعسكرية

***

ينذفع الرحالة بوجه عام الى الحديث عن نفسه. ولحسن الحظ، ليس لدى الكثير عن نفسي لاقدمه الى القراء. فقد كنت جندياً في الجيش منذ سن الخامسة عشرة، وعشت تجربة الحرب المريرة الى ان اصبحت في الثلاثين من عمري. واعتقد اذن انني استطيع تحمل متاعب سفرة طويلة برّاً. وسوف تتضاعف تلك الصعوبات بسبب الطريق الذي اخترته وسلكته. والحق اقول ان التوقيت كان ملائماً للقيام بتلك الرحلة؛ كما وان حديث الملوك كانت نتائجه حيوية هذه المرة؛ وبدأت رحلتي في ظروف ساد فيها سلم عام وهدوء يكاد يكون عالمياً. ولسوف اصف كل ما ارى، واتحدث عن السكان وعن عادات البلدان التي سوف اجتازها. وفوق ذلك، ومهما كان من امر الاهتمامات اللاحقة، فسوف تكون على الاقل دقيقة وصادقة.

وكانت فرقتي عندما اخذت اجازتي في الحامية في (كانانور Cananor). ولسوف ابدأ اذن مذكراتي ببعض الملاحظات العامة حول وضع اقليم مالابار الحالي وحول مصير سكانه في ظل حكومتنا. وآمل ان يهتم القارئ بتلك الملاحظات طالما انها سوف تركز فقط على الاشياء التي أثارت اهتمامي بوجه خاص.

ويطلق اسم مالابار على ساحل شبه الجزيرة الغربي بوجه عام. ورغم ان الاجزاء الاخرى تتميز عنه بشكل خاص، الا انه بلد غالباً مايصفه الناس لدرجة انني ارى من الضروري تقديم نبذة صغيرة عنه. ففي الحقيقة، يقدم جماله الرومنطيقي وثراؤه، خصوبة ارضه واهميته، جباله الشاهقة ووديانه المليئة باشجار الفاكهة، ومدنه المأهولة، يقدمون للقلم وللفرشاة مواضيع لا تنضب. فقد وهبته الطبيعة روعة يعجز القلم عن وصف جمالها وكمالها؛ بل ويبقى دائماً شئ من جلالها. ويعلو الجبل كما البرج فوق السحاب، وتخترق الهاوية احشاء الارض بحيث لا تستطيع النظرة المندهشة ان تقيس ابعاد اعماقها. وتغطي الغابات الفسيحة صخورها المميتة، وحيث تضرب مياه الشلال المندفعة نحو الوادي الضاحك الجميل وتتفتح احضانه لاستيعاب تلك المياه الدافئة الضرورية لحيويته ولخصوبته.

وتعرض الضاحية، او تلك المنطقة والتي تطل من ذلك الارتفاع على مقدمات السفن في الاسفل، وذات المناظر المتنوعة الرائعة التي ترويها عيون الجبال تعرض بدورها منظراً ساحراً اروع من سابقه. هذا، بالاضافة الى مناخ معتدل يضيف على كل ذلك السحر قيمة جديدة. وحتى اذا ما كانت الامطار غزيرة فاننا نجد مع ذلك ان اقصى درجات البرودة او الحرارة اكثر اعتدالاً بشكل عام من المرتفعات المشابهة او الاكثر ارتفاعاً.

وبفضل تلك الامتيازات، ووفرة وتنوع منتجات البلاد، فهناك تجارة جيدة ترفع وتطور الصناعة بوجه عام. وتعتبر عوائد مالابار اكثر من كافية لتغطية مصاريف مؤسساتها المدنية والعسكرية على السواء. ودون ان ادخل في مناقشات غير مجدية حول ذلك الموضوع، نتيجة للحسابات المعمقة والدقيقة التي عالجته بها، فانني افضل ان القى نظرة

سريعة على التغييرات التي حدثت منذ ان خضعت تلك المنطقة الى النفوذ الانجليزي، والتي كانت النتيجة المباشرة لتلك الثورة الهامة.

وساحل مالابار، الذي كان قديماً مسرحاً لانتصارات البرتغاليين، مازال يسكنها جنس مختلط لايحمل شرف امتلاك ذلك الاسم الذي كان قديماً شهيراً. ويمكن ان نقول ان سكان تلك المنطقة وكذلك السكان المسيحيين الاصليين في مالابار، انهم وبشكل عام ليسوا محتقرين او فاسدين كما هو حال اشقائهم سكان الساحل الاخر. فهناك لديهم رغبة عامة للتطور تتمحور حولها صفاتهم. واذا ما بذلنا اهتماماً لتلك الملاحقات التي عانوا منها قديماً، فقد تحول ذلك الى نشاط اليوم كما نتيجة طبيعية لتغير السلطة التي نشرت اجواء الامن في البلاد. ومع ذلك، فان تلك المتابعة للاهتمام بتلك المنطقة، ليس بسبب العدد فقط، بل ان ذلك الجنس الغامض قد حصل على حقوق اثارت اهتمامنا بالدرجة الاولى. وهو يتمتع بذلك التميز بسبب تلك التأثيرات الحساسة للتغيرات التي تبعتها نتائج وتطورات هامة جداً. ووضع سكان تلك المنطقة يتضاعف كل يوم، ويستحق تماماً اهتمام المُشرع. ويمكن ان يكون ذلك سبب تمكيننا او خسارتنا. وبما ان تلك الاهتمامات تبعدني كثيراً عن موضوعي، فسأتوقف عند تاشير ماهية ذلك التغيير.

وفي الهند، حيث تم استخدام الدين لصنع سياسة مصطنعة، وحيث ترى ان الكتاب الذي يحوي نظريات خاصة تجاه سلوك وتصرفات الانسان وتعمل على تنسيقها من اجل واجباته تجاه المجتمع الذي يعيش فيه. فاننا نرى اذن، ان القرآن وڤيدام*، والتعليقات على تلك الكتب تمثل كلها القانون الوحيد للايمان، القانون الوحيد لجميع الموروثات وجميع التشريعات المدنية والجنائية، وحيث يتحد الدين والاحكام المسبقة

* كتاب الهندوس. [المترجمة]

للتأكيد على استقرار وثبات تلك العادات. اذن فإننا لم نستطع بالطبع ان نقرر ان اتباع سياسة اجنبية الى جانب تغير رئيسي اساسي يمكن ان يؤدي الى تحقيق تلك التغييرات والتي لايمكننا آنذاك اغفالها على ما اظن. وحقيقة الامر، انه عندما تخضع امة مجاورة لمن يغزوها، فسوف يتعود الغازي بالتدريج على عادات واعراف واخلاقيات تابعيه. ولانه يتبع لسياسة عليا فسوف ينتهي به الامر الى ان يكون واحداً مثل هؤلاء المهزومين. مع انه يجب التذكير بان الصينيين كانوا دائماً امة متحضرة. بل واكثر تحضراً من غزاتهم التتار. اما بالنسبة لنا فقد كان الامر على ما اكد لنا تفوقنا في مجالات الفن والعادات وفي مجال التسلح. كما وان التأثير الطبيعي لاى تغيير حكومي على عادات وطبائع السكان كان يجب ان يكون اكثر تطوراً في الهند، لانه تأثير امة ارفع شأناً واكثر تطوراً في الهند. ولكن مثل ذلك التأثير كان فقط واضحاً في مالابار دون ادنى شك.

وفي جميع انحاء ذلك الامتداد للسلطة البريطانية في مالابار، لم يعد ذلك الحاكم المستبد "نامبوري Namboury" يحكم تلك المنطقة قدراً وحيداً للسكان. ولم يعد ذلك الفقير الذليل (تيار) يرتعد عندما يراه او التقاه او لمسته يداه او يخشى الموت من تلك الشخصية المقدسة. ولم يعد المسلم الفخور كذلك ويُجيش الجيوش وسيفه بيده كما لم تعد تلك الطبقة المسالمة الفقيرة البسيطة تخشى شيئاً في ظل قانون عادل لاتمييز فيه بل اخذت تتمتع بثمار عملها وكدها وتحصل على نصيبها دون ان تشعر، بالاهتمام والاحترام والثراء الذي تستحقه. في حين نرى المستغل الذي اراد ان يصطاد في الماء العكر، لانه على علاقة حميمية بالاوربيين، نراه ينسحب رويداً رويداً بعيداً عن مؤسساتنا ليقوم باعمال الفلاحة المضنية في القرية، في الوقت الذي انغلق فيه المسلم داخل اسوار كبريائه. واندفعت كذلك الطبقات الدنيا تعمل وتكد بعد ان عمت الثقة

واخذت تتحسن مصائرهم باستمرار ولم يعودوا يحسون بتلك المذلة التي كانوا يشعرون بها قبلا امام التمييز الذي كان ينزله بهم اولئك الذين كانوا دوماً يذكرونهم بموقعهم ودونيتهم.

اما السيد فلم يمهله الوقت طويلاً وسرعان ما تحددت ممارساته العنيفة الدموية لامتيازاته، بل انه شعر بكبريائه وقد جُرح، وشعوره بالمذلة والضيق حين يرى نفسه مجبراً على ان يتقاسم مع غيره تلك الامتيازات الفخرية التي كانت له حصراً.

ومن قبل، عندما كان يشعر بنفسه فوق المألوف، واثقاً من نفسه ورفعته وتعاليه بسبب تلك التدابير، ولم يصطف بفضلها مع الادنى منه، فقد كان يتمتع بشخصية معنوية يمكن ان ترفعه اذا ما كان طموحاً الى اعلى درجات الرفعة والمقام بل والى الثروة... وبالمثل، فان الطبقات الادنى من المسلمين والمتوسطة لم يعودوا يخشون من تكديس واظهار ثرواتهم حيث كانوا يخشون من قبل ان يثيروا الحسد ومن ثم يستولى الغير عليها. وبفضل ذلك الشعور العام بالامان الذي يساعد على احياء الصناعة وتم بذلك نشرُ هامش جيد من الحرية السياسية، في مقابل الضغط والتضييق على الطبقات العليا التي تحملت بذلك عبئاً شخصياً ثقيلاً. ومن الصعب جداً وصف تأثير ذلك التغير، واتساع رقعة الحرية المدنية على حساب الحرية الشخصية، طالما ان ذلك كان يؤثر على الرأى العام والمشاعر الفردية. وسوف تظهر تلك التأثيرات في اوقات الخصومات. ولكن وحتى ذلك الحين، يمكننا ان نقول وبثقة تامة، بانه طالما يشعر الانسان الثرى والطبقات الدنيا بالامن والامان لانه لايوجد مايخشونه فان الغاضبين فقط، هم اولئك الذين يرون تضاؤل الاهتمام بمكانتهم الاجتماعية دون ان يحصلوا على ما يؤهلهم لبلوغ الثروة غالباً. فهم يشعرون بشكل ما ان مكانتهم قد تراجعت بسبب ذلك

القانون الذي لايميز بين الناس، ولايقدم امتيازات خاصة ويحمي الجميع، ويصفونه دوماً بان القدرة والقوة تنقصه.

ولتكن مؤسساتنا في تلك البلاد بعيدة عن الكمال الذي يتمتع به نظامنا العسكرى، فذلك ما استطيع قوله دون محاباة. ولا ادعى القول مع ذلك انه يجب ان نجد اخطاء مؤسساتنا والشكاوي ضدها، تعود لنقص في النشاط او المهارة التي يتمتع بها موظفو ذلك القسم. فهم ذوو ثقافة عاليه يُضاف اليها نشاط مميز، ومُثابرة دؤوبة وحرفية واضحة. ولكن هناك بعض الاستثناء دون شك. فهناك اناس يشغلون مناصب تُدر لهم الربح والمكاسب، ولم يستطع واجبهم المنوط بهم القيام به ان ينقذهم من ذلك التراخي المؤسف. ولان ذلك ليس الطابع العام لذلك الجهاز المحترم، فيجب علينا ان نبحث في مكان آخر عن هذه المشكلة التي تشغلنا. واعتقد اننا سنجد حلا لها في رصد عدم الكمال عند المقارنة وعدم فعالية النظام الذي تم اختياره. وكيف لنا اذن ان نشرح لماذا نجد ان كل مايخص السلطة العسكرية يتحقق في لحظة وبكل سهولة، رغم وجود الكثير الذي يجب انجازه من التطوير اللازم لتحسين كفاءة مؤسساتنا المدنية؟ وكيف ندرك ان المفاهيم غالباً ما تخلق العوائق؟ ولِمَ يترك الفلاح حقله ويرفض زراعته؟ ومن اين وكيف تتأتى الحاجة الى طلب النجدة من فصيل عسكري ان يقوم بتأمين الضرائب وجمع العوائد المطلوبة من اصحاب العمل؟ وبعد ان قمنا بزيارة مؤسساتنا المدنية وبعد رؤية ذلك الجمع الغفير من البؤساء متكدسين في زنازين ضيقة مظلمة مكبلين بالاغلال، يتنشقون الهواء الفاسد، فهل يمكننا آنذاك ولو للحظة ان نصدق ان مانراه كان موضوعاً لشكوى ما وانه شئ عادل وعام، وانه لايوجد شرطة؟ وان اياً من يكون قد رأى ذلك المشهد الرهيب المحزن واحصى الالاف من هؤلاء المساكين الذين حكم عليهم بالسجن، هل

سيظن ان الجريمة قد انتهت بذلك من على وجه الارض او ان يبرر بانه كان في صالح الانسانية في تلك الديار التعسة؟ ولاتوجد اية مبالغة في تلك اللوحة التي وصفتها، انها صورة صادقة لتلك الاوضاع. وكذلك، وعلى الرغم من قيامنا بانزال العقوبات، فاننا نقترف دائماً نفس الاخطاء، وحينذاك اذا رأينا ان الخطأ لم يقترفه العميل، سنستطيع ان ننسبه الى عدم كفاءة التشريع، بل ونتيجة ذلك الى الحكومة نفسها. اما الامتيازات الكبيرة التي تتمتع بها ممتلكات السادة، فهو التمتع بالسلم والعيش بمَأْمنٍ من الاجتياحات الاجنبية. واننا ننسب ذلك الى قدرة شرطتنا العسكرية الى الاساس المتين المحترم الذي قامت عليه مؤسساتنا الحربية، واخيراً الى نجاح وافضلية سلاحنا.

ويرجع سبب كمال نظامنا العسكري في الهند الى بساطته ووحدته والسرعة التامة التي تتسم بها جميع التطبيقات. في حين نرى ان نظام شرطتنا المدنية معيب في كل شؤونه، ومن السهل تقديم شرح لذلك الاختلاف. فنظامنا العسكري اصيل في مبادئه، ولم يكن فاسداً في التطبيقات؛ وذلك لعدم اتباع اية نظرية او توجه شرقي. كما انه لايهتز عند العمل بسبب التسامح والصبر مع اية مزاعم محلية. واقيمت شرطتنا المحلية انطلاقاً من مبدأ اقل صلابة؛ ولانه من السهل جداً القيام بتغير شامل للنظام العسكري في حالة، ما اكثر ممايمكن القيام به في مختلف اقسام الادارة المحلية المدنية. وبالمثل وفي الهند، كان من الضروري التصرف ودمج السياسة بتلك الاراء والمشاعر العامة حيث يتحد العرف، الدين والاحكام المسبقة لتطيل البقاء.

ويوجد غالباً بعض الاضطراب في نظمنا المدنية، نتيجة لتراكم غير متجانس لمواد لم تدار جيداً. ولاتوجد فيها اية بساطة، او وحدة او قدرة او فعالية. وتعتمد قيمة الضريبة في بعض المناطق على الناتج الزراعي،

ولذلك تكون مختلفة النتيجة، في حين نراها ثابتة في مناطق اخرى، ونراها تدفع مباشرة لجابي الضريبة في العديد من المحافظات، بينما نراها في بعض المحافظات بواسطة الحكمدار. اما النظام القضائي المتبع في المحاكم المدنية ليس اكثر ثباتاً او كمالاً. فتتنوع اشكالها وتتباطأ تأثيراتها. ويسترشد القضاة بهما؛ وقد تم التغيير فيها من جديد بواسطة اجراءات خاصة وافضلية قانوننا الرفيع، في علاج القضايا الاجرامية. وما هي النتيجة؟ عندما تكون البساطة ووحدة العمل ضروريتين تفتقر الشرطة في ذات الوقت الى القدرة والفعالية في حين تتباطأ العدالة على طول البلاد. نجدها هنا بطيئة كذلك الى حدما حيث نرى تماماً ان المكتسبات التي كان يمكن الحصول عليها منها قد اصابها الشلل التام. وعندما نحاول البحث في اظهار التغييرات التي نتجت عن اقامة حكومة اجنبية فانني لا اتحدث الا عن اقليم مالابار وعن الساحل الغربي، وذلك لِكي في ميدان عرض ما يوازيه لفهم التأثير المعنوي الذي حدث فقد تحدثت عن الهند البريطانية بوجه عام، لكن اتفادى قدر الامكان امكانية اقامة تطبيقات خاصة اعتماداً على الملاحظات السابقة وهو شئ لا اقبل به. كما ان اللوحة التي قدمتها ليست مزدحمة واعتقدت انها اكثر اثارة للاهتمام بل وتتمتع باهمية كبيرة افضل من تقديم تفاصيل جافة لماحدث او مجرد يوميات للاحداث.

الفصل الثاني

الرحيل من "كانانور"، مراكب البريد الهندية، تجارة مانجالور، مغارات مثيرة في (كادري)، هندوس متطرفون، الوضع الحالي في (جوا)، بومباى، وضع القوات الانجليزية في الهند

***

عادة ما تخف شدة رياح "موسون" في مالابار مع نهاية شهر آب (اغسطس) واواسط ايلول (سبتمبر) وفي شهر سبتمبر قررت ان ارحل على متن احدى السفن الى "مانجالور"، وكان ذلك المركب، من بين جميع المراكب التي تقطع البحار، اكثرها بؤساً وقذارة، ولايوجد على ماظن اسوأ منه، بل اكثر قذارة من البانامار الهندي. اذ يوجد دائماً على سطح المركب كمية كبيرة من الزيت العفن، والكثير من الاسماك المملحة التي تكاد تكون فاسدة. ولايوجد ملجأ على سطحه سوى بضع اماكن رتبت بطريقة يمكنها ان تصنع سقفاً ما. وان اي مسافر يوّد الذهاب الى (مانجالور) سالكاً نفس الطريق سيجد مراكب اخرى ولكنه يجب ان يتحلى بالصبر لينتظرها. وانا لم يكن عندي صبر لذلك. ولكنني عوقبت لعدم صبري. فقد ظللت اربع عشرة ساعة تحت المطر دون توقف للحظة واحدة. وبعد ان واجهنا عاصفة كسرت صارية المركب والدفة وصلنا اخيراً الى مانجالور. وتعتبر تلك المدينة مستودعاً كمركياً تجارياً بين الخليج الفارسي ومؤسسات مدراس. ويتم توريد عدد كبير من الخيول العربية والفارسية من البصرة وبوشهر الى مدراس وشبه الجزيرة بوجه عام. ومن ثم بواسطة "مانجالور". يتم تزويد ديكان وجميع محافظاتها الشمالية بالمؤن. يجلبون كذلك بعض اكياس التمور والجلود من دياربكر

واللؤلؤ والفيروز كذلك. ولان تلك المدينة تتمتع بعلاقات مباشرة مع بومباي ومختلف الموانئ الشمالية، فانها دائماً يعتبرونها نقطة انطلاق بسبب مختلف المكاسب التي تقدمها للمسافر.

وتُعتبر صخور (كاديري) ومغاراتها الاشياء الوحيدة التي تستحق الاهتمام. ويدلل المعبد القائم هناك على قدسية المكان. ويقع اسفل الهضبة ويحوي الكثير من الاحواض لكي يستطيع المؤمن اكمال اغتساله. ونرى على المُرتفع ويسار الطريق عين تنبثق من الصخرة لتنشر الماء الصافي بل الاكثر صفاءً. والى اليمين على بُعد قليل، يوجد عدد من المغارات او الصوامع، تعود كل منها الى قديس ومازالت تحتفظ باسمائهم. وهناك بئر ضيق تقع تقريباً على قمة الهضبة وكانت تلك من اكثر الاماكن التي زرناها اثارة للاهتمام؟ ليس فقط للبئر بالذات وانما لتلك القصة الغريبة التي تصور احد النُساك بأنه ظل معلقاً فوقه مدة ثلاثين عاماً. وكانت راحته الوحيدة ان يترك قدمه ترتاح قليلاً على الصخرة ليستريح. ومازال الاثر الذي تركته قدمه لتبرهن وبشكل كاف على ثبات مصير ذلك الناسك المتحمس وتطرفه, وذلك الاثر الباقي هو دون شك ثمرة عمل سنين طويلة وتوجد فوق القمة عدة معابد صغيرة تبلغ مساحة كل منها من ثمانية الى عشرة اقدام مربعة.

ويحب "البراهمة"* كثيراً الرموز والكتابة الغامضة التي تتحمل مختلف التأويلات التي تثير الدهشة ولاتلحق الضرر بالحقيقة. ومن المستحيل عليهم غالباً شرح الاستعارة بل ويتقبلونها بشكل حرفي. وهكذا اخذونا لرؤية ممر يخترق هذه الصخور ويقودنا –كما كانوا يقولون– الى (بيناريس Benare`s)** وكان البراهماني الذكي محقاً دون

---

* البراهمة هم درجة عليا من كهنة الهندوس. [المترجمة]

** منطقة في الهند. [المترجمة]

شك، مهما كانت المساحة لِتصلَ الى عدة مئات من الاميال، فأن اي ممر آخر نصف بيضاوي ومفتوح من الطرفين سيعود اليها بالمثل.

ان ذلك المكان الذي اقدم له وصفاً اليوم، يعيد بشكل ما لوحة للعادات والتقاليد لتلك المجموعة العجيبة من الناس التي عاشت في تلك الصوامع الضيقة. ولم يبقَ يعيش فيها سوى ناسك واحد يعيش وحيداً ويتمتع بشهرة كبيرة من القداسة. ويقول انه جاء من (بينارس) في صباه حيث كان جندياً، وانه قد عاصر فورة الحرب، ويحب كثيراً الحديث عن مآثره. اما طول العمر الذي أتى على قواه، قد ابقى بالكاد على وميض نظراته الثاقبة. وكان طويل القامة نبيلاً في مظهره. كما ان مائة من السنين تقريباً، قد تركت شعراً اشيب وقوراً. اما مهمته فكانت مقدسة كما المكان الذي يعيش فيه. ولايمكن للخيال ان يجنح بعيداً هنا عن ذلك الوسط، كما يمكن ان يفعل ان كان ينظر الى مشهد رومنطيقي ما.

والعقوبات التي كان يفرضها النساك الهندوس على انفسهم من اجل التقديس او التكفير عن ذنوب صغيرة او خيالية، كانت موضوعاً يوصف دائماً. وقد سنحت لي الفرصة عدة مرات لكي اقنع نفسي ان وصف تلك العذابات التي يتحملونها في صبر وعقلية دينية متطرفة، لم يكن فيه شئ من المبالغة.

وفي (كانانور)، حيث كنتُ في مقر الحراسة، رأيت فقيراً هندياً، يقف بثبات لايتحرك، قبضته معقودة فوق رأسه، وهو امر معروف كان قديماً شيئاَ مُعتاداً. ويقف على تلك الحالة وقتاً طويلاً، حيث لاتعود يداه الى وضعهما الطبيعي؛ بل يظل هكذا ثابتاً لايتحرك وحيث تنمو اظافره لتعبرُ راحة يده وتصل تلك الاظافر الطويلة حتى المرفق. وامام معبد "چاجارنو" الكبير، رأيت ناسكاً هندياً مُمدداً على لوح خشبي كبير بطوله مغطى بالمسامير المدببة. وقد التقيت في رحلتي بناسك اخر من هؤلاء المتحمسين

المتطرفين، كان يقيس الطريق بجسده، من (بينارس) الى (چاجرونوت) والبالغ ستمائة ميل، واستمر ثلاث سنوات منذ ان بدأ ذلك الامر. وعندما رايته كان قد انجز مائة ميل فقط من تلك المسافة. وكان لي صديق التقى به قبل ان أراه بشهور. وكان منشغلاً بذلك العمل المضني. يُقال ان الكثيرين يلقون حتفهم اثناء قيامهم بمثل مايقوم به ذلك الناسك. وسمعت عن احدهم انهم قد اجبروه على التخلي عن القيام بذلك عند قيام العقيد "هاركورت Harcourt" باحتلال (كُوتك Cuttack)؛ فقام بحبس نفسه في صومعة ارتفاعها اربعة اقدام وعرضها قدمان ، ولمدة عشرين سنة.

تلك هي العقلية السائدة للدين، عمل مُبشرُونا على تدميره بجهود ضئيلة متخلفة. ومن المستحيل ايجاد تلك التعابير التي تستطيع ان تصف هؤلاء المهووسين الذين يقومون بتلك الممارسات بحثاً عن الاستغفار والتكفير عن الذنوب عن طيب خاطر في صبر وثبات. ونستطيع ان نتألم او ان نتململ من تلك المبادئ الخاطئة المُنافية للطبيعة والتي هي منبع واساس تلك الرغبات؛ ولكننا في ذات الوقت نرى انه من المستحيل عدم اظهار اعجابنا بذلك التصميم والاصرار والثبات والصبر في سبيل تحقيقها. فليظهر هؤلاء المبشرون المُدعون القادمون من ادنى طبقات المجتمع والذين يسيئون لمُهمتهم؛ فليظهروا اذن نفس تلك الشجاعة ويُكفروا، عن اخطائهم الخاصة. حينذاك، وحينذاك فقط، سوف تؤتى اعمالهم في رحاب الله ثمارها: وحتى ذلك الحين، والى ان يأتي ذلك الوقت، فان ذلك الناسك الهندوسي الممدد فوق سرير المسامير هذا لسنوات دونما حراك سيحافظ ويؤكد على افضلية عقيدته، وسيطالبهم مستعيناً بشجاعته وقوته بممارسة نفس الاختبار. فماذا يفعلون اذن آنذاك؟ وهل هم على استعداد للاجابة رغم اعتراضاتهم؟ وما هي المسؤولية التي سيتحملونها عندما يقطع التطرف خيوط صلاته بالعقل،

وعندما تضيع الهند؟ ومن اسباب قوة حكومتنا في الشرق هو التسامح الديني، لانهم يقارنون ذلك السلوك بسلوك المسلمين. والبرتغاليين. فهل يمكننا ان نفقد امتيازات تلك المقارنة؟ وهل يمكننا زعزعة دعائم قوتنا؛ لينهار البناء كله بضوضاء كبيرة، وندمر في يوم واحد انجازاً من انجازات مجدنا في قرننا هذا؟ ويفرض ديننا بالتأكيد التزامنا بالبحث عن طرق آمنة وسلمية، في استقامة وسداد راي. ولكن لكي نتغلب على ذلك العائق، يكفي ان نجيب بان تلك المحاولات في الهند تخلق آثاراً محورية مضادة لذلك المفهوم. ولهذا فان الهندي الفاسد لن يستوعب اسرار عقيدتنا الا لكي يستغلها بحرية لتحقيق مآربه وغاياته، اكثر مما تمنعه وبوضوح تام نظمها الصارمة عن القيام بذلك.

وفي الثالث من اكتوبر، اسعدني الحظ بلقاء احد اصدقائنا الذي كان متوجهاً بدوره الى بومباي. وقمنا باجراءات كبيرة لكي نكون على متن مركب كبير كان على وشك الاقلاع، وحددنا بدقة اللحظة التي سوف يُقلع فيها، والموانئ التي سيتوقف فيها والمدة التي تستغرقها زيارة المركب؛ وهي احتياطات اتخذناها لتفادي اخطاء لافائدة منها. وبفضل ترتيباتنا، اقلعنا في الرابع من اكتوبر من مانجالور ورسونا في الثامن من الشهر في (جونتاى Gontai)، وهي مدينة هامة كانت قديماً مقراً لاحد القضاة. ورأينا فيها الرائد "جيلبرت Gilbert" الذي استقبلنا بحفاوة ودودة. ورغم ان ذلك شئ طبيعي بالنسبة له، فانها واقول بفخر فضيلة اقاليمنا. وكان ذلك الضابط في جولة ليختار اخشاب البناء التي تحتاجها الشركة وتراه دائماً في قلب الورشة، يراقب بنفسه كل شئ؛ ولم يتمتع مطلقاً لا بالشركة ولا بمواطنيه، وانني ارى ذلك الضابط واحداً من كثيرين يضحون بصحتهم وبجزء من حياتهم لكي ينجزوا بصرامة الواجبات التي تُناط بهم.

في الحادي عشر، مررنا امام (سيدا سيرغور Sidassirghur) حيث نجد احدى حامياتنا؛ وهي قلعة صغيرة. كما انها تشكل خطنا الامامي في الهند على ذلك الشاطئ[1]. في حين ان الاراضي بينها وبين بومباى تحتلها دول اخرى. في الثاني عشر وصلنا (جوا Goa)، وكانت قديماً عاصمة لامبراطورية قوية. في حين عمل الفساد والترف وكسل الفراغ على تدميرها تحت تأثير الخرافة. واليوم تحوي جوا، قُسُساً اكثر من الجنود، وكنائس اكثر من القلاع. لاتوجد تجارة ولاتجار، ولاتوجد معامل يقوم فيها العمال بالعمل اليدوي. وفي المقابل، نُصادف عجرفة وتطرفاً تستطيع ان ترسل الكثير منها الى نصف العالم. ولا ننسى مطلقاً تلك الصفات التي ترفعنا عن الاقتداء بها وتجاهلناها، فهي مثل يتسبب الاقتداء به الى خرابنا؛ ولكي تكون منارة لنا تدفعنا دوماً بعيداً عنها وتفاديها، فهي حجر عثرة تؤدي الى الهلاك. لقد انهارت امجاد البرتغال في ذلك الوقت الذي تم فيه احتقار ابسط فضائل الحياة العسكرية؛ وحيث انتشر الفساد بأثاره التدميرية في كل مكان، وحيث تم رفض مَنْحَ التكريم والمكافأة لمن يستحقها؛ لكي تُغدق بعد ذلك على المُدعين وذوي الطموح. واذا ما اتبعنا نفس المسيرة رّبما انتظرنا نفس المصير، حتى وان لم تساهم في ذلك تلك العجرفة والخرافة، او حتى وان رفضهما العقل عبر دين يعتمد فقط على الايمان.

وبومباى التي وصلناها في السادس عشر من الشهر، واحدة من تلك المناطق، حيث الموقع، الحدود، الاثار، والمناخ المعروف جيداً والتي لايمكن لاى وصف ان يعطيها حقها. ولكننا ننظر لذلك الامر بطريقة اخرى، لاينقصها الاهتمام، انها المقارنة بين ماكانت عليه بومباي منذ بضع سنوات وما هي عليه اليوم. ولن نذهب بعيداً اكثر من عام

[1] كانت تلك القلعة الخط الامامي عندما ترك الهند... وما ان انقضت بضعة اشهر على رحيله، حتى خضعت لنا معظم اراضي "جوكانGocan " تقريباً.

١٧٦٤، حيث قدمها احد علماء الغرب، مكاناً يتطور باضطراد خلال العشرين سنة الماضية، ويقول انه خلال تلك الفسحة من الزمن ازداد عدد سكانها بشكل ملحوظ من (٧٠) الفاً الى (١٤٠) الف نسمة وهي اليوم اصبح سكانها ضعف هذا الرقم على اقل تقدير منذ ذلك التعداد الاخير. كما ان بومباى، مدراس وكلكتا تدخلان بنفس تلك الحسابات بتقدير ٣، ٤، ٦ بالمائة احداها تجاه الاخرى. وفي تلك الفترة واستناداً على نفس المصدر، كانت الشركة تشرف على سبع عشرة شركة للمشاة، ثلاث للمدفعية، وخمسة الاف على الجزيرة نفسها؛ وذلك من اجل حماية بومباي والدفاع عنها، وعن جميع متعلقاتها من مدن ومؤسسات على طول ذلك الساحل، وتعمل جميع تلك القوات تحت امرة رائد واحد، ورايه هو الراي الثالث في المجلس اذا لم يتعلق الامر بالشؤون العسكرية.

واليوم، وتحت قيادة ضابط عام ، يعمل تحت امرته العديد من حاملي لقب لواء، يتكون جيش بومباي من ثمانية عشر فوجاً نظامياً اذا لم توّد احتساب الزيادة الحديثة، ولا عن الكتائب الملكية المُلحقة كذلك بادارة الشركة. وفي عام (١٧٦٤)، التحقت عشر طرادات بادارة الشركة تعمل في الخدمة على الساحل. ونمتلك اليوم ثماني عشر طراداً، رغم بعض التخفيضات التي جرت مؤخراً في ذلك القسم. ويمكننا مضاعفة ذلك العدد الى ما لانهاية سواء عن طريق التجارة التي توفر لنا الوسائل بسهولة للقيام بالتجهيزات اللازمة، او بفضل مانمتلك من ورش انجزت منذ فترة بناء سفن قوية جداً، والقادرة على حمل من سبعين الى ثمانين مدفعاً. تلك هي الاضافات المتلاحقة السريعة لادارة منطقة واحدة من بين ثلاث. وهي الاصغر بل الاقل اهمية بينها. والاثنتان الاخريان، ليستا بعد رهن الانهيار، فهناك خمسة ملايين من الرعية المسالمين وجيش منضبط

شجاع قوامه مائتي الف جندي، واسطول كبير يمتلك (٣٧٣٥) مدفعاً، وكل ذلك يكفي لكي نعتقد ان كل ذلك في خدمة الشركة والدفاع عنها.

تلك هي التحسينات التي انجزناها منذ خمسين عاماً. وذلك هو البريق الحالي لقواتنا مقارنة لما كانت عليه قديماً. ولرّبما تحمل تلك الصورة التي قدمتها طابع شعور عبثي بالغرور. ولكن ممتلكاتنا في الهند قوية في الوقت الحاضر. وعندما نستعرض قوتنا امام الجميع، يمكننا آنذاك اعاقة اية موجة عدوانية ضدنا. وتقمع بذلك تلك الامال الخادعة لاعدائنا الذين لن يجرؤوا على مهاجمتنا خاصة اذا ما شاهدوا استعدادتنا للدفاع عن انفسنا. فقد كان اجتياح الهند دائماً املا واهياً لطموح مجنون. ولكن لكي نجعل نجاح طموح كهذا من ضروب المستحيل؛ لايكفي ان نحيط انفسنا فقط بتلك الاستحكامات والاسوار العصية على الاعداء وضد الهجمات الخارجية، بل يجب ان نحذر كذلك من تلك ((الشرور التي تولد الفساد)).. وان كنا لم نبدأ التحرك بعد، يعتقد البعض في القارة كلها اننا تحملنا الهوادج وتصاحبنا فرق الممثلين والراقصات. فلايمكن لنا ان ننكر اننا سمحنا سابقاً بوجود تأثير كبير لبعض اقسام الادارة التي صنفتها طبيعة ممتلكاتنا نفسها انها في المرتبة الثانية. وعندما تكون الوظائف المدنية من مصادر اشاعة الهدوء والطمأنينة، يمكنها ان تتحكم في استخدام القوة وفي غمرة اعتدادها نستطيع ان نحتقر الاستحقاق العسكري. ولكن اذا كان الحال غير الحال، يمكن ان يثير مثل تلك الادعاءات غير المسببة استياءً خطيراً، او تعمل اول الامر على اشاعة الضعف وتنتهي بخنق الروح العسكرية التي احياناً ما تنطلق لتتجاوز تأثيرات الترف او الفساد. لقد كان البرتغاليون يقاتلون بشجاعة فائقة لاتُقاوم، حتى في ذلك الوقت عندما كانوا يقاتلون محمولين على محفات، وبقى لهم الشرف والفخر النبيل ومازال؛ كما انهم مازالوا

يحتفظون بمكانتهم وكرامتهم، والحرس البريتوري * العريق رغم مظاهر الضعف الذي انتابته؛ فانهم يعرفون مع ذلك كيف يتركون فراشهم الحريري الاحمر الوثير، ومتع الحمامات لكي يقاتلوا محاربي الدانوب والراين؛ فهم دائماً فرق البريتوريين العتيدين العمالقة؛ هرقليي ** اليوم.

لم تطل اقامتي في بومباي حتى اتمكن من معرفة الكثير عنها. ومع ذلك سنحت لي الفرصة ان الاحظ انه حتى لو عاش المرء فيها منعزلاً اكثر مما يفعل في اي مدينة اخرى نمتلك فيها حامية، فان الحفاوة وكرم الاستقبال لاتوجدان فيها دون فائدة. ولايقيم السكان حفلات كبيرة فاخرة، الا ان استقبالهم لنا، لايقل صراحة او اخلاصاً. وان مجرد توصية بسيطة تكفي غالباً العون والمساعدة التي يعدوننا بها عندما نكون في مزاج معتدل، والتي غالباً ماينسون تقديمها..

---

* صفة استعارها الكاتب عن الحرس البريتوري الامبراطوري وهم نخبة ذوى الشجاعة الفائقة وكانوا يسمون البريتوريون. وعندما يقول الحرس البيرتوري فهو يقصد البرتغاليين هنا. [المترجمة]

** صفة مشتقة من هرقل البطل اليوناني القوي المعروف. [المترجمة]

الفصل الثالث

الرحيل من بومباي، سواحل اليمن السعيد، مسقط، سكانها، بيع العبيد، ظروفهم، رحلة في الداخل، خطر يفاجئ السفينة، السكان، مناخ وتأريخ مسقط

***

في يوم السبت الثاني والعشرين من اكتوبر، تركت بومباي وابتعدت عن منطقة مازلت افكر غالباً فيها ويغمرني شعور بالرضا والاسف معاً. انها ارض غريبة تركتها لاعود الى موطني، والى اهلي، الا ان التعلق تجاه بلد اقمنا فيه خمسة عشر عاماً، الى جانب عذاب الفراق عن اصدقاء جيدين عزيزين قد مارسا تأثيرهما على قلب تتنازعه مرارة الاسف وحلاوة الامل.

وجاء رحيلي فجائياً وغير متوقع، وكنت حريصاً على الاّ احمل سوى الملابس الضرورية للرحلة، وسلاحاً للدفاع عن النفس وحقائب لاتثير الاهتمام وطمع احد، آملاً الا اواجه اي ازعاج في الطريق. وكنت قد اعددت نفسي للمغادرة الاثنين القادم. ولكن كم كانت دهشتي كبيرة عندما اخبروني يوم السبت الساعة العاشرة، بأن السفينة قد اقلعت, وخرجت من خيمتي ورايتها تبتعد في الواقع عن الشاطئ، وقد افردت جمع قلوعها. ان الاضطراب الذي شعرت به آنذاك يمكن ان يكون درساً للمسافرين. واذا لم اكن مستعداً من قبل لاى طارئ، فلربما كنت الان اعض اصابع الندم على اختياري. ولم تكن لدي لحظة لاضيعها، فجمعت اوراقي واشهاداتي التي اعددتها سلفاً ورسائل التوصية، اخيراً كل ماكنت في حاجة اليه واخذت قارباً (بُوندر) لالحق بالسفنية التي مازالت تبتعد.

وتعود قوارب (بوندر) وملاحوها الى شركة نظامية يترأسها القبطان "كيس Keys"، كما ان سرعتها وهي تمخز عُباب الماء، ومتانة بنائها، ومهارة وشجاعة بحارتها، تجعلها على الاقل مثل جميع المراكب المكشوفة التي رأيتها. وكان لدى الوقت لتأملها فأمامنا اربع ساعات على الاقل للحاق بالسفنية؟ وعندما وصلنا اليها غابت الارض تقريباً عن اعيننا, كما ان قائد السفنية كان كمايبدو قد كون فكرة خاطئة عن اهداف القارب الذي يطارد سفينته. وكان المسكين قد نسى كل شئ عن احد ركابه وعن التزاماته تجاهه، وظن على مايبدو اننا نحمل له برقية لم يكن راغباً في استلامها. ويبدو انه كان خائفاً من القانون ولم ير الاشارات التي ارسلناها له. وما ان اصبحت على ظهر السفينة قَدَّمَني لرئيسه الثاني وهو يتمتم ببعض الاعذار على ذاكرته الضعيفة واراد مني ان ابرهن بأي شكل على انني قد تصالحت ونسيت الامر.

وفي صبيحة السابع والعشرين، كان لدى كل الوقت لاتفحص السفينة، وأتأمل ذلك الجمع الغريب المتنافر على متنه. لقد كان مركباً عربياً بحمولة (٣٥٠) طناً، يديره طاقم يتكون من خمسين بحاراً، ويسافر على متنه تسعون راكباً. ومن بينهم ثلاثون ايرانياً اقوياء مفتولو العضلات ومشاكسون. اما الباقون فكانوا عرباً، اتراك ويهود، وغرباء من جميع الرتب ومن كل الطبقات وجميع المهن التي يمكن تصورها. تجار، حجاج ذاهبون لزيارة القبر المقدس في كربلاء، تجار خيول، جنود، شخصيات بارزة وعبيد. كانوا قد جاءوا من جميع الجهات الى بومباي وسوف ينشرون في ارجاء العالم مذاهبهم الخاطئة واحكامهم المسبقة، جنونهم وآمالهم الادعائية.

ويبدو "الفالنادار" او الكاتب وشخصان آخران تركيان مثقفين جيداً. ويبدو ان تلك الرحلة كانت لصالحهم لدرجة ان حوارهم اثارني

بشدة. هذا الى جانب تلك السهولة التي يتحدث بها احدهم الفرنسية. وحسب علمي حتى فان مظهره الخارجي وتصرفاته لايوحيان كونه فرنسياً اصيلاً كما يدعي. ولم يكن هو الوحيد الذي اراه هكذا، فقد رأيت امثاله في رحلاتي، بل انه يدفع الى الظن بانه اوربي متخفي. وينزل امثاله على سواحل بلادنا دون مقاومة، ويعبرون بلادنا بكل هدوء وطمأنينة كما المسافرون المسالمون.

لن اثير استياء قرائي وانا اصحبهم في تلك المنعطفات التي تحملناها بسبب جهل قبطاننا، لكنني ساقودهم مباشرة الى منفذ الشيطان حيث لم نصل الا في السابع من نوفمبر. وكما يقول البحارة، فان تلك التسمية قد اطلقت عليه بسبب تلك الرياح العاتية والزوابع التي توجد دائماً في تلك المناطق. ووفقاً للكاتب والتركيين فان تلك الرياح العاتية والزوابع، وما يصحبها بعد ذلك من هدوء تام عادة، تحدث بسبب فجور وفساد السكان الذين يعيشون على سواحل تلك المناطق. ومن المؤكد ولستة ايام متواصلة، وبفضل ذلك الهدوء السائد، نجد انفسنا مع كل طلعة شمس واقفين في مدخل الخليج. وبدأت اخشى، كما فعل "السندباد"* من قبل، ان نكون في ضواحي جزيرة مسحورة ولن يخرجنا منها الا تدخل "الجنية"** الطيبة في حين كان التركيان يفكران بطريقة اخرى فهو منهم وكذلك صديقي الكاتب؛ يقولون ان سبب احتجازنا يعود الى خطايا وجرائم شخص مابين المسافرين او من الطاقم نفسه. وتشير اليه يد النبي، وطالما انه لم يتطهر من ذنوبه فلا امل مطلقاً باي خير قادم. واقترحوا وضوءاً عاماً شاملاً. ويبدو ان تلك المحاولة قد نجحت، لان هناك عربياً ويهودياً اختفيا من على سطح الباخرة، في نفس اللحظة

---

* ابطال قصص عربية وعالمية. [المترجمة]

** شكل اسطوري لملاك صغير يساعد المظلومين ويقدم دائماً الخير. [المترجمة]

التي هبت فيها النسائم العليلة. وتتحدث تلك الحادثة عن نفسها. يقول احد الاتراك بكل جدية وهو يداعب لحيته، ((انها مشيئة الله، وبأذن الله فقد هبت ريح طيبة. رُبما كان الرجلان فعلاً سيئات)).

تلك كانت الملاحظة الوحيدة التي اوحت اليه بها تلك الحادثة، التي نسيها الجميع في نفس اليوم، حتى انه قد نسيها اولئك الذين عملوا جاهدين على انقاذ الرجلين سيئي الحظ. ذلك هو الرجل!

وصلنا مسقط في الثاني عشر ظهراً، حيث رأينا هناك خمساً وعشرين سفينة صغيرة تحيط بالفرقاطة العربية "كارولين" التي تحمل اربعين مدفعاً. ورأينا في الخليج سفينتين انجليزيتين راسيتين، الى جانب وجود ثلاثين او اربعين سفينة تجارية تقوم بتحميل او بانزال حُمولات التمر والملح والارز ومختلف انواع البضائع. ولان سفينتنا كانت تهدف الى القيام ببعض العمليات التجارية، فقد تقرر ان نبقى في مسقط لبضعة ايام. وقد القى القبطان المرساة بالقرب من الشاطئ عكس ما اراده ملاحه، وقد اخطا بذلك ليتلقى العواقب.

وتقع مسقط على الساحل الشرقي لليمن السعيد على خط العرض ٢٣ ٣٨ شمالاً، وخط الطول ٥٧ ٢٧ شرقاً في تلك المنطقة الصغيرة الخصبة جداً في عمان. ورغم انها كانت معروفة لليونانيين وللقائد اريان، فقد ظلت تلك المدينة لاتتمتع باية اهمية حتى وضع الفرس ايديهم على هرمز عام ١٦٢٢، في فترة لجأ فيها اكثر السكان الى مسقط. ومنذ ذلك العهد، وبفضل موقعها على خليج آمن، اصبحت مسقط ميناءً مريحاً يمنح ارساءً جيداً، وكانت لها تجارة واسعة . ويكفي للاقتناع بذلك، وجود ذلك العدد الكبير من السفن التجارية التي رأيناها عند مجيئنا. وها هي ارض العلم والادب امامي، والكثير من الاشياء التي تثير الاندهاش او

الاهتمام في متناول يدي كما يقال. لم ارد ان اضيع لحظة، اخذت قارباً وبعد بضع دقائق وجدتني على الساحل.

ها هي دائرة الجمارك، القصر وما يحيط به، الاسواق والشوارع الرئيسية المزدحمة بالعرب من جميع القبائل والاوساط، باليهود والهندوس والبلوش والاتراك والافارقة. وجدتني آنذاك وسط جنس من الناس كتب عنهم: "يرفعون يدهم ضد كل رجل، وترفع يدك ضدهم". الجميع مسلحون، العرب كل على نهج قبيلته فتراه يحمل بندقية قديمة او رمحاً. والبلوش، عُراة الاجساد حتى الخصر يحملون سكيناً اوسيفاً مزدوج المقبض وضيق النصل. وها هو البدوي المتوحش يتميز بمنديله على الرأس يحيط به وتُثبته حبال السوط؛ وبردائه الخشن. انه قاطع الطريق الصحراوي تتعرف عليه في نظراته النارية، وهيئته القلقة (اللوحة رقم ١). ويتعرف الاخرون على اولئك ذوي الرأس العاري والشعر الاسود الطويل يتطاير مع الريح، رُبما لكي يُضفى ذلك عليهم مظهراً مُخيفاً؛ انهم تلك الادوات المتوحشة الذليلة التابعة لذلك المستبد وفي خدمة استبداده وظلمه.

هؤلاء هم من اتجول بينهم. جميعهم مسلحون، ولايوجد من بينهم من لم يقم بعدة تصرفات عنيفة واعمال عنف وظلم آثم. ومع ذلك لم اواجه اقل اهانة. ولكنني التقيت ببعض العبيد الافارقة ممن يعملون خلف المدينة، وظنوا انني وحيد بلا حماية، فبدأوا بالتهجم المهين لاجباري على التخفيف من ذلك التصور. واظهرت فجأة المسدسات التي احملها في حزامي وكان ذلك كافياً لكبح جماح وقاحتهم. وكثيراً مايقوم هؤلاء في ضواحي المدينة بسرقة الاجانب الذين يسيرون بلا دفاع. ولكنهم عندما راوني مُسلحاً ومعروفاً لدى بعض المارة حينذاك، تركوني وعادوا الى عملهم. وما ان عدت الى المدينة طالبتٌ احد موظفي الشركة تزويدي بدليل وبمترجم لمرافقتي.



وقد زودني "غلام اموندا س Gulam Amundas" بمترجم ودليل وواصلت معهما رحلاتي داخل البلاد نحو الظهر. وقمت بزيارة الاسواق، وكذلك قريتين في الضواحي، ومسجداً سمحوا لي بكل سهولة ان ادخله على العكس من غيرهم من المسلمين. ولكن سكان مسقط من طائفة الاباظية (ويطلق عليهم السنة والشيعة "الخوارج"، كنوع من التأنيب واللوم). واولئك السكان رحماء جداً، وكذلك فهم بسطاء جداً في عاداتهم ولانكاد نميز وجود

فروق ولو قليلة بينهم وبين من يعتنقون ديناً اخر في السلوك او العادات. كما انهم لايفضلون احفاد علي او "محمد علي" احفاد اية اسرة اخرى قديمة وعريقة. وعندما عدت في المساء، عبرت السوق حيث يقام مزاد لبيع العبيد ثلاث مرات في الاسبوع. وكانت اجراءات البيع قد بدأت، وتوقفت لارى مشهداً كان جديداً بالنسبة لي على الاقل. وكان هناك عشرون او ثلاثون عبداً جاءوا بهم عبر الصحراء من سواحل زنجبار وتم رصهم في صفوف على جانبي السوق حسب الجنس. ولم يكونوا يرتدون جيداً سوى حزام يغطي وسط الاجساد، والنظيفة والملساء كما يريد ذلك اسيادهم. اما المشترون فكانوا يتجولون بين صفوفهم يفحصون ويلمسون اجسادهم وجلودهم خاصة من يريدون شراءهم. لقد كانوا يفحصون ادق التفاصيل في سوق النخاسة هذا لدرجة انني ظللت مشدوها فلم يكن لي علم بذلك، فالعملية تكاد تشبه فحصى لحصان او جمل اود شراءه. ثم ظهر عربي ضخم قوي من بين صفوف عبيده الذين يعرضهم للبيع، واخذ يتجول مع صبي عمره من عشرة الى اثنى عشر عاماً وهو يصيح في صفاقة ووقاحة وصلافة مهنته، معلناً عن سعره وعُمره وطوله وسلالته وصفاته ((اربعين دولاراً!)).

((اربعين دولاراً))، قالها لي بالهندية عندما رآني اقترب. اربعين دولاراً وهو لك. لتطعمه او ليموت جوعاً، لكي يعمل او تقوم بتربيته كما لوكان ابنك. ((ارفع رأسك ايها الوغد))، صرخ قائلاً له. هل تحب ان ابيعك لهذا "الفرنجي"؟ انه ثري، وصاحب ثروة". نظر الطفل الي واخذ يضحك. وامسك بيد سيده، ليعرضه بنفس الطريقة على مختلف الهواة. وقد اشتراه على ما اعتقد ، عربي مُسن ذو فراسة وبصيرة يعرف كيف يختار الصغار الافارقة ويشتريهم. كدت ابتسم وانا اشاهد ذلك الفحص المُعمق الشامل الذي اجراه، ولولا سنه لكان يمكن ان يكون موضع شك. فبعد ان جعلهم يفتحون افواهم، كانت طريقته في فحص اسنانهم تدل على معارفه الواسعة

بذلك الموضوع، والتي تفوق في شموليتها وعمقها معارف خبراء الخيول في منطقة (كونت يورك). ولقد اخبروني بان اسنان النسوة قد تم بردها لتظهر مدببة وهو مظهر جمالي، زينة كما تعتبره النساء، ولكن ليس بالنسبة للعرب الذين يربطون شكل اسنانهم هذا ببعض الافكار التي يستقونها من القصص، وانه قد تم تشويهها لانهم من آكلة لحوم البشر. وهذا حافز قوي لعدم شراء هؤلاء النسوة المسكينات. ويمكن بالطبع لموضوع كهذا ان يستثير بالطبع بعض الملاحظات حول وضع العبودية الحالي ونتائجها في البلاد الاسلامية التي قمت بزيارتها. ولكن، وقد سنحت لي بعد ذلك فرصٌ متقاربة ومؤاتية للحكم على مصير العبيد الذين يعملون خدماً في المنازل، وسلوك اسيادهم تجاههم في مختلف الظروف. ولن استغل كوني كاتباً، واتشارك في موضوع يتطلب جميع معارف الخبرة. ومن المؤكد ان العبيد في مسقط يعاملون بانسانية تُشرف عوالمنا. اما العمل الاكثر ايلاماً الذي يقومون به هو ادارة القوارب الصغيرة. وهم يعيشون في منازل اسيادهم. يتناولون نفس الطعام ويشاركونهم شرابهم، ولن يتعرضوا بعد ذلك مطلقاً للعرض في سوق النخاسة لبيعهم، وسوف يحدث ذلك فقط في حال قيامهم بتصرفات سيئة. واذكر حالة تُدلل على مايقوم به السيد تجاه عبده المخلص الطيب، فعندما افلس سيده و اضطر لبيعه، اراه قد تنازل عنه لصديق مُقرب، الذي اظهر له احتراماً اكبر مما ابداه له صديقه، وذلك بسبب وفائه وتفانيه.

ولانني لم اكن اعرف ان اقامتنا يمكن ان تمتد، قررت استغلال كل لحظة ولا اهدر وقتي. وبعد ان قمت بزيارة الامام، تجرأت وتوغلت داخل البلد مصحوباً برفقة كان في وسعي الحصول عليها بسهولة، وذلك لكي استطيع رؤية الحدائق الكثيرة وعيون المياه الساخنة الطيبة التي سمعت عنها كثيراً. قمت بالاجراءات التمهيدية لذلك. واخبرني الهندي البراهماني ان الدليل والحصان والزى ستكون افضل حماية يمكنني ان احظى بها.

وفي صبيحة الرابع عشر، صعدت على متن سفينة، مرتدياً ذلك الزي الذي جلب لي احتراماً واهتماماً كبيرين، لم يكن الناس معتادين ابداءهما تجاه تلك الفئة من قباطين السفن التي تتواجد كثيراً عادة في تلك السواحل المقفرة،ولم يكن صعباً علي ان اصل الى الامام، وافسح لي رجال معيته مكاناً، واصطحبوني الى حيث يجلس الامام مُحاطاً بمساعديه وعبيده. وكان "سيد سيد" (وذلك اسم الامام) رجلاً في متوسط العمر، وذا مظهر محترم وسلوك بسيط دون ادعاء. وكان واضحاً انه يعلم انني ضابط انجليزي، وكذلك دوافع رحلتي، لانه بعد ان شرفني بالقيام لاستقبالي، وجه الي بعض التكريمات المعتادة في مثل تلك الظروف، ثم قال انني لست اول ضابط انجليزي يستقبله في مسقط، وردد على اسماعي حينذاك جميع من رآهم سواء لدى حضورهم لبلاده او مغادرتها الى انجلترا. بل طلب مني في حماس ان احدثه عن اخبارهم مما يُدلل على اهتمام حقيقي. وعرض علي بعد ذلك خدماته وردد الكثير من المديح لبلادي ظناً منه ان ذلك يدغدغ كبريائي. ولكي يستعرض كذلك سعة معلوماته حول طبيعة وسيادة قوتنا البحرية، بل ولكي يظهر من جهة اخرى صورة كبيرة على اهميته؛ لان الرجل وجب عليه ان يكون مميزاً الى جانب ادبه و مدنيته. وعندما لاحظ انني اود الانصراف لكي احقق تلك الرحلة التي افكر بها دوماً، جدد لي عروضه لتقديم الخدمات داعياً لي بالصحة والحماية الالهية والتوفيق خلال رحلتي. وطلب مني ان اخبر الشركة بانني التقيت به وانه يبعث باحترامه وتقديره للسيد جورج شاه زاده.

وعندما ذهبت لرؤية البرهاني، وجدته يتحدث مع اثنين او ثلاثة من العرب. وقدمني لاحدهم وهو يقول لي بانه يمكن ان يكون دليلاً لي، وقال انني استطيع ان اعتمد عليه كلية كما وقال انني استطيع ان اعتمد على اخلاصه، وطلبت منه احضار ثلاثة خيول لمدة ثلاثة ايام، مقابل عشرين

قرشاً. وذهبت لتبديل ملابسي في الوقت الذي ذهب فيه لانجاز ذلك. وحين عاد، رحلنا وبدأنا احدى الرحلات الرتيبة المملة والمتعبة، التي يمكن ان يقوم بها اي رحالة. توغلنا في ضواحي مسقط، حيث لازرع، ولا ضرع، ولاشجر ولا احراش فيما عدا بعض اشجار النخيل بالقرب من آبار المياة الباردة جنوب وغرب المدينة. ولكما توغلنا داخل البلاد، كلما رأينا ان الاراضي جرداء وغير خصبة قاحلة، ولم اجد احداً استطيع حتى ان اتكلم معه. ودليلي رجل عربي آخر يتحدث معه يبدون مندهشين جداً لدرجة انني لم افقه شيئاً مما يقولون.

وعلى بعد عشرة اميال، وجدنا انفسنا فوق ارض عالية مرتفعة جداً. ولم يكن يجب علينا نسلق تلك التلال الجرفية الصخرية الوعرة، مما اخر مسيرتنا كثيراً حينذاك. ورأينا من بعيد بعض الاكواخ البائسة والخيام المبعثرة هنا وهناك على الجانبين. ووصلنا قرية صغيرة حيث رأينا بعض النسوة يعملن في الهواء الطلق، مكشوفي الوجوه. وما ان رأونا هربن بسرعة وهن يصرخن بكل قواهن: اللصوص! اللصوص!. يبدو اننا لم نقدم لهن مظهراً مريحاً مطمئناً؛ فرفيقاى على اقل تقدير، يقدمهما مظهرهما الخارجي وبأمتياز عضوين في عصابة من قطاع الطرق. وانني لاعترف مع ذلك، بان تلك المبالغة في التشكك بنا، لم توح لي بفكرة مناسبة تماماً عن حسن ضيافة تلك القبيلة. وفي الواقع، فرغم ان زيارتنا غير مخطط لها، فان تصرفاتنا لاتعلن اية نوايا عدائية. كما ان عددنا صغير جداً لكن يوحي بوجود اسباب عادلة للخوف منا. ومهما كان الامر، فقد دفع ذلك النساء للاحساس بالخطر. ولكي نقتنع ان الخجل احد صفاتهن حتى وسط تلك الصحاري الموحشة. وبذلنا جهداً كبيراً لابتلاع تلك الاهانة. وانتظرنا ان يستجيب البعض لصراخهن. وسرعان ماحضر بعض الرجال، وبعد محادثة قصيرة حصلنا على الاذن بالترجل لكي نستريح.

لقد قضينا اربع ساعات في الطريق، رغم قصره، ولان النهار قد ازف على الانتهاء، توقعت بالطبع اننا سنقضي الليلة في تلك النواحي، ولربما يقدمون لنا بعض الطعام لاستعادة قوانا، ولكنني اخطأت في امنياتي. فلم يقدموا لنا شيئاً ولا حتى كوباً من الماء لارواء عطشي. ويبدو ان حاجة كتلك لم تكن لتهم اصحابي او ان يحسوا بها. وطالما اراهما يعاملانني كأني اصم اخرسا، ويعبران بالاشارات معي. ربما لخداع من يستضيفوننا او لعدم معرفتهم التعبير ربما، فتوجب علي اذن التزام الصمت ومجاراة الوضع حتى لايكتشفوا كوني اوربياً.

وبعد توقف لساعة قضيناها في العراء، قام رجل كبير السن بمرافقتنا سيراً على الاقدام وكان الليل قد تقدم كثيراً. وكون لغتي تتكون فقط من بعض الكلمات الانفرادية، لا استطيع ان اعبر عما اريده سوى بمقطع واحد او كلمة واحدة. والنتيجة لايمكنني ان اسأل عن الوقت الذي تستغرقه تلك المغامرة غير المريحة. ولم اكن اشك ابداً في اخلاص دليلي، ولكنني اعترف انه مع تقدم الليل، بدأت اندم بشدة على القيام برحلة واجهت فيها مثل تلك المضايقات دون ان اتمتع برؤية اي شئ يمكنه ان يُعوض علي ذلك التعب الذي سببته لنفسي باختياري. وتابعنا طريقنا خلال ست ساعات اخريات. وها انذا، اكاد اموت جوعاً وعطشاً، بل اكاد افقد شجاعتي حتى وصلنا الى قرية افضل قليلاً وحيث سنقضي الليلة كما اخبرني دليلي بالاشارة. لقد تغاضيت عن الغذاء، وعن العشاء وافترشت الارض القاسية الجرداء امام مبنى كبير مربع الشكل، يقال انه يعود لامام مسقط.

وفي صبيحة اليوم التالي، حاولت افهام دليلي وانا اردد نفس المفردة مشيراً الى فمي، ان يحصل لي على بعض الماء وبعض حبات التمر. ولكي اكمل وجبتي، قدمت لي سيدة مسنة قطعة كيك سوداء من

الارز لم ار ابداً مثيلاً لها. وقدمت لها قرشاً بدلاً منها ولكنها رفضت. وسمحت لي اضواء النهار ان ارى اننا فعلاً في قرية كبيرة. وكان ان هناك حوض ماء امام المبنى الذي عسكرنا بجواره، يغذيه نبعان قريبان من الماء، وتحيطه بعض اشجار النخيل وبعض اشجار الرمان التي اعطت للمكان اسم الحديقة. انها تلك الحدائق التي حدثوني كثيراً عنها بكل هذا التفخيم. وقد اشبعت فضولي تماماً حينذاك، وحاولت بالاشارة افهام دليلي انني لم اعد اريد ان اكمل الرحلة. وحتى لا اترك في نفسه ادنى الشكوك حول ما اريد بدأت العودة سيراً على الاقدام. ولم نسلك نفس الطريق الذي سلكناه سابقاً، وقطعنا الطريق الاقصر في ثماني ساعات. وبسبب الحرارة الشديدة اثناء النهار السائدة منذ يومين لم استطع ان آخذ سوى فترة قصيرة من الراحة. وعند عودتي من هذه الرحلة المشؤومة، كان التعب قد انهكني تماماً.

ورغم عدم نجاحنا في تلك الرحلة، عدت في السادس عشر من الشهر. وحاولت ان اتوجه الى جهة اخرى لولا ان هبت آنذاك عاصفة قوية. واذ كنت ارى ان امكانيات قبطاننا ضئيلة، لربما اخر عودتي الى السفينة، وخوفاً من ان ينسحب الى عرض البحر، ويتركني مرة اخرى وراءه؛ اعطيت دولاراً الى احد القوارب كي يقلني. وبعد محاولتين خاسرتين استطعنا الاقتراب من السفينة ووجدتها في حالة مؤسفة جداً لدرجة انني كنت لافضل البقاء على الارض؛ اذا ما كنت قداستطعت ادراك العواقب الوخيمة مُقدماً والتي يمكن ان يتسبب في حدوثها إهمال قبطاننا. وغرق قبطاننا كثيراً كما لو كان قد جُن تماماً واخذ ينعي حظه العاثر ونهايته القريبة، في حين اننا وسط بحر عاصف سحب السفينة نحو قمة صخرة كادت ان تؤذي مقدم السفينة. وما كان لنا ان نتوغل كثيراً لندرك خطورة الوضع. وتوجهت نحو مساعد القبطان الذي كان

يُدخن غليونه في عدم اكتراث واضح معروف بانه من صفات البحارة الحقيقيين؛ وطلبت منه ان يقول لي رأيه حول موقفنا. وانني اعترف ان برودة ذلك الرجل كانت كافية لكي تمنحنا بعض الثقة. على العكس تماماً من قبطانه الغارق في الخوف. اجابني بان الوضع لايبعث على الخوف او اليأس، فمر ساتنا سحبتها الامواج وانغرست مرتين او ثلاث ثم انغرست تماماً في الارض. وزيادة على كل ذلك، اضاف قائلاً بان تلك ليست اول مرة تغرق سفينة فيها امامي، ولم يكن رأيه هذا، من بين آرائه الاخرى، من افضل ما يريحنا. وبعد لحظة، سمعناه يصيح قائلاً: ((لقد انغرست المرساة اخيراً في الارض، لقد تم انقاذ كل شئ)). وسحب الرصاص والحبل، وهرع الى مؤخرة السفينة في فرح واهتمام لايوازيهما الا لامبالاته التامة ساعة الخطر.

لقد نجونا من خطر محدق، ولكن قلقنا لم يتبدد بعد، بل استمر طيلة الليل. ولكن مع طلوع الفجر، هدأ البحر الهائج وتوهجت الشمس بكل روعتها وعم الهدوء كل شئ. واثناء النهار، عاد اكثر الركاب الى السفينة وتم اتخاذ جميع الاجراءات للاقلاع.

وقبل ان اترك مسقط وددت تبيان ان تلك المدينة كبيرة ومرموقة بفضل كونها مستودعاً گمركياً رئيسياً لتجارة كبيرة متداولة: ولكن صادراتها الخاصة تتكون من التمور، ليست ممتازة النوعية، وسبعة او ثمانية الاف صندوق من البن، والكبريت والاصباغ، وعدد صغير من الخيول والجمال وقوالب الفضة التي تقايض بها بضائعنا الهندية. وهناك الكثير مما يدفعنا لاتفاق وجهات النظر تجاه سكان مسقط، فالنشاط والحيوية تسودان الحياة، وموجات الاجانب القادمة والمغادرة، كل ذلك يجعل المدينة تبدو اكبر مما هي في الواقع. واذا ما اردنا ان نقدم حكماً صادقاً على المدينة سنعود الى عدد سكانها الذي يبلغ ثلاثين الفاً بما فيهم

الاجانب المقيمين بها، هذا الى جانب ارتفاع وعدد منازلها. واذا ما قدرنا تعداد سكان (موتور Muttura)، وهي منطقة كبيرة بثلث سكن المدينة اي عشرة الاف نسمة، والقرى المحيطة بها بربع سكان مسقط، سيصبح تعداد سكان مسقط ومحيطها سبعة واربعين الف نسمة وهو رقم يقارب المعلومات الموثقة التي استطعت الحصول عليها.

وفي الاعوام ١٦٥٠ قام البرتغاليون بتحصين المدينة حيث اقاموا لثلاثين عاماً خلت. ويُقال في الخارج انها مدينة منيعة جداً.ولكن اذا اخذنا بالاعتبار المرتفعات المحيطة بها، سنرى ان مدفعيتها لايمكن ان تهاجم باستمرار فضعف امكانياتها وعلو الابنية بشكل عام والروابي التي تحدثنا عنها جعلت الدفاع عنها مستحيلاً حتى لو كانت المدفعية التي تحميهم قد تكون في احسن حالاتها. فالمدينة والمباني بشكل عام تبدو هزيلة رغم كونها مركزاً هاماً لتجارة كبيرة والسفن التي تتوارد على المدينة ويتدفق عليها اناس من جميع مناطق شبة جزيرة العرب وعلى مينائها، واسواقها المفتوحة المليئة بمختلف اشكال البضائع، وتقدم كلها فكرة واضحة عن رغد العيش والرفاهية الواضحة. اما بالنسبة للمناخ، فليست الحرارة فيها اعلى منها في بومباى في هذا الفصل من السنة، اذ تبلغ الحرارة فوق سطح البحر ٨٢ درجة، وفي الخليج ٨٦ درجة، وفي المدينة ٩٠ درجة. ولكن درجة الحرارة تزداد في يولية واغسطس لدرجة لايستطيع احد التجول في شوارع المدينة. اما الحدائق فتنتج من الفواكه الشمام، والعنب والرمان، وهي فواكه يمكن ادراجها في الدرجة الاولى من حيث جودتها ومذاقها الشديد الحلاوة وخاصة الرمان الذي يطلقون عليه فاكهة الجنة. ولنذكر الوصف الذي قدمه الشاعر الشيرازي للرمان في وديان بلاده واقول انه عندما قال ذلك لم يذق ابداً رمان مسقط الذي يفوقه مذاقاً وحلاوة.

وعندما بدأت قوة البرتغاليين في الافول في الشرق استولى العرب على المدينة تحت امرة الامير "يوسف بن علي"، امير (نورن فاى Norn Vae)،

وقضى تماماً على الحامية باستثناء بعض الجنود الذين اشهروا اسلامهم. ومنذ ذلك الفترة ظلت المدينة حرة ولكن لفترة من الزمن في ظل حكم "نادر شاه"، والذي استغل الخلافات القائمة بين السلطان بن مُرشد والامام سيف بن سلطان، واستطاع الاستيلاء على المدينة بواسطة حيلة قام بها قائد قواته "ميرزا تاسكي خان"، وقام الفارس الماكر الذي كان مجرد مساعد، بدعوة الامام الى حفل ما، وعندما رأى ان مشروب شيراز قد بدأ يفعل فعله استطاع بخفة ان يسرق ختمه وزور به امراً يقضي بتسليمه قلاع المدينة. ومع ذلك لم يبق الحكم الفارسي طويلاً فقد تُوُفِي المتنافسان بعد وقت قصير، ثم جاء "احمد بن سعيد"، حاكم (سوهار Sohar)، وطرد الغُزاة عن طريق نفس الوسيلة تقريباً؛ ثم قام رفاقه بتنصيبه على رأس الحكومة اعترافاً بجميله حيث خلصهم وحررهم من نير الاجانب.

واتخذ سعيد بن سعيد، الابن الثاني لذلك البطل مقراً له قرب شاطئ البحر قصراً كان قديماً كاتدرائية الحامية البرتغالية. وكان هذا الامام مستقلاً تماماً عن الباب العالي، تماماً كما فعل امير مكة والوهابيون في ذلك الجزء من بلاد العرب، رغم عدم تساوي الحصتين لان سعيد بن سعيد لايتمتع بسلطة كاملة على امارة عمان. ويُقال انه يستطيع ان يجند سبعة الاف رجل لاى معركة حيث جزء منهم من البلوش ورجال السند[٢]. وتعتبر القبيلة التي يحكمها قوة بحرية، اذا ما سمحت لنفسي استخدام تلك المفردة. وتتكون تلك القوة من الطراد كارولين ذي الاربعين مدفعاً المجهزة جيداً، وسفينتين كبيرتين كانتا ملكاً للشركة، الى جانب امتلاكها خمساً وثلاثين سفينة تجارية من الدرجة الثانية.

---

[2] Voyez Voyages dans le Belouchistan et duns la Sindhy, par Henry Pottinger; traduit de L`gures, 1818, vol. inm-8, avec carte et figures, a la meme librairie.

الفصل الرابع

تمرد في السفينة، هرمز، جزيرة قابي، القراصنة القواسم، قسوتهم، الوصول الى بوشهر، تأريخ وتجارة تلك المدينة، جزيرة كارك، صيد اللؤلؤ في جزيرة البحرين، الوصول الى البصرة

***

غادرنا مسقط في الثامن من نوفمبر، وانقضى يومان ونحن نمخر عباب البحر. وما لبث ان اندلع تمرد على سطح السفينة، وكنت في غرفتي وسمعت الكثير من الضوضاء، ولم اعرف السبب. صعدت الى السطح ورأيت مساعد القبطان يتشاجر مع جمع من العرب والفرس من ركاب السفينة، في حين يُطالب القبطان صارخا باعطائه السيف. ولكن استطعنا فض الشجار بمساعدة البحارة دون اراقة اية دماء لحسن الحظ. ثم بعد ذلك، عرفت السبب: يبدو ان بعض الركاب الفرس اصطدموا مع بعض البحارة حيث حدثت مشاجرة صغيرة بينهم، وقاموا في الحال بمعاقبة من اهانهم. وقد اراد مساعد القبطان ان يتصدى لذلك، اندفعوا نحوه وارادوا ان يذيقوه نفس المصير. وحين وصلنا نجحنا في فك الاشتباك وعاد كل الى عمله. وقضوا ليلة في الحجز؛ مما خفف من غضب هؤلاء المستبدين الصغار. وفي صبيحة اليوم التالي توسلوا طالبين العفو في لهجة ذليلة ضارعة.

وفي الحادي والعشرين، بعد ان مررنا بجزيرة واطئة، صخرية: انهاهرمز، مقبرة التتار، (الارمازيا L`Armazia) و(الاورموزيوم L`Ormuzium) مما شكل قوة دول القدماء. وتلك العجائب ومظاهر الترف، التي عاصرت تلك الحقبة من التأريخ البرتغالي المجيد. وترتبط بشدة

بشهرة اولئك البحارة الاوائل الذين شقوا بجرأتهم الطريق الذي نتبعه اليوم منذئذ حتى لاتفوتنا فرصة زيارة تلك الجزيرة. انه واجب الرحالة، ان يسجل في صحائفه التغييرات التي يسببها الدهر وتقلباته التي تتحملها المدن دائماً بل وكذلك الامبراطوريات. ففي القرن الحادي عشر وعلى جزيرة (گومبرون)، الواقعة بين التلال الجرداء، ارسى احد الغزاة العرب مرساته ليؤسس بناء مدينة اصبحت فيمابعد عاصمة الامبراطورية. كما انها اصبحت ميناءً ومستودعاً لتجارة تدور بين الهند وبين اقاليمنا. وفي ذلك العصر، كانت تعتبر المدينة الافضل للاقامة فيها، اكثر من اي مدينة شرقية اخرى. ويزورها تجار من جميع انحاء المعمورة حيث اقاموا فيها حياة تعتبر مباراة للترف والعظمة. "نساء جميلات من جميع اطراف آسيا، متعلمات ومنذ طفولتهن فن تنويع مُتع الحب الشهواني، يستعرضن انفسهن مجتمعات امام انظار الاجانب يأسرونهم بابتساماتهن ويُبقين عليهم في غمار الملذات الفاتنة المُغرية. حتى هواءها تراه مُفعماً بالروائح الجميلة الاخاذة. وتغطي الارض اثمن انواع السجاد. تلك كانت مظاهر العيش المُترف في مدينة هرمز، كما هو الحال في المدن الشهيرة، لكنها اليوم اصبحت الى ماكانت عليه قديماً قبل كل ذلك: قرية فقيرة على هضبة مقفرة جرداء، بها بعض العشش، وبعض العرب الفقراء واطلال تتحدث عن عظمة قديمة، ذلك مانراه اليوم في هرمز، نعرف تأريخ سقوطها وايقاع انحدار عصرها. وقد غزاها "البوكويريد Albu querequd" عام ١٥٠٧، واستعادها "الشاه عباس الكبير" ملك فارس، وكان ذلك في ٢٥ ابريل (١٦٢٢). وبعد تلك الفترة هجرها اثرياؤها الى مسقط، وسواحل بلاد العرب حيث نقلوا اليها جزءً من تجارتها.

وفي الايام التالية، واجهتنا دوماً الرياح المعاكسة، والتقينا بزورقين للقراصنة بجوار جزيرة قابيل، حيث يتجمعون. ولم نشعر بالخوف هذه المرة، ولم يتجرأوا على مهاجمتنا، ومن ثم واصلنا طريقنا بسلام. ولكن

ذلك لايمنعني ان اذكرهنا ان ذلك الامر سئ، ويضر بكرامتنا الوطنية وباللقب الذي يطلق علينا كما اسياد للبحار، عندما نسمح لمثل اولئك المجرمين ان يُفسدوا الملاحة في البحار، بل ومواجهتنا علناً في بيئتنا ومحيطنا. فهم لايعترفون باية قوانين، ولاتوقفهم اية اعتبارات الى جانب قسوتهم الوحشية، اذ يكونون خطاً فاصلاً لايمكن تخطيه بينهم وبين الامم المتحضرة مما يعمل على فقد الثقة واثارة الاشمئزاز. ومع ذلك، يجب ان نعترف ونحن غارقون في الخجل، اننا نرسل لهم الوفود، ونعقد المعاهدات مع برابرة يقومون برصد قواتنا، حتى يستفيدوا بعد ذلك من عدم وجود المخاطر. وعندما تندلع حرب ما، تحت شعار مبادئ معينة معروفة للدول المتحضرة بشكل عام، تراهم حينذاك يقدمون ضماناً لامن وثقة متبادلة. ولكن عندما نرى اولئك البرابرة يذبحون جميع السجناء ويقطعون اوصالهم فان ذلك دليل ضعف بالطبع، بل انها مساهمة من قبلنا في جريمتهم وهي اكثر كثيراً مما لوقمنا بانتقام مُدو لمثل تلك الفظاعات.

ويتكون قراصنة الخليج من مختلف القبائل العربية. واهم تلك القبائل القواسم من رأس الخيمة المرتبطين بشدة بالوهابيين. وهي حركة كانت معروفة من قبل، ولكن حكومتنا ابدت نفوراً من محاربتهم او القصاص منهم. ومن هنا كان استغلالهم لذلك الموقف وتحصنوا به. ويُقال ان اسطولهم يتكون من ستين سفينة كبيرة، ومن ثمانمائة الى تسعمائة سفينة اصغر منها، وتحمل تلك السفن على متنها من ثمانية عشر الى تسعمائة عشر الف من الرجال. ويعود هؤلاء القراصنة الى حقبة زمنية موغلة في القدم: منذ عصر الامبراطورية الملك– القرصان* الذي

* انا ترجمت هذه الجملة كما هي موجودة في النص الاصلي، رغم انني اود الاشارة الى ان الكاتب ربما سمع الكلمة خطأ وخاصة انه يكتب مذكرات رحلة وليس بحثاً علمياً ليتأكد من كل شئ قبل ان يكتبه. وبالنسبة للملك الذي يطمع في كل سفينة قد وردت في

كان يستولى على اية سفينة يطمع فيها: وكان معروفاً قبل خروجه من مصر. (كما يقول قرآن "ابن هنكل Ebn Hankal". وتعود اصول الوهابيين[٣] من بين آخرين الى منطقة نجد، وحيث حاول مسيلمة[*] ان ينشر مبادئه من قبل، وهو منافس لمحمد. انهم رُبما نفس الشعب الذي يسمى "بالمبيضين" او كما يسميهم الفرس "الصفد –امهفينس Les Sufid- Imehghien" الذين كانوا قديماً اتباع الحكم بن هاشم "AL-Hakem Ebn hashem الذي كان العرب قديماً يسمونه "المقنع" و"البُركي Borkai او النبي المُقنع. ويقال عن تلك الطائفة التابعة للحكيم ابن هاشم[**]، النبي، وهم من المرتدين الى اليهودية "Les proselytes" وعاشوا في ظل حكم الخليفة المهدي العباسي. لقد استطاع ان يجمع منهم عدداً كبيراً جداً في مناطق (النخشاب Le Nakhschab) و(كيش Kasch)، وكان يوحي للناس بان الالوهية قد سكنته وانها انتقلت اليه من آدم عبر العديد من الانبياء الذين ظهروا في الفترة التي تفصله عن آدم. واصبح قادراً وقوياً جداً. وعندما تيقن انه قد حوصر بجيوش الخليفة، قام بدس

القرآن الكريم في هذه الاية الكريمة ((... اما السفينة فكانت لمساكين يعملون في المدينة وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً...)). [المترجمة]

[3] Voyages de Niebuhr.

[*] مسيلمة، عاش ونشر مبادئ دينه في حضرموت في اليمن بعد وفاة النبي محمد (ص).

[**] كان المقنع واسمه عطاء او حكيم، رجلاً قصيراً اعور قبيح الوجه. كان يلبس قناعاً من ذهب ولايظهر ابداً الى اصحابه بدون القناع. وقال بتناسخ الارواح، واتبعه الكثيرون. وزعم ان روح الله كانت في آدم ولذلك سجدت له الملائكة، ثم تحولت الى سخيث ثم الى نوح ثم الى ابراهيم ثم الى موسى ثم الى عيسى ثم الى محمد بن الحنيفة على ضعاف العقول. وبعث الخليفة المهدى اليه في طلبه الا انه هرب وتحصن في قلعة كش. وبث الدعاة يقولون بانه يحيى الموتى وارسل المهدي اليه جيشاً وحاصره فاعطى السم لزوجاته وابنائه وشرب هو كذلك ووعد بانه سيعود الى اتباعه ويملكهم الارض ويسمون بالمبيضية. [المترجمة]

السم لنسائه واولاده ومحظياته، واشعل ناراً كبيراً والقى جثثهم فيها، ثم اندفع فيها بنفسه وهو يعد اتباعه بعودته. وكان ذلك في العام ١٦٣هـ.

وقد قام قراصنة الخليج، وفي فترات مختلفة بالتضييق والتأثير على تجارة البرتغال وعلى تجارتنا وكانت بعض سفنهم تحمل على متنها اربعين مدفعاً وثلاثمائة رجل. وفي العام ١٨٠٨ استولوا على الطراد التابع للشركة المسمى "السيلف Le Sylphe"؛ وكذلك على سفينة الملحق الفارسي في مفوضيتنا وكان على متنها. قتلوا الطاقم وبعض سيئ الحظ الذين اصبحوا ضحايا بربريتهم، في حين استطاعت سفينة صاحبة الجلالة "لانربيد La Ne`re`ide"، الهجوم على سفنهم واغرقتها وانقذت البعض منهم بعد معركة قصيرة عنيدة.

وبعد قليل هاجموا السفينة "La minerve" التجارية وكان يقودها القبطان "هوب گود Hop good". وهاجمتها سفن اسطول يبلغ عددها خمساً وخمسين سفينة وزورقاً، تحمل على متنها خمسة الاف رجل. وبعد ان اطلقوا عليها المدافع من بعيد لمدة يومين، نجح العرب في الصمود على متنها. وكانت نتيجة المعركة تبلغ من الفظاعة درجة لايمكن تصورها او تكون لدينا الشجاعة للحديث عنها. اما القبطان الذين غطته الجروح، ولايستطيع الوقوف او انقاذ السفينة اعطى مسدسه لمساعده طالباً منه بل امراً اياه بالذهاب سريعاً الى "سانت بارب La Sainta Barb"، وان يفجر السفينة حال صعود العرب على متنها. واذا ماكان قد نفذ ذلك الامر، لكان ذلك شرفاً كبيراً لذكراهم، واية مكاسب لجميع البحارة الشجعان الذين كان يمكنهم ان يقدموا آنذاك مثلاً رائعاً على الشجاعة والبسالة الانجليزيتين. ولكن ما ان نزل مساعد القبطان الذي لم يكن يفكر الا في سلامته، هرب ليختبئ ولم تجد نفعاً اية مقاومة، واستولى القراصنة على السفينة تماماً.

وحينذاك وبدم بارد بدأت مذبحة رهيبة على يد هؤلاء البرابرة المتوحشين مصحوبة باحتفالية تستخدم اليات الخرافة مما يضفي الفظاعة والوحشية على ذلك المشهد المريع. واستخدموا الماء والعطور والصلوات لتنقية المركب واقتادوهم في سلاسلهم مقيدين، الواحد تلو الاخر وكانوا يقطعون رقابهم ذبحاً بالسكين وسط صيحات الفرح ونداءات الله اكبر! الله اكبر! لا اله الا الله! واعتبروهم اضحيات! ولم يتبق سوى رجل واحد مثخن بالجراح، لم يمت بعد وانزلوه في اقرب ميناء لكي ينشر خبر تلك المذبحة المريعة.

وفي العام ١٨٠٩، نفذ صبر حكومتنا، فقد توقفت تماماً تجارتنا لضياع قيمتها المتوالي على يد هؤلاء القراصنة. وارسلت الحكومة حملة تحت امرة القبطان وينرايت "Wainright" والعقيد "سميث Smith"، ونزلت قواتنا في اراضي راس الخيمة، وحطموا ثلاثاً وخمسين سفينة من اكبر سفنهم، وهوجمت موانئهم وقابلوا كل ذلك بمقاومة عنيفة، وعلى وجه الخصوص منذ الهجوم على شيراز والتي كان اللواء "عبد العزير Abdul Uzzir" يدافع عنها. انهم لم يوافقوا حتى على تخصيص مكان يقيم فيه سجناؤهم اي اسراهم، اذ انهم لايتلقون امراً من اعدائهم. ولكن عندما تحطمت اسوارهم، وتعطلت مدفعيتهم تماماً، كان اقل مايُصرون على فعله هو الدفاع عن انفسهم. وعندما وجدوا انفسهم مُجبرين على تسليم انفسهم، رفضوا ذلك، بل اخذوا يمطروننا حينذاك بقنابلنا وقذائفنا التي القيناها عليهم والتي لم ينفجر. ومع ذلك باءت جميع محاولاتهم الغاضبة البربرية وغير المنظمة بالفشل الذريع امام قواتنا. وقد اثمر الدرس الذي لقناهم اياه تأثيراً وقتياً، فقد تسبب في شلل كامل لنشاطاتهم خلال بضع سنوات تلت تلك الفترة. كما انه من اسباب ذلك الفشل ايضاً نقص الخشب اللازم لبناء السفن؛ ولكن مثل

ذلك الشلل في النشاط والحركة لايتناسب وطبيعة تلك القبائل العربية. ولذلك بدأوا في العام ١٨١٦ حملة من السلب والنهب كان من الضروري قمعها ووضع حد لها بالقوة.

لاتثير اية رحلة بحرية الكثير من الاهتمام، فهي محصورة في حدود ضيقة ولايمتلك الانسان منظوراً سوى البحر والقبة الزرقاء. ولاتوجد تسلية لقضاء ذلك الوقت والعيش الرتيب العبثي الذي لاطعم له بل ومُجبرين على التعايش معه. ومع ذلك لم يكن يهم ذلك الامر كثيراً في ذلك الظرف، حيث واجهتنا نُذر كثيرة بالخطر، والكثير من المضايقات والمغامرات التي لم يكن ليتقبلها فارس المانش* وما كدنا نتخلص من الخوف الذي تسببه الصخور، والتمرد، والقراصنة، حتى استيقظنا صباح الثامن والعشرين على صيحات القبطان طالباً ان نستيقظ لكي ندافع عن انفسنا والا ستتم ابادتنا. ولم يدع مثل ذلك النداء مجالاً للتفكير او التقاط الانفاس، وكان لدي فقط الوقت لكي اترك الفراش وابحث في الظلام عن سيفي ومسدساتي حتى فتح باب غرفتي واندفع رجل نحوي وبيده سيف قد جُرد وهاجمني في غضب شديد. وتمكنت لحسن الحظ من تجريده من سلاحه، ولكي اكتشف حينذاك انه كان قبطاننا الذي فقد عقله تماماً، فهو يتصور دائماً ان هناك من يهاجمه واعطانا ذلك الانذار. ولان تلك المشاهد تتكرر، فقد اضطررنا لحبسه.

واخيراً وصلنا الى بوشهر في الرابع من ديسمبر، وعندما وجدت اننا سنبقى فيها بضعة ايام، قررت ان اقضي بعض الوقت في التجول بين الاسواق و زيارة بعض النواحي المحيطة، وجمع المعلومات حول تأريخ المدينة.

---

* يقصد الجندى الانجليزي. [المترجمة]

لقد كان تأريخ فارس القديم معروفاً تماماً، اكثر مما نعرف عن تاريخها الحديث. ولكن جهلنا به كان قبل ان يكتب عنه الجنرال "مالكولم Malcolm" سفيرنا لدى بلاط فارس وبما عرف عنه من مواهب معروفة عن ذلك الموضوع. لقد جاء جنس اخر من الملوك ليخلف امبراطورية حكمها من خلف "سيليكوس نيكاتور Seleucus Nicator"، واعلن الحرب على اباطرة الرومان حيث كانوا يتجرعون الهزيمة تارة، ويفرحون بالنصر تارة اخرى. ولكن وبفضل التغيرات الكبيرة التي سببها نجاح دعوة محمد قام احد الاتراك ويدعى "تانجروليبيكس Tangrolipix" بتأسيس مملكة، في حين اسس اخرى "تتري" ويُدعى "اولاهون Ulahoun، اولاخان Ullah kan"، وقد خلفتهم اجناس اخرى من التركمان والصفويين، وبعد وفاة "تاماس قولي خان Tamas Koulikan" ويُدعى عادة "نادر شاه" الذي كان جنرالاً بالجيش، ثم خلف على العرش اخر ملوك تلك السلالة: وغرقت المملكة في الفوضى لدرجة اصبح فيها من الصعب جداً الحفاظ على نظام ووتيرة تتابع الملوك في الجلوس على العرش او حتى تأريخ جلوسهم. وظهر كثير من المتنافسين مرة واحدة في ذات الوقت، وتم الاعتراف بالبعض واستبعاد البعض الاخر، وذلك استناداً لتأثير مايُمكن ان يُحدثه نجاح مؤقت لاى شخص.وعلي اي حال، استطاع محمد حسن خان احد فرقائه المتنافسين ورئيس قبيلة قاجار، استطاع الاستيلاء على السلطة التي مالبث ان انتزعها منه كريم خان. وما لبث احفاد محمد حسن خان استعادتها ومازالوا يحتفظون بها للان: وذلك لان اغا محمد خان، نجله الثاني استطاع ان ينتزع العرش من لطف علي خان، اخر واكبر الذين خلفوا كريم خان، وجلس على العرش الملك الحالي وهو الابن الاكبر لاخيه والذي قتل على يد التركمان.

وتستحق فترات حكم "كريم خان"، ولطف علي خان، ان نهتم بها على وجه الخصوص بسبب صلاتهم غير المباشرة بتأريخ بوشهر. فمثلاً كريم خان، قاطع طريق من اصول كُردية، كان يتميز بشجاعة فائقة. وقد هزم محمد حسن خان وقضى عليه واستولى على العرش، ولكن امراء تلك المملكة اجبروا على التخلي مؤقتاً عن شرف اعتلائهم العرش. وتقع بوشهر على شريط ارضي ضيق في اقليم فارستان، وتعتبر واحدة من تلك الدول الصغيرة المستقلة التي اسسها العرب على الساحل الشرقي للخليج الفارسي واحتفظوا بها بشكل عام. وكان كريم خان منشغلاً بمحاولات اضعافها وتدميرها. وقد وصلت دولة بوشهر الى اعلى درجات العظمة والنفوذ والازدهار في ظل ادارة الشيخ نصر، حاكم بوشهر ونجله. وبعد وفاة كريم خان قام ابنه لطف علي – الملك الفارسي– باعادة ابن الشيخ نصر الى العرش الذي كان قد تخلى عنه.

ومازال العرب اليوم يتحدثون عنه باجلال، وعن عظمته وكرمه، وكيف تُكن له الحب لدرجة الاصطفاف جميعاً تحت رايته، عندما تظهر تلك الادوات والاوعية التي يجود بها علامة على ظهور بوادر الحرب، اي تلك الادوات التي كانت تستخدم اثناء التحضير لتلك المآدب الفاخرة التي كانت تقام ويتحدثون عنها. وكان هناك حفيدان لذلك الحاكم، عبدل رسول ومحمد رسول، يطمحان في الجلوس على سدة الحكم. ولكنهما لم يلجأ الى تلك الشحناء العنيفة غير المألوفة التي تقسم الاسرة الواحدة في الشرق، وكان ذلك في الوقت الذي نزلنا فيه الى بوشهر. ويبدو ان الحفيدين قد توافقا على ان يحكم كل منهما فترة وهو ما حدداه في واقع الامر. وذلك لانه هو في حقيقة الامر الذي القى القبض عليه في تلك الفترة التي عمل فيها "سير هارفورد جوتر Sir Harford Jones" في بلاد فارس سفيراً، وانهم قد قادوه اسيراً الى شيراز وتحمل مختلف اشكال الاهانة والاذلال.

لقد اصبحت بوشهر بسبب طبيعة ومركز حكومتها ملجأً لمشاهير اللاجئين الذين عاكسهم القدر واجبرتهم صدمات الحياة المختلفة على ترك اوطانهم. من هؤلاء الكبار السيد "عبدالله اغا" و"السيد سيد علاوي"، على وشك مغادرة بوشهر الى بغداد وذلك في نفس الوقت الذي وصلنا فيه. ويتحدث كذلك عن زوجة الوزير الثاني في الامبراطورية، والتي كانت من قبل ارملة السيد حاجي خليل خان، السفير الايراني السابق، والذي كان بدوره احد هؤلاء اللاجئين في بوشهر والذي لقى حتفه مع الاسف في بومباي. ومن تصاريف القدر كذلك، شاهدنا لاجئاً اخر، وكان ملكاً في يوم من الايام. مازال يعيش حياة بائسة وسط المدينة ويتعيش من ممارسته للطب البيطري رغم فقدانه البصر. والسبب انه تعرض لتمرير قضيب نحاسي ساخن على عينيه. ومع ان الشيخوخة قد انهكته فما زالت حكمته ورجحان بصيرته لافتة للنظر ولايمكن تصور ذلك. وكان يعرف باللمس، ويُدرك بمجرد سماعه حركتها، اي الخيول يشترى.

وتتمتع تجارة بوشهر، الميناء الرئيسي لبلاد فارس، تتمتع باهمية قصوى.. فالى جانب حاملات الطائرات المختصة بالمراقبة، والسفن الحربية الكبيرة المتواجدة في الميناء، والطرادات العربية الصغيرة المتواجدة هناك دائماً، الى جانب كل ذلك توجد في زيارة سنوية للميناء عشر او اثنتي عشرة سفينة كبيرة كذلك، لممارسة الاثارة تحت العلم البريطاني. وكانت الواردات تتكون من رُزم من الاقمشة الخشنة ذات الالوان الغامقة، ومن الاقمشة الخضراء والزرقاء اللازمة للباس الفارسي، ومن مختلف البضائع في سورات ومن البنغال؛ من التمور والبن والارز والاسلحة، ويقدم الاهالي في المقابل سبائك الفضة، الحرير من يزد وكاشان والحرير الاحمر من گيلان، وسجاجيد اصفهان، والصوف الناعم من كرمان، والراوند من بُخارى، والفواكة المُسكرة المحفوظة. واستناداً

على تلك التجارة الواسعة الكبيرة كنا نتوقع ان نرى مستوى من الفخامة والبذخ في المباني والاسواق، ولكن على العكس رأيناها في بوشهر اقل منها في مسقط والبصرة. ولانرى هنا سوى اثنى عشر او خمسة عشر منزلاً لا تلفت انظارنا، الى جانب خمسمائة منزل من الحجارة الصغيرة، وستة مساجد واربعة فنادق وعدد كبير جداً من الاكواخ. ويبلغ تعداد سكانها اثنى عشر الف نسمة. ويحيط بالمدينة سور قديم عليه اثنى عشر بُرجاً مُتهاوياً لن يفيد شيئاً في حال وقوع اي هجوم.

وفي اواخر ايام اقامتنا في المدينة تألمنا جداً على مصير شابة جميلة في السادسة عشر من عمرها كانت تتبضع مع احد المسيحيين. وتلك جريمة يُعاقب عليها القرآن بالموت. اختطفوها عنوة، واقتادوها طيلة الليل لتلقي مصيرها، وحيث ينفذ فيها مطاردوها الحاقدون حكم الاعدام الذي يرتأونه. وتمنعني هنا اسباب خاصة عن الخوض في التفاصيل.. ولم ارد ان افوت تلك الحادثة لانها تقدم صورة لعادات هؤلاء العرب المقيمين على الساحل. اما في فارس، فان حادثة كتلك يمكن ترتيبها وانهاءها بدفع غرامة مالية ليست كبيرة عادة الى الحاكم المدني.

وفي يوم رحيلنا، وفي اللحظة التي كنت اهم فيها ركوب السفينة، احتك بي واحد من هؤلاء المسافرين الذين قادتهم تصاريف الحرب او العقلية المتقلبة للقرن الى تلك المناطق البعيدة. وقد حاول ان يظهر بمظهر لائق مرموق، وان ظروفاً قاهرة سرية قد اجبرته على التخفي المؤقت، واعترف بعد ذلك وفي فرنسية رديئة، بانه كان سجيناً روسياً ويود العودة الى وطنه، عبر البصرة او بغداد ولكنه لايمتلك المصاريف اللازمة لتحقيق ذلك. وتلك قصة معقولة ومالوفة فنحن نلتقي بالكثيرين من امثاله المساكين. ولكنني رأيت من بين من معه كثيراً من الدجالين من حيث المظهر واختلاف وضعهم اكثر ممايدعون. كما انني رفضت

التحدث مع القبطان بشأنه والاخرين، والذي ماكان ليستقبله مع ذلك بدون موافقة المُقيم الانجليزي، ووجدت نفسي على متن السفينة وسافرنا في الحال. وتعتبر تلك الجزيرة شيئاً هاماً في تأريخ رحلات السفن الاوروبية في الشرق، مثلاً تلك الفائدة التي جناها البارون "كنيب هاوزن Kiniphausen" المقيم الهولندي في البصرة، ومن موقعه على مصب شط العرب.

وكان جُرد من املاكه حيث اعتبرت فدية له، واصبح معدماً ولم يتبق له سوى نشاطه وغضبه، ولجأ بعد ذلك الى جزيرة كرك مع خمسين من رجاله المخلصين. ومنذ ذلك الوقت اصبح يخلق اما التجارة التركية، ووجد الاتراك انفسهم مجبرين على ان يعيدوا اليه ممتلكاته، بل ومنحوه بعض الامتيازات التجارية التي كانت مرفوضة له من قبل.

وكانت تلك الجزيرة تعود قديماً الى البرتغاليين، ومازالت هناك آثارهم شاخصة تتحدث عن بقائهم بالجزيرة وعن عقيدتهم الدينية على الرغم من الاندفاع لتدمير رموزهم تلك. وقد ذكرنا من قبل، اهمية موقعها الذي يتحكم في تجارة بوشهر والبصرة وبغداد، وفي نفس الوقت الذي تتحكم هرمز بدورها في تجارة الخليج الفارسي، وكل ذلك مع تفوقنا الكبير في البحار. فنحن لوكنا وضعنا في كل جزيرة حامية صغيرة، لكانت تجارتنا تسير على اسس متينة واكثر تقديراً مما هي عليه اليوم. بل نجد انفسنا اليوم تحت رحمة عبيد ارزال، من صفاتهم الوقاحة والصلف. ولو كنا نتمركز في مثل تلك المواقع، لكان شعارنا تجاه دول الخليج ((فليكرهونا ولكن يرهبوننا))*، ولكان في استطاعتنا زيادة نفوذنا حتى لدى بلاط فارس. وسيكون بمقدورنا لوحدث ذلك الابقاء آنذاك على تأييد تلك الدول لسياستنا، او مساندة طموحاتنا

---

* Oderint dummetuant وهو مثل لاتيني اورده الكاتب بمعنى يكرهوننا ولكن يخافوننا. [المترجمة]

كلّما تسمح لهم الظروف بطلب ذلك في حينه. ونحن وقد وصلنا الى تلك المكانة المهيبة المثيرة لغيرة الكثيرين، فلم نمارس مع ذلك نفوذاً يرقى لمستوى تفوقنا البحري في البحار. وقواتنا رغم مكانتها المعروفة، لم تقدم لنا اية فائدة وذلك بسبب تلك السياسة اللاابالية تجاة ابشع قراصنة تلك السواحل. وليس الامر بافضل من ذلك، عندما نُسرف في تقديم الهدايا لبلاط فارس، والذي يعتبرها ضريبة يجب ان تؤدي لذلك البلاط.

وتختلف تماماً سياسة الروس في الخليج تجاه الدولة الفارسية. ويستمد الروس قوتهم مستفيدين من جميع نقاط الالتقاء ويملون القوانين لذلك. ويحدث كل ذلك في الوقت الذي كنا نثق فيه في الوعود الخادعة والتي اثبتت الاحداث عدم جدواها. ولكن النجاح كان بشكل ما في متناول ايدينا وفي حاجة فقط لخطوة واحدة لتصبح قوتنا راسخة متماسكة لاتتزعزع. اننا اقوى، ونتمتع بتقدير واحترام كبيرين بسبب سلوكنا ووضوح سياستنا. اكثر مما كان يتمتع به البرتغاليون والهولنديون حتى في ذلك الوقت حين كانت اساطيلهم المنتصرة تمخر عباب مياه الخليج. وعندما كانت تتحدى السودانيين والفرس والاتراك. ولم يتبق امامنا الا تقييم تلك الافضلية التي تمتع بها لكي نتأكد من نفوذنا وخاصة في فارس، ذلك النفوذ الذي سيعمل على توطيد اسس ومديات الامبراطورية التي اقمنا دعائمها.

واذا ماتركنا جانباً موقع جزيرة كرك، فهي تشتهر باسطورة تركها البرتغاليون وراءهم: آثار تدلل على قيمهم الحربية وتطرفهم الديني. واستناداً على تقليد شعبي، فقد اصبحت احدى كنائسهم مقاماً مقدساً لـ(پير محمد)* ابن علي، بنى الفرس والطائفة الشيعية –فهناك الصُلبان

---

* پير محمد، الابن الاكبر لـ"علي ابن ابي طالب"، من ام غير فاطمة، وكان دائماً يحمي الحسن والحسين، بأمر من والده اثناء المعارك. ويلقب بـ(النفس الذكية) ويُقال انه لم يمت وانما اختفى وسوف يعود يوماً. [المترجمة]

واللوحات المرسومة وغيرها من الشواهد التي تدلل على التوجهات السابقة الاولى لبناء كهذا. فقد كان ذلك المكان دائماً مزاراً مُقدساً، حيث تغيرت فقط الاسماء والاحتفاليات. وللوصول الى تلك الكنيسة او ذلك المقام، يجب على المسافر ان يقطع ممراً طويلاً، او يمر في قناة تحت الارض كان قد تم تأسيسها قبلاً في الاصل لتموين المدينة بالمياه المستخرجة من جبل في مواجهة المدينة. كما ويبدو من طبيعة ذلك المبنى ورفاه جزيرة كرك، ان ماضيها كان افضل مماهي عليه الان. كما وان هناك في جنوب الجزيرة، كهوفاً منحوتة في الجبل، لايقدم سكانها صورة مُشرقة لعادات وحضارة ذلك الجنس الذي يعيش فيها. اراني اقدم تفاصيل كثيرة عن تلك الجزيرة لاهميتها وللمنافع والمميزات التي كان يمكننا الحصول عليها بسبب موقعها الجغرافي. اما القلعة الرابضة لحمايةمرسي السفن، فهي مشيدة تقريباً بالحجارة. وفي كل زاوية من زواياها الاربعة، يوجد بروز، كما توجد حفرة امام باب المدخل من جانب البحر، يمكن ان نُشيد عليها بطارية مدفيعة ذات الاثنى عشر مدفعاً. ولكنها اليوم تتهاوى الى انقاض وتحتاج الى الكثير من عمليات الترميم.

واستمر صعودنا في الخليج الفارسي، ولم نتوقف امام اية جزيرة اخرى هامة سوى امام البحرين الشهيرة جداً بصيد اللؤلؤ، الى جانب بعض آبار الماء العذب المنعش في قاع البحر، يقوم الغطاسون بسحب المياه منها على بعد معين. ونحن لانستطيع الحديث اليوم عن صيد اللؤلؤ، فقط عن الاشاعات حول مختلف اشكاله واحجامه والتي هي متوفرة وبشكل دائم. وعرفت ان تلك اللالئ اجمل واكثر استدارة من لالئ سيلان، ولكنها تفقد لونها سريعاً، كما ان قيمتها قد انخفضت بشكل واضح في السنوات الثلاثين التي تبعت تلك الكمية التي اصطادوها، ولم تعد هدفاً للتغيرات.

وصلنا البصرة في الحادي العشرين، واستقبلني المقيم الانجليزي الدكتور "كولكيهون Colquhoun" بحفاوة كبيرة في تلك المدينة، البصرة. لقد كتب الكثيرون الكثير عن البصرة، لكني استرسل انا بدوري واكتب عنها. لقد كانت مبانيها في غاية السوء، والمدينة في غاية القذارة، ورغم جوها ومناخها المضر بالصحة، الا انها كانت تمارس تجارة واسعة. ورغم الخراب الذي خلفه الطاعون في المدينة، فمازال عدد سكانها ثمانين الفاً. ويسود العرب فيها لكثرة عددهم، وثروتهم، ونفوذهم ويملك البعض من اصحاب الاملاك من ثمانية الى عشرة الاف رجل. وهؤلاء العبيد مخلصون لسيدهم ولكنهم غير منظمين او بالاخرى فوضويون. ولنا ان نتصور موقف الحاكم التركي "مُتَسلِّم" وكيف ان ذلك غير مريح بالمرة. ومع ذلك استطاع ذلك الحاكم بواسطة الف من الجنود من كل الاجناس تكوين شرطة مقبولة في الداخل حركت الملاك الكبار في الداخل وجهاً لوجه ضد بعضهم البعض، كلما لاحت له فرصة للقيام بذلك. ولكن خارج الاسوار، فكلمة الامن غير معروفة، والبدو يحكمون الصحراء ويحتفظون باستقلالية يتمسكون بها منذ زمن بعيد.

ويقال ان البصرة تعود اصولها الى احد اباطرة الرومان، كما انها مسقط راس امبراطور روماني آخر يدعى فيليب العربي. ويخترق المدينة خليج صغير ويقسمها، ويحيطها سور قبيح من الطين. اما دفاعاتها فبعض النتؤاءات البارزة المستديرة فوق السور. وتغطي البساتين وغابات النخيل جزءً كبيراً من مساحتها البالغة ثمانية الاف متر مربع. وتشغل المنازل تقريباً نصف تلك المساحة فقط. ولكنها رغم تلك المساوئ، ورغم مساحتها الكبيرة وضعف اسوارها، صمدت المدينة مرتين امام امبراطور فارس، ولم تقع في ايدي كريم خان، الا بعد حصار طويل وعنيد. وقد اسعدني الحظ اثناء اقامتي في البصرة بلقاء بعض

مواطني، الدكتور كولكوهون، المقيم الانجليزي في البصرة. وكان الدكتور يمتلك من اربعين الى خمسين حصاناً عربياً اصيلاً من اجمل ما رأيت من خيول. وتفضل مشكوراً باعارتنا البعض منها لدرجة اننا استطعنا تمضية وقت طيب بالمدينة. فقد كنا نقطع الصحراء ونقرأ ونذهب للحمامات. وقد تم تحذيرنا من الخروج فرادى للقيام بتلك النشاطات خوفاً من تعرضنا للاهانة او المضايقات. وعلى الرغم من عدم مثولنا لتلك النصيحة الحكيمة، والذي كان الحرص يتطلب ذلك، الا ان اهالي البصرة لم يوجهوا لنا اية اهانات او مضايقات، والتي اعلنها كلمة حق صريحة لصالح اهل البصرة. اننا لم نلق اية اهانة، وانما الاحترام والمساعدة. وربما ان ذلك ليس هو الحق نفسه في مدن اخرى في الشرق، وهي اشارة لا تعني الكثير في حد ذاتها، ولكنها تدلل على الاحترام الذي يكنّه اهل البصرة للانجليز.

اننا نعرف حرص المسلمين عامة على الا تنكشف نساؤهم امام الفرنجة. وقد ذهبت ذات يوم مع احد اصدقائي الى الحمام وكان الازدحام شديداً، ولكن القائمين على الحمام اقتادونا في الحال الى قاعة خاصة مخصصة للنساء وكانت هناك خمس اوست نساء. ورغم صيحاتهن، فقد تم اجلاؤهن بسرعة لكي يستقبلوننا. واذ شعرت بعدم الراحة من تصرف كهذا، فقد كانت النساء في لباس خفيف. وطلبت من احد الخدم ان يترجم لهم اننا نرفض ذلك التكريم الذي حاولوا اظهاره لنا. ولكن الجواب كان مصحوباً بالكثير من الاعتذارات بان صالة الحمام تحت تصرفنا في اي وقت نشاء، حتى ولو كانت نساء البصرة جميعهن في حاجة الى الحمام. وحقيقةالامر اننا ندفع لقاء تلك الخدمات اكثر من غيرنا. ومع ذلك لا اعتقد انهم يظهرون مثل ذلك التأديب المبالغ فيه لغيرنا.

ولدى عودتي الى البصرة، كان المقيم الانجليزي قد اخبرني باستحالة مواصلة رحلتي تلك لوقت طويل بسبب الاضطرابات السائدة على الطريق. وقد تم تعيين باشا جديد لبغداد. وبما ان الباشا القديم لم يكن مستعداً للتخلي عن موقعه، فقد اتخذ قراراً وكذلك الباشا الجديد باستدعاء قواتهما وذلك دفاعاً عن حقوقهما. ولايكاد يوجد قتيل من هذا الجانب او ذاك. وكما هو الحال في البلاد كلها من البصرة الى بغداد، سوف يعلنون الولاء لاحد اولئك الفرقاء الذي يمكنه من لحظة لاخرى ان يُمسك بزمام الامور. وبالنسبة لي لم اجد لدي سوى الانشغال بتمضية وقتي في جمع المعلومات عن بلاد العرب، وعن العرب وعاداتهم والممارسات في تلك البلاد، وهي معلومات ستكون موضع الفصول القادمة.

الفصل الخامس

رحلة في شط العرب، حديقة عدن، رحلة عبر الصحراء وبين البدو استغرقت ثلاثة اسابيع، قبيلة المننفك، بلاط الشيخ محمد، نزاع لدى الشيخ ابراهيم

***

وفي السادس عشر من يناير ١٨٤٧، اخبرني السيد كولكوهون، انه يجب ان يرسل رسائل هامة ضرورية الى بغداد، وعرض على مرافقة المراسل اذا ماكنت مستعداً للسفر فجأة هكذا ووسط ذلك الزخم من الاضطراب و الفوضى، والذي تحدثت عنها سابقاً ومازال. وطالما انه كان من المستحيل التكهن بنشوبها فقد سُررت لذلك العرض وقمت بسرعة بجميع الاستعدادات للسفر في اليوم التالي.

وفي السابع عشر، وبعد ان ارتديت الزي العربي الذي اشتريته, ورتبت حقيبتين من القماش حيث وضعت نصف دزينة من القمصان، واللباس الرسمي، وسجادة وغطاء وكذلك بعض الاوراق، ومن ثم ذهبت لدى المقيم حيث التقيت على آغا دليلي الجديد. وكان يبدو انه السيد ولكنني عاملته دوماً كما اعامل الخادم. كما كان المراسل على آغا، تركي الاصل في الخامسة والاربعين من العمر، ولكنه يبدو اكبر بعشر سنوات بسبب الحياة التي يحياها. ولكن قوته البدنية غير اعتيادية، ونشاطه مُفرط، ويبدو انه صامد امام جميع المتاعب التي تتسبب بها مهنته. وهو يشرب كثيراً ويتناول المشروبات الروحية، الى جانب الاف الاميال التي يقطعها وكتمانه الشديد للاسرار، ومعارفه الواسعة العميقة بالعالم. والتي اظن انه يعني الطريق من البصرة الى بغداد.

وبما ان علي اغا، سيلعب دوراً كبيراً في الجزء الاول من هذه العلاقة، وجدت من الواجب تقديمه حسب الاصول الى القراء. وكانت اولى اوامره لي في بداية الرحلة هو تجهيز كمية كبيرة من الاغذية والكثير من المشروبات، وهو لايمانع في ان استخدم جزء منها ولن يتدخل في ذلك، واخيراً ان اكون مستعداً للرحيل في الساعة الخامسة. وعندما ظهر هو، كانت الساعة قد جاوزت الخامسة، وكان يرتدي بنطالاً واسعاً على الطريقة التركية، صعد حتى ابطيه ويحتفظ به بواسطة حزام من جلد البقر يحمل من الامام ثلاثة مسدسات كبيرة وعلى ظهره يحمل بندقية صغيرة وسيفاً وخنجراً على جنبيه. وبعد القيام ببعض التجهيزات اللازمة ذات الطبيعة المُهابة، وهي اقل مايمكن ان يقوم به اي رجل ذو اهمية على مايبدو، اوضح انه في غاية الاستعجال واننا يجب ان نرحل في الحال والا سيفوتنا الجزر. ولم اهتم كثيرا بسلاطة لسانه، شعرت بانني يجب ان اترك تلك المائدة العامرة الرائعة التي اعدها لنا المقيم، لكي اعبر الصحراء ومعي قطعه من البسكويت وماء موحل مما كان بالطبع يشكل اهانة جسدية وعقلية معاً لاتخلو من اثارة الحساسيات. ولكن توجد ظروف يجب ان نتخلى فيها عن الضروريات، واستأذنت من مضيفي واسرته والذين تمنوا لي سفرة سعيدة.

وركبت قارباً ضيقاً جداً مع المراسل وخادمي العربي. وما ان مرَّ قاربنا الصغير امام الحدائق الصغيرة، حيث كان التركي الثري يدخن غليونه في بلاده ويشرب قهوته، قام رفاقي بتوديع معارفهم ومختلف اصدقائهم ولم يستطيعوا الافصاح عن المكان المقصود الا وتسمع الدعاء المتواصل لهم باذن الله وانشاء الله. وقال رجلي التركي لبعض الدراويش[٤] ((نحن ننوي الذهاب الى بغداد، نرجو ان تدعوا لنا بنجاح الرحلة)). ثم توجه

---

[4] انظر اللوحة رقم (٢).

الي قائلاً: ايها الفرنجي، لقد اعطيتهم بعض النقود، ولكن يجب مضاعفة المبلغ ثلاث مرات لكي اتخلص من الحاحهم، ولكنني لاحظت ان رجلي الغريب الاطوار هذا كان متفاهماً معهم.



وكان الليل قد ارخى سدوله، عندما وصلنا الى الجمرك، الذي كان على بعد ميل او ميلين من بيت المقيم الانجليزي، ونزل المراسل التركي على اليابسة بحجة اكمال اوراقه، وبقيت وحدي في القارب اتأمل مُفكراً في هذه

الرحلة الغريبة التي ساقوم بها، وفي المغامرات والمشاكل التي يمكن ان اواجهها. وكان المساء رائعاً، وكانت هناك قوارب عربية كثيرة تمر بالقرب من قاربنا. ومن وقت لآخر كنت انادي على المراسل التركي والذي كنت اميز صوته وسط اصوات كثيرة متداخلة بضحكات عالية تأتي من الشاطئ. وعندما اسمع جواباً، فهو يردد انه اكثر مني رغبة في الاسراع بالرحيل ولكن يجب عليه ان ينتظر انتهاء اكمال اوراقه. وبعد ان يئست في مناداته عدة مرات دونما فائدة، غلبني النعاس وغرقت في سبات عميق.

ولكنني افقت في صباح اليوم التالي على صوت انفجار هائل هزّ قاربنا ومحا في لحظة جميع احلام الليلة. ووجدتني وحيداً، اذ كان المراسل وخادمي وطاقم القارب قد تركوني ونزلوا الى اليابسة. ناديت ولم يجبني احد. وما كدت استفيق حتى دوى انفجار ثانٍ وثالث، وقد عرفت فيمابعد انها طلقات المدافع التي تعلن طلوع النهار. وايفظ الانفجار البحارة الذين كانوا نائمين على الشاطئ، واخبروني ان المراسل التركي قد شرب حتى الثمالة في مساء اليوم السابق مع اصدقائه الدراويش، لدرجة انه لم يعد يستطيع تحريك قدميه، وانه امضى ليلته في الصحراء. وعندما عاد، قمت بتأنيبه على سلوكه هذا، ولكنه انفجر ثائراً واخذ يكيل السباب للعرب الذين اتهموه كذباً. واعترض وهو يُفرغ كأسه انه لم يكن سكران مطلقاً بالامس.

وفي الساعة الخامسة، مررنا امام قبر المهدي صاحب الزمان، احد احفاد الرسول. وقد توفى قبل الف سنة، ولكن الناس مازالوا ينتظرون عودته على حمار وحشي عبر الصحراء ليسيطر على ممالك الارض ويحكم العالم. وعلى مرمى البصر رأينا مئذنة عالية تشير الى قبر "علي ابن الحسين"، ابن اخ علي الكبير؟* وهو بدوره من احفاد الرسول.

---

* اي علي يقصد ياترى؟! [المترجمة]

ورسونا في تلك المنطقة من النهر لكي نقوم بطهي بعض الطعام، ولكن كدنا ان ينقض علينا بعض العرب الذين كانوا يتصايحون ويرمون علينا الحجارة. ولكن وفي لحظة، اصبحنا بعيداً عن متناول ايديهم. فقد كنت طلبت من احد بحارة القارب ان يبقى بعيداً ليراقب الطريق فاعطانا الاشارة باقترابهم فركبنا بسرعة وانطلق القارب بعيداً.

وفي التاسع عشر وصلنا القرنة عند التقاء دجلة والفرات، والتي خلدها التأريخ اذ تعتبر حدود الوادي الخصيب حيث يقيم ابونا المشترك، او باختصار جنة عدن. ويُشكل التقاء النهرين خليجاً كبيراً مُتسعاً في منظر فريد ومثير. ولكنني على اي حال لم ار شيئاً في القرنة يشير الى وجود تلك الجنة الارضية الموهوبة للانسان قبل سقوطه. فالاشجار قليلة الى جانب بعض المزروعات التي يمكن رؤيتها. يمكن ان تسمى جنة وسط هذه الصحراء القاحلة المظلمة الموحشة. وبشكل اخر فهي ليست سوى مستنقع مُغطى بالاعشاب وبعض اشجار النخيل، ومن خمسين الى ستين كوخاً بائساً.

وفي القرنة استقبلنا بعض الاتراك والعرب الذين يعملون لدى حاكم البصرة. وهم يقومون بجباية العوائد. وقد قدموا لنا صورة مخيفة مبالغ فيها للاخطار التي يمكن ان نصادفها على الطريق الى بغداد. ولم يأل رجلي التركي جهداً في زيادة الاخطار التي يفترضها والتي اثارها حديثهم. وقال ان جميع الضواحي مليئة بقطاع الطرق وانه يجب في كل الاحوال قضاء الليلة على متن احدى السفن التركية الموجودة في تلك النواحي، فهو المكان الوحيد الذي سوف نشعر فيه بالامان. وقررت الذهاب املاً في امكانية استئناف الرحلة صباح الغد. ويبدو القبطان التركي في الستين من عمره ويوحي مظهره بالاحترام. وقد استقبلني بكل الاهتمام والرعاية التي يمكن تصورها.

وقادني الى غرفته، وفي الاثناء اعتذر عن عدم تمكنه تقديم وجبة محترمة، ولكنه لم يكن يعلم بقدومي، كما انه يأمل الا اغضب لأنهم لم يستقبلوني بالتحية اللائقة المعروفة وانا اصعد على متن السفينة. ولكي يؤكد فهمه للعالم، اضاف بأنه على علم تام بعاداتنا وسلوكنا. ويعني ذلك الاهتمام انه كان ينظر الي كضابط رفيع الرتبة العسكرية. وفيما بعد عرفت القيمة الحقيقية والهدف من هذه الاعذار العائدة في جزء منها الى التأدب الشرقي، الى جانب انه اراد ان ينقذ سمعته وكرامته اذ كان قد قدم لي عشاء عادياً وليس فاخراً. ومع ذلك، فهو يقدم لي ماهو افضل لديه، بل واعطى اوامره لاعداد السرير الوحيد على المركب، وترك لي غرفته تماماً. وقد تأثرت كثيراً بهذا الخلق الكريم واللياقة، واحسست ان ذلك كله انما يعود لصفات واخلاقيات مضيفي ومعدنه الطيب.

وبعد ان اصبحنا وحدنا تماماً، بدأ يتكلم عن دليلي ويعطينى بعض المعلومات عنه. قال: ((لقد تعرفت على الكثيرين من الضباط الانجليز، وغضبت جداً عندما رايت انك في حماية شخص غير موثوق فيه وفاسد ومنحل، لايعرف ديناً او نبياً او قانوناً. بل انه يمكنه ان يشرب البحر اذا لم يكن ماءً. انه خادم امين موال للحاكم. ليكن الله معه. وبأذن الله ستصل بغداد، ومع ذلك اود ان اراك بعيداً عنه تماماً. ذلك البائس)). لقد درست جيداً من قبل ذلك المراسل وعرفت من هو، وانني ورغم مخاطر الطريق الحقيقية، فأنني كنت اخاف من جنونه وعدم استقامته اكثر من خوفي من الاضطرابات التي كانت سائدة في تلك البلاد. وبالنسبة لي، فقد رتبت اموري وفقاً لذلك، ولم اضع ثقتي بعد ذلك سوى في خادمي العربي رغم شكوى وتأفف المراسل، ورغم التهديدات التي يمكنها ان تتوعدني.

وفي العشرين من يناير، عدنا الى اليابسة، بعد ان ودعت مضيفي بحرارة وشكرته على حسن ضيافته، وبعد ان قدمت هدايا الى عبيده

وخدمه. وتناولنا الغذاء في القرية مع بعض المشايخ العرب، رحلنا بعد ذلك في العاشرة. وفي الثالثة، مررنا امام نار عنتر، مقر اقامة شيخ المنتفك في بعض فصول السنة عادة، ويمكن التعرف عليه من بعيد. انه مبنى صغير على الشاطئ الايسر وهو يشبه تماماً احد المعابد الشرقية لدينا.

وبعد ان قطعنا اربعة وعشرين ميلاً، رسى مركبنا على الشاطئ بالقرب من بعض الاكواخ حيث قضينا الليلة. في الحادية والعشرين، وبعد ان مرّ المركب بمدينة المنصورية الكبيرة نوعا، وحيث يوجد فرع جمرك تابع لجمرك القرنة، وصلنا امام شطان مستنقع كبير جداً تغطي جانبيه نباتات القصب. ومن المستحيل ان يتصور المرء مكاناً اكثر ظلاماً وكآبة من هذا البلد الذي نراه الان. وعلى البعد ظهر عربي، كما يظهر شعاع هارب فجأة ليجعل ظلمة المكان مرئية اكثر. كما يُذكر المسافر اية وحدة مخيفة تلفه ولفترات طويلة. الا تُذكرك كابة المسافر ونظرات الشك التي يوجهها حوله والسرعة التي يمشي بها حتى يمكنه ان يخرج وبأسرع وقت من صحراء كهذه، الا يُذكرك كل ذلك بمخاوف ذلك الرجل البائس الذي ظهر واختفى فجأة، مخاوفه من رؤية مفاجئة لاناس مثله، وفي المساء، وبعد ان قطعنا ثلاثة وثلاثين ميلاً اثناء النهار، رسونا بمركبنا امام قرية (عبادة). وكان خادمي يرتجف خوفاً ولم يكن دليلي بافضل حال منه، ونصحني بالبقاء في المركب فقد كنا محاطين آنذاك بقبائل من الاكثر قسوة والعديمي الشفقة. وقد كنت دائماً اشكك في دليلي الذي كان يبالغ في تصوير الامور ومديات الاخطار المتوقعة، ليزيد من قيمة خدماته. واذ رأيتني متضايقاً جداً في سِجْني هذا، لم أتأخر في اللحاق بهما. وبدأ انهما مازالا في شدة القلق، بل ويرتجفان وهما يسمعان قصص بعض المسافرين الذين التقينا بهم. وبالنسبة لي، فقد التحفت جيداً بغطائي الوثير وافترشت الارض، سيفي ومسدساتي الى جانبي. وعندما

استيقظت، كان القمر والنجوم يرسلون ضوءاً ما باهتاً على صفحة الصحراء. وبدأ ان رفاقي قد واتتهم بعض الشجاعة. ومع ذلك، اقتربت ساعة الرحيل، وفي فجر اليوم، ودعنا المسافرين الذين التقينا بهم على ذلك الشاطئ المقفر.

وفي اليوم الثاني والعشرين، راينا ونحن نصعد النهر، ضاحية اكثر اشراقاً تملؤها المزروعات مما يوحي اننا نقترب من احدى المدن. ولدى وصولنا الى الكوت، ذهب دليلنا ليؤجر بعض الخيول اللازمة لمواصلة رحلتنا. وفي نفس الوقت، ذهبنا نحن الى الجمرك، واستقبلنا بعض الموظفين الاتراك الذين يعملون لدى الحاكم التركي في جباية العوائد. وطال بقاؤنا في تلك المدينة حتى الرابع والعشرين. وخلال ذلك الوقت كنت اتأمل وافكر في قدرة هؤلاء النساء وهن يعبرن التيار السريع واقفات، متماسكات في قواربهن. وهن يقمن ببيع القصب او يحملنه لاصلاح اكواخهن. حتى ان اصغر الاطفال قد اظهروا مهاراتهم في سحب وتوجيه الجواميس عبر الماء ويتقافزون فوق هذا او ذاك. ولم اعرف مُطلقاً سبباً لتأخرنا في الرحيل امام صمت دليلنا حول تأخر الرحلة. ولكنني اجد اسباباً اخرى تدفعني الى الشكوى منه. وعندما وصلنا الى الشاطئ الاخر، وجدت انه لم يوفر لنا العدد الكافي من الخيل الذي اتفقنا عليه. لانه كان يجب ان يكون هناك حصان لكل فرد منا، ويجب ان يكون هناك حصان اخر اضافي عند حدوث اي حادث ما، واخر يحمل الامتعة اللازمة لنا. وبدلاً من ذلك، لم يُحضر ما اتفقنا عليه بل وضع الامتعة، والحقائب واشياء اخرى تعود اليه، واعتقد جازماً انها ليست ضرورية له، في هذه الرحلة، على حصانين يجب ان نمتطيهما انا وخادمي.

لقد عارضت تلك الترتيبات بصرامة لم يكن لينتظرها مني، وثار كعادته، ولكنه عندما رأى اصراري بشكل نهائي، قال لي: ((سأحضر لك

واحداً غداً ولكن يلزمنا لذلك ان نعود الى المدينة، حيث لن نستطيع الذهاب الاّ في الغد)). ورايت من كلامه انه لن يُحقق الا هذا الطلب الاخير. ولكنه طالما انني كنت اتحرق شوقاً لان نرحل حتى نُعوض الايام الثلاثة التي فوتناها، قررت تخفيف امتعتي، فاعطيت غطائي الصوفي الوثير الى احد المضيفين الذين استقبلونا، وقد ندمت جداً لمثل هذه المنحة السخية خاصة اثناء الليل البارد في الايام التي قضيتها في العراء في اعتى وابرد فصول السنة. ولكن كل شئ بالنسبة لي كان افضل بكثير من اي تأخير جديد. وقضيت اللحظات الباقية في مشاهدة تلك الحيوانات البائسة التي كان يجب عليها ان تحمل الى جانب الاشخاص تلك الامتعة الكثيرة الكبيرة لدليلنا الوقح.

ومن المؤكد انه بسبب ضمورها، وعظامها الناتئة والاورام الواضحة خلف الركبة وعلى السيقان وسمانة الارجل، لكانت خيولنا اليوم يتنافسون مع افضل حصان لاى فارس معروف. ورأيت على اي حال ان الاختيار لم يكن لا اباليا بين الثلاثة: فهناك اثنان يكادان ان يكونا فاقدي البصر، منهكين من الهرم، وان دليلنا اللاابالي كان يحتفظ بالثالث لنفسه. واتخذت قراري على هذا الاساس. وقد اشار الى الحصان الذي اختاره لي، وكان بطبيعة الحال ابأس حصان يمكن رؤيته. وكان علي استعداد للركوب وحوله ستة من المشردين في اسمال بالية اوقفته قائلاً: ((علي اغا، هل تعتقد ان ذلك الحصان الذي خصصته لي يستطيع قطع الصحراء؟)). اجابني قائلاً: ((الله كبير ورحيم. انه افضل حصان يمكنك ان تتمناه. انك تراه اليوم ضامراً ولكن اذا ماتمت العناية به في اسطبلات السيد "كولكوهون" فلسوف يباع بسعر اغلى من سعر خيوله. انشاء الله وبأذن الله يوصلك الى بغداد)). وكان جوابه كافياً لكي اصر على قراري واقتربت من الحصان الذي اختاره لنفسه، وبينما كان يدعو

الجمع الغريب حوله ليستشهدهم على اقواله، اندفعت نحو الحصان وامتطيت ظهره، وناديت خادمي ليركب ورائي، وقلت له بدوري انه يمكنه اللحاق بنا عندما يرغب في ذلك. وتعالت ضحكات من حوله عليه، وذلك لان التركي لا اصدقاء له في الصحراء، ولم يكن خادمي اخر عربي يضحك منه. ولم يكن امام ذلك البائس الا ان يرضى بنصيبه. القى بثقله على الحصان الضامر الذي تركته له، ولم يتبق لحصانه الا ان ينشط قدر المستطاع في المسير.

ورأينا في طريقنا ونحن نعبر المدينة، مسجداً كبيراً من الطابوق، مع مُجمع ملحق بالدراويش، وكان المبنى الوحيد من الطابوق. ذا مظهر جيد مقبول منذ ان تركنا البصرة. وبعد ان ابتعدنا قليلاً من القرية وصلنا خيمة "الشيخ محمود" شقيق "الشيخ حمود" وممثله عندما كان الشيخ حمود قائداً للجيش. وعند وصولنا كان "الشيخ محمود" غائباً كذلك. واسفت جداً لان رحيلنا سوف يتأخر لحين وصول "الشيخ محمود"، ومع ذلك سررت لهذا التأخير الذي لم نخطط له. والشيخ حمود يترأس قبيلة المنتفك، من اهم قبائل بدو الصحراء، ووجدتها مناسبة لدراسة طبائع الكبار. ومما يثير الاهتمام، تلك البساطة السائدة تحت خيام اسياد الشرق هؤلاء. ولايستطيع القلم ان يفي حقهم وانت تصف ذلك التأدب دونما ادعاء وحسن الضيافة والكرم الحقيقي لاسياد الصحراء اولئك خاصة لذلك المسافر الواثق بالامان في حماه والذي يوفره له شرف تلك القبائل.

واثناء غياب الشيخ محمود المؤقت يجلس ابنه مكانه، وهو شاب وسيم في السادسة عشرة من العمر. ويجلس الابن وسط الخيمة الكبيرة المفتوحة، تحيط به حاشية من رجالات مرموقين، يجلسون او يقفون في الاطراف كل حسب مستواه الاجتماعي او عمله. والبسط التي يجلسون عليها تشكل الاثاث الوحيد في الخيمة، وخيولهم مربوطة في اوتاد خارج

الخيمة في الجوار، وبعض الخيام لقطعان كبيرة من الجمال تملأ الساحة الخلفية. وعندما دخلنا قام الشاب برشاقة ودعاني بالاشارة ان آخذ مكاني الى جواره. وكان بعض المساعدين مشغولين بقراءة الرسائل، ومراسلون يتلقون الاوامر، في الوقت الذي يشغل فيه الغليون والقهوة اوقات الفراغ. اما محارب الصحراء الجسور كان يترصد اقل حركة، واقل ابتسامة للشيخ الصغير، ولكنه يقوم بكل ذلك بلطف وبدون اي خطة، وهو يتحدث عن رأيه وبكل حرية، اذا ما حتم الظرف ذلك. وفي النهاية، سمعنا جلبة في الخارج اعلنت اقتراب وصول الشخصية الكبيرة التي انتظرناها بفروغ صبر. وهب المجلس كله لاستقباله وسبقه الشيخ الصغير وتقدم الجمع نحو الخيمة، حيث ظهر الشيخ محمود بقامته الفارعة، ومظهره العسكري وحضوره المهيب وخطواته الواثقة. وكان يبدو وكأنه عائد من رحلة سرية وهامة وكأنه كان يفكر في اخرى جديدة.

وعندما دخل الخيمة واتخذ مكانه، تم تقديمنا اليه. وسلم علينا، بايماءة من رأسه دون ان يتوقف عن اهتمامه بالاستماع والاهتمام بالاجراءات الاكثر اهمية التي شغلت فكره. وسادت لحظة سكون وهو يحاول استعادة جاشه، ورُبما لكي يتمكن من التفكير حول موضوع تلك الرسائل التي قدمناها له، وحول الطريقة التي سوف يتصرف بها تجاهنا. وبعد لحظة من التفكير طلب منا الجلوس، وجلس كذلك اولئك الذين لهم ذلك الشرف في حضرته.

وتعالج جميع الشؤون مهما كانت طبيعتها علناً ولكن ظاهرياً. فمن يستمعون لما يقوله الشيخ هم الذين يعتمد عليهم من اهل الثقة الكتومين. وقد اخذت قراءة الرسائل التي ارسلها حاكم البصرة وقتاً كبيراً، وفي الاثناء كان الشيخ يستدير نحونا من آن لآخر لكي يضع بعض الملاحظات حول الموضوع. ثم ختم الجواب على الرسائل التي املاها

بختمه في ذات الوقت. ورغم انني لم استطع سماع مايقوله فلم يكن بجواري خادمي الذي يترجم لي مايقال. وقد تيقنت ان الشيخ معتاد على تسيير الامور ويستعين بثلاثة او اربعة مساعدين مشغولين بتدوين مايمليه عليهم، في الوقت الذي يتحدث فيه مع ابرز اعضاء المجلس. وبعد مضي بعض الوقت، اخبرنا ان الجوازات والادلاء سيكونون جاهزين قبل الوليمة التي دعاني لحضورها. ولانه شخصية مرموقة لم استطع رفض الدعوة. مع ان ذلك يعني تأخيراً جديداً لرحلتنا.

وقد دللت الاستعدادات للوليمة على مدى البذخ الذي لم اجد له مثيلاً وماكنت اتصوره. فقد فرشوا على الارض وسط الخيمة اربعة جلود كبيرة لجاموس متشابكة. وكان من السهل رؤية طبقات الشحم المتجمعة التي تملأ سطحها، وكانت تلك المائدة الجلدية من الاثاث الذي يعود للاسرة. ومع ذلك لم يُقلل مظهرها مطلقاً شهية الضيوف الذين تحلقوا حولها كما الصياد الجائع. وحاشية كبيرة من العبيد تصطف مشغولون بنصب الخيام وخيمة الشيخ. ثم احضر كل منهم صينية كبيرة يغطيها الارز الاسمر على ارتفاع قدم، تتفرس فيه رؤوس واوصال الخراف التي تتدلي من الانية المتخمة بالارز، تلك الخراف التي رأيتها ترعى بهدوء منذ ساعة او اثنتين. لقد اتحدت موهبتهم وخبرتهم في الطهي وطريقتهم في تقديم الطعام للضيوف. وكانت بعض قطع اللحم مازالت مغطاة بالجلد، رّبما نسور تنظيفه وخلعه، وبكلمة واحدة، يمكنني ان نقول ان تلك الحيوانات المسكينة قد مزقتها كلاب جائعة كانت تصطف خارج الخيمة وتنتظر بفروغ صبر مايتبقى من فتات الوليمة.

وبعد ان تمت جميع الترتيبات، سمعنا جملة ((لا اله الا الله، بسم الله الرحمن الرحيم)) بصوت عال ايذاناً ببدء الطعام. ومد الشيخ يده القوية وسط اكوام الارز التي تغطي اقرب صينية له، وايذاناً لنا ببدء تناول الطعام.

وكنت مضطراً ان اقوم بالمثل وامد يدي، وكانت تلك الحركة تأدباً مني ورغبة في عدم جرح مشاعره. وانني افكر في ان اي تجمع من شيوخنا الافاضل اذا ما اجتمعوا لمناقشة مزايا سلحفاة او فطيرة محلاة، لما استطعنا ابداً تقدير ماهية تذوق تلك الحلوى بمثل ذلك الشعور والشراهة التي اراها امامي اليوم، والتي اظهرها مضيفونا وهم يتناولون تلك الوليمة البسيطة ولكن الجوهرية. وقد ساد الهدوء والصمت التام لبعض الوقت. لم يقطعه سوى الرئيس الذي جال بنظراته حول المائدة مشجعاً ضيوفه على مداومة تناول الطعام. ولسوء حظي انني اثرت انتباهه في تلك اللحظة فقد رأني لم اعد آكل، ولان معدتي كانت في اسوأ احوالها بعد كل ماشاهدت. واذا به يجر رأس احد الخراف، كان يتدلى منه جزء من الرقبة وجزء من الاكتاف. وغرز اصابعه في محجري العينين وقسم اللحم قسمين وطلب مني استئناف الاكل. وقد كانت تلك الحركة الضربة القاضية لشهيتي. واستجمعت قواى جميعاً للقضاء على اشمئزازي واضطررت لترك مكاني. وقام الضيوف الاخرون بعد ذلك الواحد تلو الاخر بعد ان ينتهي كل منهم من طعامه. واحتل مكانهم بعض المرؤوسين الاخرين الذين لايظهرون سوى مع نهاية الوليمة.

وقدم لنا الخدم الماء بعد ذلك, كما فعلوا في بداية الوليمة، لكي يغسل كل يده. في حين رأيت الكلاب الجائعة التي استطاعوا السيطرة عليها حتى انتهاء الوليمة، قد اندفعت داخل الخيمة وبدأت تلتهم العظام والصواني الخشبية وحتى جلد الثور. وفي لحظة واحدة اختفى كل شئ. ثم بعد ذلك جاء دور القهوة. اما الشيخ الصغير، فقد ظل واقفاً خلف والده طول الوليمة احتراماً له، وقدم له بيده فنجان القهوة وبعد التدخين لآخر مرة، توجهنا للرحيل. ((ايها الغريب)) قال لي الشيخ محمود: ((عرفت انك واحد ممن يخدمون علي الكبير. وقد قمت بسفرة طويلة وخطيرة، ولكنك وصلت لحظة وقوع المعركة، وعندما يقدمونك للباشا،

لانك ستصل بأذن الله سالماً معافى في حراسة ادلائي الى بغداد، وبعد ان يقدمونك للباشا قل له انك قد زُرت ورأيت اهل المنتفك في الكوت وان الجميع هنا سيؤازرونه ويدافعون عن قضيته. فبأذن الله العلي القدير لن يحني ابن سليمان الكبير رأسه امام عبد جورجي)). قال وهو يلوح بيده في انفعال شديد: ((ابن سليمان الكبير هو باشا اهل المنتفك؟))

لطالما اغارت تلك القبيلة على المسافرين في الطريق من البصرة الى بغداد، بل انهم قد استولوا على الكثير من القرى في الطريق. ولكن اذا جابههم من هو اقوى منهم، ينسحبون الى داخل الصحراء. بل انهم تمادوا ذات يوم وحاصروا البصرة، لكن سليمان كيچه الذي اصبح فيما بعد باشا بغداد، عاقبهم بشدة على وقاحتهم.وعلى غرار ما فعل والده حشمت كان يهجم عليهم بغتة بقوة ونجاح. ويقال ان الحظ حالف حشمت يوما وقبض على الشيخ شادون* وفي نوبة كرم، حرره وطلب منه ان ينصرف في سلام وان يدفع الجزية في الوقت المحدد. ورغم ذلك، سرعان ما عاودوا غاراتهم، فارسل لهم سليمان كيچه نسيبهم، الذي ذهب اليه على رأس نخبة من المقاتلين وهاجم معسكرهم على حين غرة واستطاع للمرة الثانية ان يقبض على اسيرهم. ويتحدث العرب اليوم بحماس عن الشجاعة البطولية التي دافع بها شادون؟ عن نفسه. وعندما فقد رمحه وسيفه، حارب يائساً مستخدماً فأساً وضرب به اعداءه. وبعد مقاومة عنيفة مستخدماً سرج حصانه وقع اسيراً في يد اعدائه. ورفض ان يوقع الشروط المهينة التي اراد احد المنتصرين ان يمليها عليه وقال: ((انا سليل اسرة نبيلة عريقة))، اعلنها بعزم، واخذ يعدد القابهم جميعاً واستطرد: ((انك لن تستطيع ان تسمى ذلك الرجل الذي وهبك الحياة ولا

---

* ربما سعدون. اعتقد انه احياناً يُحور في الاسم حسب سماعه له وهو الاجنبي. [المترجمة]

الام التي حملتك بين ذراعيها. ومن اقدار الحرب ان اكون اسيرك. وانني لن اقوم مطلقاً باذلال وتلويث شرف قبيلتي)). ولكان اكرم الاعداء ان يقدر ويحترم تلك الشجاعة النبيلة، ولكن سليمان استل حربته وقطع رأسه وارسلها الى والد زوجته.

وبعد ذلك المثل الذي حدث ظن الشيوخ انه من ضروب الحذر ان يعلنوا خضوعهم. بل وقدم ثمانية منهم انفسهم في نفس اليوم آملين ان يتقبل سليمان خضوعهم، ولكن سليمان الذي خشى الا تتكرر له مثل تلك الفرصة، اصدر امره بجز اعناقهم جميعاً. وقد اضعف ذلك التصرف السياسي البربري قبائلهم التي اضطرت الى اظهار الهدوء لبعض الوقت، ويعتبر الاتراك تلك الحملات والتصرفات من ضروب الشجاعة، في حين ان العرب يذكرون ذلك وحتى اليوم بانها من التصرفات التي توحي بالقرف خاصة اذا ما تذكروا تلك القسوة التي نزلت بهم.

وما كدنا نقطع ميلين خارج الخيام، حتى اجتاحتنا عاصفة قوية. وخلال بضع دقائق اصبحت الارض رطبة موحلة، لدرجة ان قوائم الخيل تنغرس فيها حتى الرُكبتين، كما ان البرق كان يخيفهم جداً بحيث انه اصبح من الصعب جداً السيطرة عليهم. اما تابعي التركي الذي كان يتحسر على مائدة مضيفنا، استخدم كل لباقته ليقنعني بالعودة لقضاء الليلة في خيامهم. ولكنني كنت متشوقاً بفروغ صبر ان اجد نفسي بين الاوروبيين فلم استطع ان استجيب لاسبابه، وحركت حصاني وسبقتهم لكي اقطع الطريق على كل حديث، وقلت لهم انني لم ار في حياتي فرساناً اسوأ منهم. ولم يكن تهجمي ذاك كريماً تماماً، فقد كنت امتطي صهوة الحصان الافضل بين الثلاثة. وقد حقق حصاني هدفي فقد كنت ابذل جهداً مضاعفاً حتى يستمر الامر. وبعد ان قطعنا عشرة اميال، راينا معسكراً صغيراً يحوي عدة خيام للبدو، وقررنا ان نقضي الليلة لديهم.

ان الكرم بلا شك فضيلة وطنية لبدو الصحراء. ولم يكن هؤلاء المساكين يملكون شيئاً. ولكن القليل الذي يملكون، قدموه لنا عن طيب خاطر وبكل اهتمام. وفرشوا لنا داخل الخيمة سجاجيد حتى نقضي الليلة ونرتاح من تعبنا. وماكدت انام حتى سمعت صوتاً وافقت من نومي. لقد كان مضيفنا الكريم واسرته قد ارسل في طلب بعض الاغطية التي فرشوها فوقنا. ويبدو انهم حرموا انفسهم من الاغطية لكي يقدموها لنا، هذا الى جانب انهم سيظلون ساهرين طيلة الليلة. ومع ذلك لم استطع ان اثنيهم عن قرارهم وجلست ادخن معهم ثم قدمت لهم ذلك التنباك الفاخر الذي احضرته معي من البصرة. وبعد ذلك، استغرقت في نومي حتى الصباح، حيث انطلقنا في ساعة مبكرة برفقة الدليل الذي قدموه لنا بالامس.

وفي الثانية صباحاً، عبرنا رافداً صغيراً يصب في نهر الفرات. ويُعتبر حدوداً لمقر اقامة الانسان قبل سقوطه. يا الهي! لكم تغيرت تلك الجنة اليوم! انها منطقة معزولة قاحلة تكاد تنتج محصولاً ضئيلاً من الحبوب. وقضينا الليلة لدى شيخ وقور، تقع خيامه على بعد ثمانية وعشرين ميلاً من المكان الذي توقفنا فيه بالامس. والمنطقة التي عبرناها جزء من اراضي مابين النهرين القديمة، ولا تقدم الا ذلك المستوى المنخفض من الزراعة التي تكاد تسد حاجة السكان. وتبقى جزء كبير من الاراضي ارضاً بوراً للعديد من السنين. وقد تمت زراعتها بطريقة سطحية، وتكاد تنتج ذلك المحصول الضئيل الذي يسد بالكاد حاجة ذلك الجنس البسيط المتقشف.

وبعد ان عبرنا ولمدة اربع ساعات ارضاً منبسطة وقاحلة تقريباً توقفنا تحت خيمة الشيخ ابراهيم. وهو رئيس شاب شجاع جداً في السادسة والعشرين الى الثامنة والعشرين من العمر، ويمثل رعباً حقيقياً للقبائل المجاورة. وبالامس، عذبنا كثيراً جداً فضول دليلنا الماكر الذي

اخذ يتدخل في شؤوننا، ويبدو انه اخذ يشك كوني جيورجياً في خدمة علي باشا. ولان خادمي ودليلي التركي قد ذكراً امامه مثل تلك القصة دون ان يُعلماني بذلك وليبررا له بياض بشرتي، ظناً منهما انهما بذلك يتفادان اي خطر يمكن ان يهددني. فقد كان علي باشا شخصية تحترمها جميع تلك القبائل، فقد هزم الوهابيين اعداء عقيدتهم. ولان خادمي لم يخبرني كيف اتصرف او الدور الذي يجب ان العبه، فقط اسقط في يدي عندما امطروني بالاسئلة بعد ان جلسنا تحت الخيمة، حول علي باشا والوهابيين. ووجدتني محتاراً جداً خاصة عندما انضم مضيفونا الى دليلي وارهقوني بدورهم بالاسئلة عندما عرفوا انني جيورجي. وطوال الرحلة كان ذلك الدليل يتشاجر مع دليلي التركي لانه رفض بعناد ان يُشفى غليله ويجيب على تساؤلاته عني. ولكي ينتقم منا، اخبر الشيخ ابراهيم ومستشاريه الخطرين، انني لم انطق ولو بكلمة واحدة، وخادمي هو الذي يُجيب بدلاً عني. وفي الحال طلبوا من خادمي الامين ان يترجم لي ومن ثم امطروني بالاسئلة.

ولم اكن اعلم ابداً، من هم الوهابيون او حتى علي باشا سيدي المفترض. ولحسن الحظ، كان هؤلاء القضاة العارفين بالامور قد سمعونا ونحن نلفظ اسماءهم بلغة قريبة من لغتهم. واقتنعوا حينذاك وبسهولة بانني في خدمة تلك الشخصية الكبيرة. بل قالوا، انهم لايدهشهم الا يتحدث احد سكان القرم بلهجتهم اصلاً، اما خادمي، الذي طلب مني ان اتحدث اليه ليعطي الانطباع، بانه يترجم لي مااقول، قام هو بترتيب الاجوبة على تساؤلاتهم. وذلك الرجل المخلص كان ينتظر نتائج مخيفة اذا كانت معارف من يسمعوننا حول الاوضاع في مصر قد تساوي رغبتهم في معرفة تلك الاخبار. اما خادمي، الجاهل بالطبع، قد اقترف اخطاء فظيعة في التواريخ، وشوه الجغرافيا، لدرجة انني لم استطع استيعاب

سذاجة مضيفينا. والحقيقة هي ان خادمي المسكين كان يخشى جداً ان يكتشفوا كذبته لدرجة انه لم يعد يعي هو نفسه مايقوله، وقدم سيدي المفترض في سن اكبر بكثير من نصف قرن عن جميع الحضور، وقال انه يمتلك جيشاً عرمرماً اكثر من جيش السيد الكبير وشاه فارس مجتمعين. باختصار وفي كلمة واحدة، كان على وشك ان يكشف سرّنا رغماً عنه في النهاية. وقد حدث ذلك في الوقت الذي سمح فيه دليلي التركي لنفسه ان يكيل السباب في خشونة تجاه بعض شخصيات الشركة مما غير مجرى واتجاه الحوار واثار الاهتمام العام.

ولاكثر من مرة، منذ ذلك الوقت، دهشت جداً لصلافة ذلك الرجل غريب الاطوار، التي اثارت تصرفاته ضغينة ذلك الشعب تجاهنا، واعتقد ذلك شيئاً عادلاً ومن حقهم فلم يكن يترك التركي فرصة ليكيل السباب والسخرية المرة والاهانة تجاههم. ولكن قطاع طرق الصحراء هؤلاء لقنونا درساً بليغاً في الصبر والاعتدال، لن تجدهما لدى اكثر الشعوب تحضراً. وقال لنا الشيخ بعد ان هدأت الاصوات واللغط: ((اصدقاء او اعداء انتم، مؤمنون او كفرة لسوف تتمتعون بالحماية في خيامنا!)). وما كاد ينهي التعبير عن مشاعره في بساطة تامة حتى توقف جميع اولئك الذين استلوا خناجرهم استعداداً للانتقام من الاهانة التي كيلت لهم، كما بدا وكأنهم خجلوا من هذا الاندفاع الذي ابدوه. وفي تلك اللحظة، اندفع الى داخل الخيمة ابن الشيخ المفضل وهو يهزأ من النسوة اللاتي لحقن به لمنعه. وامسك بذراع مضيفنا، الذي ناداني واعرب عن حمايته لنا، ثم جلس الطفل، في احضان والده. – ((رُبما انت والدٌ))، قال الشيخ، ((هل رأيت ابداً طفلاً يشبه ابني؟ لوكان اقوى قليلاً لرأيته يرمي الرمح بمهارة تفوق مهارتنا، رغم صغر سنه ولايكاد يبلغ الرابعة من العمر)). ثم اعطوه قصبة، سددها بدقة واطلقها فوق رأس التركي الذي فقد اعصابه. وفي لحظة، استحوذ الطفل على الاهتمام العام، واذ لاحظت المحبة الخاصة التي

يُكنها له والده، قمت لاضيف شيئاً الى هذا الشعور العام وقدمت له عملة ذهبية من نقودنا ليضعها في عنقه كالتعويذة. وقدم لنا الشيخ حينذاك دليلاً جديداً بدلاً من ذلك الدليل الذي رفض ان يتابع الرحلة معنا بسبب شجاره الدائم مع التركي. ورحلنا بعد ذلك مع دليلنا الجديد.

الفصل السادس

الوصول الى الشطرة، احترام كبير للسيدين[5]، قبيلة بدوية ملحدة، واسط، ملاقاة الجيش العربي، الامر اليه بالتحرك، الوصول الى بابل

***

في السابع والعشرين من يناير، وبعد مسيرة ساعتين وصلنا الى الشطرة، وهي مدينة كبيرة نوعاً، بل الوحيدة التي رأيناها وتستحق اسم مدينة منذ ان تركنا مدينة الكوت. والشيخ "حسود Hassud"، رجل كبير السن في السبعين من العمر تقريباً ويترأس القبيلة، مع ابنه البكر. ورأينا رئيس القبيلة وابنه جالسين على طرف خيمة كبيرة مريحة جداً، يحيطهم من خمسين الى ستين رجلاً من كبار السن، يقرأون الرسائل ويتلقون التقارير، ويبدو عليهم انهم يناقشون مسألة هامة جداً، كما يبدو من الاهتمام الزائد بما يدور بينهم وسمات القلق البادية في نظراتهم. واخبرنا الشيخ انه من المستحيل ان يقدموا لنا دليلاً يرافقنا في رحلتنا. وكان اللصوص يملأون المكان ويسمونهم اشقاءهم. وقد تمت سرقة قطعانهم في الصباح من قبل عصابة من اللصوص الذين تسللوا الى المدينة اثناء الليل. وقد طارد رجال القبيلة هؤلاء اللصوص دون جدوى ولم يستطيعوا الا ان يجدوا بالكاد حصاناً واحداً. ومن جهة اخرى، رفض دليلنا السابق مواصلة الرحلة معنا، ولم يُثنه عن قراره مهما بلغت قيمة المال الذي عرضناه. فقد جاء من مكان بعيد، وعرض حياته للخطر ولن يخطو خطوة واحدة بعد مهما كانت

---

[5] جمع السيد، وهو الانسان المنحدر من سلالة النبي (ص)، أما كلمة "الأسياد" تعني معنى آخر غير المعني المراد الذي تعنيه كلمة السيدون.

المغريات. ووجدنا انفسنا مضطرين لتناول العشاء الذي قدموه لنا، ولم يكن امامنا سوى البقاء في هذا المكان لمدة اطول، او العودة لخيمة مضيفنا الكريم ابراهيم قاطع الطريق.

واثناء تناولنا الطعام، وهي الوجبة الوحيدة التي استطعت تناولها بدون اي شعور بالقرف منذ اسبوع، واثناء ذلك اندفع التركي يكيل السباب والشتائم ضد مضيفنا وضد النساء جميعاً من بنات وامهات واخوات وزوجات، وموجهاً اليهن مختلف صنوف الاهانات، وذلك لانهم رفضوا منحنا دليلاً ليرافقنا في الرحلة، وكذلك بسبب فضولهم وتساؤلاتهم حول شخصي. وبذلك فقد فاض الكيل، ولا استطيع حتى ترجمة ذلك السيل من الشتائم. وانتفض الزعيم الشاب في نوبة غضب شديدة تملؤه مشاعر السخط ومعلناً اننا لن ننعم ولو للحظة واحدة بعد ذلك بالحماية في ربوعهم. واذا ما تم طردنا من الخيمة في تلك اللحظة بعد ان رأينا التهديد في حركاته والشرر المتطاير من نظراته، فلسوف يذبحوننا على باب الخيمة. وذلك على الرغم من انه من النادر جداً خرق اعراف الضيافة لدى تلك الشعوب وبالمثل وبنفس القدر لن يترك الاستفزاز دون عقاب. ولكن الزعيم الشيخ اندفع امام ابنه ونجح في وضع حد لغضب ابنه، وحاول افهامه بأنني وخادمي لسنا مسؤولين عن ذلك، وانه ليس من العدل انزال العقوبات بنا. وكنت حتى الان، اعتقد ان خشونة سلوك التركي مُضرة بي، ولكنني بدأت ومنذ اليوم اعتقد العكس، فهو بذلك يُحول الاهتمام نحوه واظل انا بعيداً بذلك عن اي خطر. ومن المحتمل الا يكون ذلك التصرف حيلة من جانبه، فخادمي يتهمه دائماً بانه لايبدي احتراماً او مراعاة لي في حديثه، ولكنه يخلق امامنا على الاقل فرصة تكوين اصدقاء لنا بسبب التناقض الصارخ بين سلوكه وسلوكنا.

ولم نعد نفكر بعد ذلك المشهد في امكانية الحصول على دليل او حماية لنا فقد قطعنا الامل في ذلك. وحاول التركي ان يمهد الطريق امام

الصلح، بل واكد بكل صلافة انه اراد فقط ان يثير جواً من المرح لدى اصدقائه المحترمين اهل الصحراء، والذين يعرفون جيداً جميعهم علي آغا، وانه مجرد رسول بسيط للحاكم الذي ارسله الى الباشا.

عندما وجد نفسه بين معارف قدماء، ظن انه يسمح لنفسه بالقاء نكتة. ولكن ذلك كان عذراً قديماً مكروراً لايهتم به احد ولم يكن هناك عربي واحد يستمع اليه وحينذاك اضطر ان يتسخدم وساطة خادمي لدى "سيد" وقور ليصطحبنا حتى حدود اقرب قبيلة. وذلك لان السيد لقب لاحفاد النبي الذين يتمتعون باحترام كبير لدرجة ان وجودهم يعتبر حماية في اي مكان يوجدون فيه، حيث يعترفون لهم بقدسية صفاتهم. كما ان التسبب في وفاة احدهم، يعتبر جريمة من ابشع الجرائم بسبب قدسية حياتهم التي صنعت لهم شهرة واسعة.

ويكفي عادة ان يندفعوا بين المتخاصمين او المتحاربين اذا ما هوجمت جماعتهم وذلك لتهدئة اعصاب البدو المتمسكين بالخرافات. اما الشخص الموقر الذي توجهنا نحوه لهذه المناسبة، وكان اقترابنا منه تتسم باحترام فائق، كان يدرك جيداً ما ننتظر منه, وطلب منا مبلغاً ضخماً مقابل خدماته. وحاول التركي مساومته ولكن دون جدوى. ولكن انتهى به الامر بالقبول ورحلنا. وقد قال لنا دليلنا الشيخ الموقر انه يجب علينا ان نثق تماماً في حمايته لنا واظهر لنا شجاعته وفروسيته بالطريقة التي امتطى فيها حصانه العربي وبدا انه افضل فارس في موكبنا.

وقطعنا صحراء حقيقية، لازرع ولاضرع فيها. وسرنا لساعتين يلفنا صمت مطبق. كان التركي يفكر في المصاريف الاضافية التي كلفته بها خشونته وفظاظته، وانا مازلت افكر في ذلك التأخير الذي اضطررنا قبوله، وخادمي كان يفكر في المخاطر التي واجهناها وتلك التي سوف نواجهها. وفجأة وفي اللحظة التي كنا نحاول النزول فيها في طريق ضيق،

حتى سمعنا جلبة ورأينا بعض البدو يصيحون بصيحات الحرب وتحلقوا حولنا، واعتقد اننا لم نرهم من قبل. ويبدو انهم ظهروا من باطن الارض ووجهوا نحونا حرابهم وبنادقهم. وفي تلك اللحظة الحرجة، اظهر السيد هدوءً وشجاعة كبيرين. ودون ان يقول كلمة واحدة، اخترق تلك الجموع الغاضبة وترجل من حصانه وخر ساجداً واضعاً تحت رأسه تعويذة من الجلد نقش عليها آيات من القرآن وبدأ يصلي ويتلو آياته بصوت عال.

وفي نفس اللحظة، ساد السكون التام وصمتت الصيحات المدوية التي ارعبتنا. وانخفضت الايدي المرتفعة والقت الاسلحة المميتة التي كانت تتهددنا, استسلم الجميع في خشوع وحرارة للسجود، وتحولوا اصدقاء سيدافعون عنا وسرنا بينهم متمعتعين بذلك التفهم الذي خلفه التأثير الديني، ولكي يستمر ذلك قدمنا لهم هدايا من الغلايين ومن التنباك. ولم تكن تلك اول مرة ارى فيها التأثير الطيب لغليون ملئ بتلك العشبة المفضلة. وكيف تملأ قلوب تلك الجموع الرحل بالحبور. ولان مثل تلك القبائل لاترتبط طويلاً بعلاقات مع القبائل المستقرة، كما انهم لايزورون المدن الا نادراً، فذلك يعني ان ذلك الغليون يعتبر ترفاً محرومين منه. كما ان تقديم مثل تلك الهدايا العينية حرص يجب اتباعه بدلاً من تقديم النقود التي تثير جشعهم. وكان سخاؤنا في هذا الظرف بلا حدود وبنفس قدر مخاوفنا. وقد وصلت آنذاك مراكبهم واستطعنا عبور النهر الصغير الذي كان يعيق طريقنا.

وعندما نزلنا على الشاطئ المقابل، اوصانا الاصدقاء الجُدد ان نبقى بينهم حتى لانصطدم بطلائعهم قبل ان يعرفوا من نحن، اذ انهم يختبئون بين الاحراش. واتبعنا وجهة النظر تلك، ووصلنا خيام القبيلة التي تبعد ميلين عن الشاطئ. وما ان وصلنا قام السيد للصلاة، وبعد ان انهى صلاته، نشر دعواته وتبريكاته بسخاء على الجميع، مما جمع حوله

جميع القلوب. وتدافعت النساء تحيط به، وليقدمن له اولادهن لتقبل بركاته، بل يطالبنه بالدعوات للانجاب ثانية لدرجة انهن يلمسن ملابسه لنفس الغرض. ووسط تلك المشاهد المتنوعة، حيث اختلطت تعابير الوجوه الماكرة مع التأثير الدينى الاسر لتنشئ وتنشر معاً دعاية السلام وحماية الضعيف امام القوي، استطعت بسهولة وبحرية تامة ان اراقب عادات وظروف حياة القبيلة الجديدة التي دفعنا القدر لملاقاتها.

وكانت تلك القبيلة بالتأكيد الافقر والاقل تحضراً من جميع القبائل التي رأيناها قبلاً. ثروتهم الوحيدة قطعان النعاج ويكادون يملكون جملاً واحداً او حصانا واحداً. وقد احاطوا خيامهم بسور من الاعشاب والشجيرات الصغيرة تفادياً لاية مفاجأة تحيق بهم. ولم ار في حياتي مثل ذلك البؤس السائد والمثير للشفقة، وهم يشعرون تماماً به. ولم يكن هناك سوى ثلاثين شاباً والباقي اما شيوخ شاحبي الوجوه ضامري الاجساد، او اطفال ضعاف يكادون ينهارون من الجوع والهُزال.

ولو قمنا بتعداد الرجال والنساء والاطفال في الخيام الاخرى لما تعدى عددهم الثلاثمائة نسمة. اما الوجبات التي قدمت الينا قبل ذلك تعتبر ترفاً كبيراً بالنسبة للوجبة التي قدموها لنا، فلم يكن لديهم سوى حلوى الارز اليابسة السوداء. ولم يستطيعوا الا ان يقدموا لنا كمية قليلة منها رغم انهم طلبوا ذلك من جميع الخيام لكي يقدموا لنا تلك الوجبة. واذ حصلوا مؤخراً على بعض الدقيق، استمعنا الى نسائهم وهن يحضرن العجين. وبعد ذلك راينا انهم يرمون فوق النار قطعة كبيرة من الحلوى قطرها ثلاثة اقدام وسمكها بوصتين تركوها لتنضج بعض الوقت.

ويختلف هؤلاء البؤساء عن العرب الاخرين الذين التقيناهم في لباسهم وعاداتهم. فبدلاً من تلك الحيوية وفروغ الصبر الذي يميز القبائل الاخرى، يكسو وجوه رجال قبيلتهم حزن قاتم. ولو كان ذلك بسبب الفقر، فان قدرهم

بائس ويدعو للاسف الشديد. وكانوا ينظرون الينا في حسد واضح. ففي لحظة قضوا على الحلوى. وكنت اعتقد في كل لحظة بسبب القلق وفروغ الصبر الذي يبدو على وجوههم، بانهم سينقضون علينا ليتناولوا ذلك الجزء من الغذاء الذي حُرموا منه بسببنا.

وكنت القى في كل لحظة الاسئلة على خادمي حول الاختلافات الواضحة بين عاداتهم وعادات القبائل الشجاعة الكريمة، ولكنه كان يتوسل الى ان التزم الصمت التام حتى لا اثير شكوكهم اذا رأونا نتحدث معاً. وحاولت عدة مرات ان اسحب الحوار حول هذا الموضوع ولكنه كان يغير مدار الحديث في خوف غير مُبرر في نظري. ولم استطع مطلقاً ان انتزع منه ادنى توضيح لذلك.

ولم يكن ذلك مطلقاً بسبب جهله، فهو يعرف ذلك جيداً، ولكنه موضوع لايستطيع الخوض فيه. حتى علي اغا نفسه ما كان ليحضر هنا اذا عرف انه سيلتقي بهم. انهم كفار، ويقترفون جميع الاثام المستهجنة، فهم لايشغلهم الرسول او القرآن، ولايهمهم البتة شيخ منتفك. وعندما ابديت دهشتي للاحترام الذي ابدوه للسيد، فحتى لو قابله اسد في الصحراء، فلن يواجهه، بل سيبتعد بهدوء دون ان يوجه ادنى اساءة الى السيد.

اما التركي، فقد التزم بصمت مطبق عنيد منذ ان رأى فضولي الزائد، بل انه اصبح اكثر صمتاً في هذه المناسبة وعلى غير عادته. وكنت قد اعتقدت انهم محمديون استناداً على الظاهر وافتراضاً، ولكنهم من جنس انتقل الى الهرطقة وانهم يعتقدون بالالوهية ولكن طقوسهم فظيعة وغير مقبولة، كما يعتقد المؤمنون الحقيقيون. ولم يكن قبول ضيافتهم مقاسمتهم طعامهم شيئاً مشرفاً لخادمي او للتركي. بل انهما كانا يتجنبان تقديم اي تفسير يمكن ان يسبب لهم الخجل. ربما تكون الطريقة الوحيدة التي اشرح بها نفورهم واشمئزازهم القوى الدائم من الاجابة على تساؤلاتي.

ورحلنا في الثامن والعشرين بعد ان قضينا ليلة سيئة بسبب الامطار التي كانت تتسرب داخل الخيمة. وعبرنا صحراء جرداء لايمكن تصورها، حيث لازرع ولاضرع ولاخيام ولاسكان. وبعد بضع ساعات تغير المنظر تماماً، ووصلنا قرية صغيرة تعود للشيخ "الحاج هود Huja Houd"* ويا للتناقض الصارخ بين هذه القبيلة وتلك التي تركناها للتو. هنا كل شئ يعطي انطباعاً بالثروة والترف،. وتبدو الحقول الصغيرة المزروعة حول الاكواخ بهيجة المنظر وخصبة. الى جانب ان الشيخ نبيل المظهر والاخلاق، ويسود القبيلة نوع من التهذيب وحسن السلوك في الدائرة الصغيرة المحيطة به. وكان عشاؤنا لديه ولاول مرة، يتكون من الارز الفاخر، وقدموا لنا بعد ذلك على الاناء الارضي النظيف جداً، بعض الحلوى والكيك لسوف يتمتع بها اكثر الذواقة تطلباً وبسرور كامل، وحتى لو لم يكن مثلنا وقد صام يومه كاملاً وقطع ثلاثين ميلا ليصل الى هنا.

اما الشئ الوحيد الذي الومهم عليه فهو هذا الوقت الطويل الذي يقضونه في صلاة المساء قبل النوم، ورغبتهم العارمة ان نشاركهم اياها. وفي مثل هذه الظروف كنت انتحي ركناً بعيداً واتظاهر بالنعاس في حين انني كنت ارصد باهتمام جميع الطقوس التي تُقام. ولكن حيلتي لم تنجح هذه المرة. وما ان حانت ساعة صلاة المساء، حتى جاءني من يطلب مني المشاركة فيها. ومددت اقدامي دليلاً على التعب الشديد، محاولاً بذلك افهامهم بتعبي الشديد. ولكن عذري هذا ظل بلا فائدة، وكان على خادمي واجب اخبارهم انني لم اتوضأ منذ ثلاثين يوماً وفي حالة عدم النظافة تلك لايمكن السماح لي في المشاركة في هذه الطقوس الدينية.

وفي صبيحة الغد، واصلنا الرحلة وبعد مسيرة ثلاث ساعات في الصحراء، وصلنا الى مدينة واسط العاصمة القديمة لبلاد مابين النهرين.

---

* عواد. [المترجمة]

وتحتل المنازل القديمة القليلة القائمة مساحة صغيرة يحيطها سور بائس، والذي لايمكن ان يكون الا جزءاً متبقياً من الموقع القديم الذي كانت تحتله عاصمة امبراطورية كبيرة. ومن المحتمل جداً ان كلتيهما لاتقعان في نفس المكان، ولكنهما بالقرب من الموقع الذي تحدده الجغرافيا كما التأريخ، ولكنهما محاطتان من جميع الجهات ببقايا حقيقية لمبان عديدة توضح تماماً هوية المكان السائدة. ولو كنت قد علمت، كما اخبرني بعد ذلك السيد "ريج" المقيم الانجليزي في بغداد بأنني او اي رحالة اوربي قد زار ابداً تلك المدينة الشهيرة من بعده، لكنت قمت بدراسة تلك المنطقة باهتمام اكبر وتعمق اكثر في تلك الاطلال التي لم ينجح الزمن بعد في ازالتها. ومهما كان الامر، فانني استطيع ان اؤكد انه يمكن التمييز بان عدم استواء الارض يكمن في الانقاض المترامية في خطوط مستقيمة متوازية . في اتجاه واحد. بل حتى الارض التي سوتها الامطار مازالت تظهر بقايا اطلال في كل مكان. وكانت تلك الاطلال متميزة جداً لكي تثير اهتمامي وحتى دون ان اعرف فوق اي ارض اسير. ولانه فقط، وحين بدأت ادون وصف ذلك المكان لدى وصولي بغداد، حتى تذكرت موقع مدينة ماكنت اتوقع ابداً ان اجد لها اثراً.

وفي الثلاثين من الشهر، انضم الينا تاجر كان عائداً الى بغداد وكذلك احد الرسل الذي ارسله "الشيخ محمود" الى ربوع الشيخ حمود شقيقه. واستمر طريقنا وسط صحراء قاحلة. وبشكل عام كانت المسافة من الشطرة الى بغداد لاتقدم الا ارضاً قفرة مجدبة قاحلة لاترى فيها الا عزلة تامة الا بعض الخيام هنا وهناك حيث نرى بعض النباتات سريعة النمو والتي لاتحتاج الا الى القليل من الجهد. ولم نجد ولا قطرة ماء اثناء مسيرتنا التي استغرقت عشرين ميلاً. ولان الجو كان ثقيلاً جداً فلم نشعر بالعطش بشكل كبير، ولكن ارسلت لنا الريح سحابة من الاتربة عصفت في وجوهنا. ومع ذلك

فهذا قليل بمقارنة انه في اية لحظة يمكن ان يبرز لدينا موضوع يثير القلق. ففي تلك اللحظة ظهرت فجأة مجموعة من خمسة اعراب على خيولهم القوية. من وراء اكمة صغيرة واشاروا لنا بسهامهم الموجهة نحونا لكي نتوقف مما اربكنا لدرجة لم يتوفر لنا الوقت للدفاع عن انفسنا، ولكنهم عندما رأوا اننا جماعة، اتخذوا موقفاً سلمياً. وتركونا نواصل طريقنا بهدوء ووصلنا (الحي) مع الظهر، وهي قرية صغيرة تقع على شاطئ نهير يحمل نفس التسمية، حيث استضافنا اهلها في احد الاكواخ.

واصبح امامنا طريقان لنختار بينهما، ثم نواصل طريقنا: طريق يمر بمدينة تسمى (كول العُمرا؟) [اهي العمارة –المترجمة]، وهي منطقة يصب فيها نهر الحي في نهر دجلة. والطريق الثاني يمر بمدينة الحلة ليس بعيداً عن بابل. ووقعنا في حيرة كبيرة بسبب كثرة الاراء والنصائح وتعدد وجهات النظر. واخيراً قرر التركي ان نسلك الطريق الثاني.ولانني كنت اترك له بشكل عام حرية الاختيار في هذه النقطة بالذات، امتطينا خيولنا واخذنا نعبر النهير محاولين البحث عن المكان الذي يمكن الخوض فيه. واصبح لدينا الان موكباً من خمسة الى ستة فرسان يمتطون خيولاً قوية. ولكن التيار السريع سحب خادمي وحصانه الهزيل وكاد يفقد حياته لولا بسالة من يرافقوننا، فقاوموا بسرعة شدة التيار حيث كان المكان بعمق اربعة الى ستة اقدام، ونجحوا في انقاذه وحصانه الهزيل.

وفي الساعة الواحدة، توقفنا امام مرابع احدى قبائل الشيخ حمود، والتي نصبت خيامها بعيداً عن ضواحي العاصمة بحثاً عن المراعي لقطعانها العديدة. وقد نصبت هذه القبيلة خيامها بعيداً عن محيط العاصمة لكي تجد المراعي المناسبة لقطعانها العديدة. وما كادوا ينتهون من نصب خيام الرؤساء حتى وصلنا اليهم. وفي هذه الاثناء قدمنا مراسل الشيخ محمود لاحد هؤلاء الزعماء واستضافونا

باحسن ماتكون اصول الضيافة. ((ان ذلك مدعاة للارتياح –قال لنا المراسل– عندما يلتقي الاخوان حيث اتينا من منطقة تسودها القلاقل والاضطرابات، بل حتى انني مندهش جداً لانكم مررتم امام طلائعنا ولم يهاجموكم)). واخبرناه اننا كنا محظوظين جداً عندما يصحبنا مراسل الشيخ محمود. ولكنه اجابنا بقوله: بانه كان محظوطاً في لحظة كهذه بان بقيت راسه فوق اكتافه. وكان تأكيده قوياً جداً على ذلك. ولكن وفي الصحراء فان المبالغة مسموحة للتعبير عن الرأى في حالات المقارنة.

لقد كانت الاخبار التي وصلتنا حول الاحداث الجارية بالقرب من بغداد متناقضة جداً ولحد الان. ولم نستطع الحصول على اية انباء مطمئنة جداً حول الاوضاع من هؤلاء المحاربين فآراؤهم مختلفة جداً. ومهما كان الفريق المنتصر، يبدو ان الامور كانت تسير نحو الازمة. بل انهم كانوا حتى يعتقدون ان جيشهم قد هاجم داود افندي. وفقط بعد ان وجدوا انفسهم بعيدين عن جيشهم، اعتقدوا ان له الافضلية، لانهم لم يطلبوا منهم اي عون. وكان ذلك كافياً لكي نعرف ماذا يجب علينا قوله. واصبح الباشا موضوعاً لمدائحنا.

وكانت تلك القوات عسكرية حقاً، فهي نخبة القبائل. ولايوجد في خيامهم سوى القليل من النساء ولايوجد اطفال. وبقوا في الكوت حتى لايعيقوا العمليات الحربية وحيث نرى ان سرعتهم وخفة حركتهم كانت لتُؤمن النجاح. اما الشيوخ القلائل الذين نراهم بين صفوفهم فمن المحاربين الفُضلاء الذين يمتطون خيولهم بكل مهارة وامكانية، ثمرة العادات الطويلة. تغير لون شعرهم، ولكن بقيت قوتهم هي هي نفسها. فمنهم من خدم في صفوف الجيش اربعين سنة، ولكنهم ظلوا اقوياء وبنفس قوة رفاقهم ولايتميزون عنهم الا بلون لحاهم وآثار الجروح التي تغطيهم. وعرضوا علينا وتملؤهم مشاعر الفخر، جمال سيوفهم وحدة

نصالها. وخفة رماحهم وهم يقصون علينا قصص بطولاتهم السابقة ورغبتهم العارمة في ان يسجلوا بطولات جديدة.

وبعد ان فحصوا سيفي، طلبوا رؤية مسدساتي واعجبتهم جداً فنية الصناعة رغم بساطتها. انني ارى ان سبب قوة وقدرة تلك القوات، هو تلك الشجاعة التي تجعلهم يتحملون جميع انواع المتاعب وصنوف الحرمان وليس فقط كمال ودقة اسلحتهم بل ايضاً تلك القدرة والصبر وهدوء خيولهم. ونستطيع القول دون مبالغة انها كانت اجمل ما راينا من خيول كما كانت جمالهم العديدة تملأ المكان كله. والذي يمكن لانظارنا ان تحتويه.

وبعد الظهر، اتيحت لي فرصة الاقتناع بحسن الضيافة والذي يوضحه ذلك الاهتمام الكبير واللطف واللياقة في التعامل، وهي صورة واضحة رائعة تدلل على اعراف وعادات اولئك البدو الرحل في تعاملهم مع الاجنبي الذي يكون في ضيافتهم. وقد تجرأت قليلاً وابديت رغبتي في الحصول على بعض الحليب. ولم يكن لديهم ذلك في مرابعهم. فبعثوا برجل وثاني وثالث في عدة اتجاهات بحثاً عن الحليب. وليس الحليب فقط، بل ان الماء كذلك نادر وفي حالة مزرية. ومرت ساعتان ولم يعد احد منهم، فطلبت آنذاك بضع قطرات من الماء. وفي ذات الوقت وصل بعض الرجال في غاية التعب، حيث كان بعض العرب قد رحلوا من تلقاء انفسهم بحثاً عن الحليب، بل انهم قطعوا العديد من الاميال للحصول عليه. ان صورة الكرم تلك تجدها فقط في اعماق الجزيرة العربية. ووسط صحاريها ولدى تلك القبائل الفقيرة المتخلفة حيث وجدتني محوراً لاهتمام مثير للحرج. ولم تكن دوافعهم مطلقاً الحصول على جزاء مقابل ذلك الكرم. لا، انه شعور اكثر نبلاً، واكثر كرماً يحرك البدوي للقيام بواجبات الضيافة على افضل ماتكون عليه تلك الاعراف.

وفي المساء، لاحظت بعض التوتر بين التركي والرسول الذي رافقنا منذ مغادرتنا واسط. وواقع الامر انه قد جاءني خادمي في صبيحة اليوم التالي ليقول لي انه من المستحيل ان نغادر لان التركي قد اشتبك في عراك شديد مع المراسل الذي رافقنا بخصوص المبلغ الذي طلبه المراسل مقابل خدماته. وقد شعرت آنذاك بالحنق والخجل. وبعيداً عن المبلغ الذي وعدته به فان التركي قد حصل مقدماً على المال الضروري لتغطية مصاريف الطريق. وقد قدّم تلك المصاريف ثلاثة اشخاص مختلفين: انا والمتصرف والمقيم الانجليزي. والان يتسبب في حدوث تأخير جديد للرحلة عندما يرفض دفع المال لادلاء آخرين. استدعيته في الحال، واخبرته انني في امان تام في المخيم اكثر مما يشعر به وهو التركي، الذي ما فتئ يثير الكثيرين، بل انني قلت له اذا ما لم يكن كل شئ مُعداً للرحيل خلال ساعة، فلسوف ادفع الضعف للدليل واستمر انا في الرحلة واتركه ورائي لحاله يتصرف كيفما يشاء، كما انني لن ادفع له المكافأة التي وعدته بها. وكان المسكين يردد له لن يتحرك حتى ولو ضُرب بقضيب الحديد. ولكنه عندما وجد انني اتحدث في لهجة صارمة وتصميم واضح تراجع وانصاع للامر. وبعد ربع ساعة فقط جاءني ليخبرني انه قد اتم جميع الترتيبات لرحيلنا في الحال. ورحلنا في الحال.

ولم نكد نقطع بعض الطريق، حتى التقينا بطلائع جيش الشيخ حمود. وعندما رأوا رسولهم بيننا، تيقنوا اننا اصدقاء ولكنهم كانوا يتوجهون نحونا ورماحهم ممدودة في حالة الاستعداد للالتحام. لقد كان تقدمهم على هذا النحو مُجرد طُرفة لم استطع استساغتها. وذلك لانهم ارادوا ان يظهروا لنا مهارتهم، لمسوا ملابسي برماحهم وسيوفهم لدرجة انني شعرت ببعض الخوف. وكان يتوجب على ان اتخذ موقفاً، وتقبلت تحيتهم، وانا ابتسم، في كل لحظة كانوا يقتربون فيها مني وهم يلوحون

برماحهم وسيوفهم من فوق رأسي. ولكننا استطعنا ان نتفاداهم ونتجنبهم ونحن نتوجه يميناً بالتدريج، ولكننا شاهدناهم ولاكثر من ساعة وهم يبتعدون عنا.

وكان عدم الانتظام هو الصفة التي يمكننا ان نعبر بها عن نظام مسيرتهم اذا ما استطعت استخدام ذلك التعبير. ولم يكن هناك مايُعوق مسيرتهم تلك، فلاتوجد طرقات، ولا انهار ولا مساحات مزروعة. حتى انه لاتوجد ارتال مدفعية او اي نوع من الامتعة، سوى ماكانوا يحملونه خلف ظهورهم على الخيول او الجمال. ومع ذلك فقد كانوا يسيرون في ارتباك وفوضى ظاهرة من الصعب استيعابها، مما يدفع للاعتقاد ان كل قبيلة كانت تنتظم حول راية شيخها عندما نرى ان الجيش كله ينقسم الى كتل غير منتظمة. وسرنا صعوداً في طريقنا واستطعنا آنذاك ان نرى جيداً ان تلك الجموع تختلط ببعضها ثم تنفصل، وتعود من جديد كما يبدو اذا ماشاء لها القدر ذلك. والرؤساء، وهم قليلوا العدد كانوا يمتطون خيولاً اصيلة وافضل من الآخرين. وهم كبار السن وذوو الخبرة والامكانية المعروفة، كما انهم موضع احترام وتقدير خاصين، وهم يسيرون تتقدمهم اعلامهم التي تدلل ان شخصيات مرموقة توجد بين هذه الجموع. ومنعني من تقييم عددهم بشكل واضح، عدم انتظام صفوفهم هذا وارتباكهم ولكنني اميل للقول بانه لايوجد اقل من سبعة الى ثمانية آلاف محارب. بل ويمكن لقبيلة المنتفك وحدها ان تجند مايقارب الاثني عشر الف رجل. وكما يبدو انهم يجب تجمعهم جميعاً كما انه من المحتمل ان بعض الحلفاء قد ارسلوا جيوشهم لتنضم لذلك الجيش. وعلمت ولاول مرة، ومن هذه القوات، تفاصيل اول انتصاراتهم والذي انتزعوها، تحت اسوار بغداد. ولانه قد سنحت لي الفرصة ان اتحدث عن ذلك الموضوع فيما بعد فسأتوقف هنا عند القول بان هذا النجاح الاول للهدف الذي دافعوا عنه قد زاد من اندفاعهم وحماسهم بل وملاهم ثقة تامة بالنفس.

لقد قضينا سبع ساعات في الطريق حتى صارت الخامسة، عندما رأيت التركي يجتمع خلسة مع دليلنا ورايتهما يتركان الطريق الذي نسلكه ليقودنا الى العاصمة، واستدارا عائدين نحو الجنوب. وسألتهما عن السبب فأجابني بانه من المناسب ان نزور الشيخ حمود حيث كان يحمل دليلي رسائل هامة موجهة اليه. ويبدو ان الشيخ كان قد مر بنا دون ان نراه، وانه يجب علينا العودة. ولم يكن معروفاً عني انني صبور، فقد فقدت صبري تماماً، وكان الاتفاق مع الدليل، هو ان نذهب مباشرة الى العاصمة مقابل ثلاثين قرشاً، وها هو يريد ان نعود ادراجنا لنقطع ثلاثين ميلاً زيادة، وهو مايعمل على تأخيرنا يوماً اخراً. واعتقدت ان الرجلين يبديان بعض الذكاء واتخذت موقفي في الحال. واعلنت لهما انني لن اخطو خطوة واحدة للوراء، وانني اعرف جيداً الاتجاه العام للطريق واستطيع وحدى اكمال الطريق الى بغداد. وطلبت من خادمي ان يرافقني ان اراد ذلك، ولاننا لانستطيع الاستغناء عن دليل، ولسوف نتعرض للهجوم دون شك. وعندما رأيته متردداً، طلبت منه ارجاع المسدسين اللذين اعطيتهما اياه ورحلت وحيداً.

ولم يتأخر التركي في اللحاق بي، وبلغت به الوقاحة ان سحب لجام حصاني. ولكنه عندما رأى مسدسي موجهاً لصدره. ابتعد وهو يُمطرني بالشتائم، قائلاً بانني سوف اعاقب على تهوري. وواصلت طريقي دون ان اعير اهتماماً لتهديداته، وذلك على الرغم –واقول الحق– انني كنت قلقاً حول نتائج حيلتي. واخيراً، رأيت خادمي يلحق بي ليقول لي ان التركي وحده هو المسؤول وان رحلتنا لاتحتمل التأخير بل لايوجد ما يُعيقها. ثم جاء التركي والدليل وهما يوجهان لي الاعتذارات، بل انني اعترف انهما عادا وعلى سيماهم علامات الحُبور. وبقيت لوحدى ساعة كاملة، ورأيت ان التركي الغريب الاطوار قد خضع تماماً، وذلك حتى لايفقد المكافأة

الموعودة. ولكنه اخذ وقتاً طويلاً ليقتنع وليقرر البقاء معنا، واقول الحق، ان تلك الساعة كانت من اكثر الساعات قلقاً قضيتها حتى الان.

وعند الحادية عشرة مساء، وصلنا مرابع خيام عربية حيث استقبلونا بالترحاب وحسن الضيافة المعروفين لدى البدو جميعاً. ولم تكن تلك القبيلة فقيرة حسبما رأينا داخل الخيمة. وكانت علاقاتهم ضعيفة مع غيرهم من القبائل.

وكان الشيخ مرتاحاً عندما قدمت له بعض التبغ، حث قال لنا: ((انه منذ اسبوع لم يستخدم غليونه)). ورغم ان ذلك ليس مناسباً. فقد قال بنوع من الرقة –ان نطلب معروفاً من الغرباء الذين يقبلون بضيافتنا، وقد اعرب بذلك عن شعوره بالامتنان.

وفي الساعة السابعة صباحاً، في الثاني من فبراير، استأنفنا الرحلة. وقد اخبرنا الشيخ "شوق Choke"، مضيفنا بالامس، باننا لن نرى احداً على الطريق بسبب مرور الجيش وابتعاد جميع القبائل الصغيرة من الطريق. وفي الحقيقة لم نر ولاخيمة صغيرة واحدة، ولا اي مسافر ووجدنا انفسنا مضطرين الى البقاء في الهواء الطلق، لكي نعد القهوة ونترك خيولنا ترتاح قليلاً. وانطلقنا بعد ساعتين في رحلتنا. ولكن مع حلول التاسعة والنصف اصبح الهواء بارداً جداً وقال دليلنا انه من المستحيل الذهاب الى ابعد من ذلك. اما التوقف لتفادي البرد كان بالنسبة لي الجنون بعينه. ولكنني فيما بعد ايقنت العكس تماماً على غير المعتاد. وانغرست في الرمال التي جمعتها الرياح وكنت آنذاك في حال افضل حتى انني نمت وقد غلبني النعاس ولكنني ظللت ممسكاً بلجام حصاني. وصحوت في الواحدة صباحاً منهكاً وكان من الصعب على ان اقف بسبب الرمال من حولي، ناديت رفاقي واستطعت اقناعهم بالرحيل في الحال. ولكنني في هذه المرة قررت ان استجيب لتوجيهاتهم ولانه بعد

ان قاسينا من البرد لساعتين اضطررنا للنوم من جديد. وقال لنا الدليل اننا امام الحلة وانه يمكننا ان نضل الطريق اذا ما اصرينا على الرحيل في هذه الظُلمة. وقبل الفجر تماماً، اعلمنا دليلنا العربي الكهل وهو يمتطي حصانه، اننا نقترب من اطلال بابل، وهو مكان يزوره السياح غالباً. ولاحظت ان بعض الشكوك تنتابه بخصوصي ولكن الوقت لم يحُن بعد لكي اكشف له عن حقيقتي. وقد بدأ النهار يبزغ، ولكن الجو ظل مظلماً بسبب الغبار الاحمر الكثيف الذي اثارته ريح الشمال. وكان حقيقة، وانه من الصعب التشكك بذلك، ان ذلك السهل الذي قطعناه كان موقعاً لمبان منتشرة جداً واقيمت في ازمان بعيدة جداً في الماضي وذلك لاننا لم نشاهد بعد و كما قال لنا دليلنا سوى اراضي غير مستوية، وفي مكان صغير ضيق جداً وعلى قمة تلة بعض الاحجار وقرميد احمر كشفت عنهم الامطار جزئياً. ولكن ونحن نتقدم شعرت ببعض القناعة تغزو فكري وانتهيت بانه لم يعد لدي شك في تلك الاثار.

وقد احتفظت بالفصل التالي للحديث عن ذلك الموضوع الهام. وانني اعترف بصراحة، وهو اعتراف لايُقدم عليه الكثيرون من المسافرين الاقرار به، اعترف بانني لم استطع دراسة تلك الاطلال الشهيرة بكل الاهتمام الذي تستحقه والذي اردت فعلاً ان ادرسه. ولكنني ومنذ غادرت، وابتعدت قليلاً في الطريق الذي قطعناه ازعجني جداً رفاق الرحلة وخاصة خادمي الذي كان يتصور في كل خطوة انه رأى اعرابياً او قاطع طريق. ولكنني وعند وصولي بغداد، اسعدني جداً الحصول على المعلومات الكافية الصحيحة التي كنت اريد، والتي بفضلها على وجه الخصوص سأحاول الحديث عن ذلك الموضوع الذي لن استطيع الخوض فيه بدونها.

الفصل السابع

اطلال بابل، اللقاء مع احدى القوافل، سرقة احد الادلاء، قنوات قديمة، اطلال سلوقياSeleucie وطيسفون Ctesiphon،
رعب بلا داع، الوصول الى بغداد

***

لم يتبق من مواقع تلك المدن الشهيرة التي اندثرت منذ زمن بعيد، والتي تعرفنا عليها سوى الاسم كما يراها الدارس السطحي، ذلك الرجل الذي يربط الحكم الرصين بسعة العلم، بل ويبحدث طبعاً في وصل ذكريات التأريخ ببقايا اطلال قليلة ولايمكن مع ذلك معارضته. وتلك كانت طريقة اتبعها الضابط "رينيل Rennel" الجغرافي الشهير الذي تحدث عن هوية تلك الاطلال ولااستطيع ان انقلها تماماً. وقد لخص تلك الهوية هكذا: اولاً: استناداً على كتابات الشرقيين. ثانياً: استناداً على ملاحظات الكتاب القدماء كما هيرودوت، وديودور و سترابون و كنتيكورس وغيرهم. والتي تتفق مع الاراء والموروث الشرقي القديم، وثالثاً: على التقريب بين تلك المعلومات القديمة وآراء الرحالة المحدثين حول تلك الاطلال. وبعد حصولنا على تلك الدراسات العلمية حول هذا الموضوع المثير، فلم يتبق للرحلة الا ان يضيف شهادته الخاصة استناداً على البراهين التي تُقرر وجود الاطلال التي تتلاءم وتلك المساحة الممتدة من الارض المعروفة ببابل. ونعرف انه غالباً ما اختلط موقع تلك المدينة الشهيرة بموقع مدينة سلوقيا وطيسفون وحتى بغداد. ولكنني اهنئ نفس بحصولي على فرصة كتلك التي حصل عليها السيد "ريج Rich" وغيره من الرحالة المحدثين لدراسة بقاء تلك الاثار المُميزة

التي تشير بشكل واف للمواقع الخاصة لتلك المدن الثلاث الكبيرة التي دمرتها يد الزمن. بابل، وسلوقيا وطيسفون اندثرت كلها وبقيت بغداد. ما الذي بقى من بابل في الوقت الحاضر؟ تلك المدينة التي كانت عاصمة كلدونيا والتي اسسها نمرود او تبليوس وعمل "نينوس Ninus" على توسيعها وعملت على تجميلها سمير اميس*، اما الذي بقى منها، بقى الاسم وكتابات هؤلاء العلماء التي تتحدث عن المآثر والعجائب التي لم يبق لها اثر ولكن خلدها هؤلاء. ونحن نبتعد من مرحلة لاخرى في سيرنا نرى مرتفعاً ارضياً اشبه بقبر كبير.. يا الهي، ذلك القبر الكبير الذي يضم رُفات ملكة الامم تلك، بمجدها وعظمتها وعجائبها؟ واكتشفنا في تلك المناطق الممتدة العديدة اطلالاً تتحدث عن ثروة ونشاط سكان دول اندثرت تماماً. ولكن من المؤكد ان موقعها وامتدادها ونوعية ادواتها تتوافق والمعلومات التي يقدمها التأريخ لكي نستطيع التحدث عن هوية. ولنلق نظرة سريعة اذن على تأريخ اصول تلك المدينة الشهيرة ونحن نتحدث عن مجدها وشهرتها بل وعن انهيارها المتواصل المتزايد. وامام تأريخ بداياتها وصولاً الى الفرضيات التي يقدمها الانسان[٦]، فقد كان مُقدراً لها ان تكون موضوعاً واضحاً صارخاً للانتقام الالهى وتحقيق النبوءات التي لامفر منها، فقد تنبأ لها "أشعيا Ishaie" بالسقوط وبالدمار الشامل[٧]. لقد كانت تفخر آنذاك بابوابها المائة المصنوعة من النحاس والتي تدور حول محاور نحاسية. واسوارها مغطاة بالملاط والقير المعدني. وتحضن تلك الاسوار ثلاثمائة وثمانية وستين ملعباً او

---

* آشورية وليست بابلية. [المترجمة]

6 Gen, Chap. XI, Vers H., etils Girent: “Batissons une cite`et uue tour don’t le somuet touché au ciel,l et faiscnsnous ua now”.

7 Isaie, chap. XIII, XIV, XXI, XLIII, XLIV, XLV, XlXi, XLVII, Jeremie, chap. XXV, L, LI.

مساحة تبلغ ستة واربعين ميلاً. ويبلغ سمك جدرانها اثنان وثلاثون قدماً وارتفاعها خمسة وسبعون قدماً. وتُدافع عنها ابراج ترتفع فوق الاسوار الى ارتفاع اثنى عشر قدماً. وداخل الاسوار يوجد معبد خُصص لـ "بيلوس Be`lus" يرتفع وسطه برج يبلغ ارتفاعه ستمائة وثمانون قدماً شُيد على مساحة ربع ميل. وجنائنها الفخمة المعلقة، احدى عجائب الدنيا.

وهناك وسط كل ذلك، شُيد قصر كبير على مساحة ميلين ونصف الميل، تدافع عنه ابراج ارتفاعها مائة وعشرة اقدام. وتراه يرتفع في عظمة بين قصور عديدة لاحصر لها تزين المدينة. ويوجد جسر حجري طوله ستمائة وثمانون قدماً وعرضه ثلاثون ليعبر الفرات. وتحيط شطان النهر ارصفة رائعة، الى جانب وجود كهوف كبيرة فسيحة تستخدم لاستقبال وتخزين فائض المياه ولتكون عبر الازمنة مخازن لاينفذ مياهها للزراعة وللعلاقات التجارية لتلك المدينة عملت على تسهيل الاتصالات بالخليج الفارسي. فقد كان النهر صالحاً للملاحة، تبحر فيه سفن كبيرة تبحر من ميناء لاباس به ويستقبل بواسطة قناة تتصل بدجلة[8]، نتاجات جميع البلدان الواقعة الى الشمال حتى جسر (اوكسين) وبحر قزوين.

ذلك كان هو الوصف الاعتيادي الذي قدمه لنا الكتاب القدماء وتعليقات الكتاب المحدثين على تلك الكتابات، والذين جعل الجميع منهم تلك المدينة الكبيرة الشهيرة فخراً لكل الممالك. وتلك كانت بابل في

---

[8] انجزت تشييد ذلك القناة "سمير اميس" وعملت على تحسين الملاحة فيها وفي نهر الفرات والتي كانت تملك كما يقال اسطول قوامه ثلاثة الاف سفينة وتم اصلاحه وتحسينه في عهد نبوختنصر، وكان يسمى نهر الملكة. ورغم انه الان قد جف تقريباً الا انه كان مفيداً ولازال للزراعة حتى في عصر الخلافة في بغداد. ويستطيع العلماء العودة الى كتابات هيرودوت، الجزء الاول، ص١٩٤، والجزء الاول، ص١٨٤، وكذلك سترابون، الكتاب الرابع عشر او العودة كذلك الى كتابات "هُويت"، تأريخ التجارة، الفصل الحادي عشر.

عصور مجدها وازدهارها. فما الذي بقى اليوم ليذكرنا بوجودها وليقدم لنا الموقع الذي كانت تحتله. لاشئ! سوى تحقيق النبوءات التي تنبأت بافول ذلك المجد وانهيارها التام، مما يدفعنا لقبول تلك الاطلال القليلة المتطورة بالكاد كما هوية جديدة للمكان.

ما الذي حدث لمسرح الاحداث ذلك حيث كانت التجارة وتطورها المحفز لجميع النشاطات التي دارت فوقه، وحيث ساد الطموح والترف والمسرات والفسق والفجور وجميع العواطف التي ترفع من شأن الانسانية او تنزل بها الى الحضيض. ماهو مصير تلك الجموع التي كانت تملأ الشوارع العديدة قديماً؟ تلك الجموع التي انغمست في الملذات بلهفة لاتشبع والذين وصفهم "كنت كورس" بأنهم الجنس الاكثر فساداً والاكثر فجوراً الذي عاش على هذه الارض[9] ماهو مصير اولئك الاباء عديمي الحياء الذين يقدمون بناتهم لممارسة الدعارة؟ او هؤلاء الازواج الذين يشجعون نساءهم على خيانة الحياة الزوجية والاتجار بشرفهم. وهؤلاء النساء من الطبقات الراقية والاصول الرفيعة واللاتي يقمن بكل انواع الفسوق والفجور، وبعد ان تلعب الخمر برؤوسهن وتسكرهن العواطف يستعرضن انفسهن عرايا امام نظرات الجمهور؟ كل ذلك قد انقرض واندثر الان! ولان ذلك مكتوب: و(بابل) مجد الممالك وثمرة ابداع الكلدانيين لقيت نفس مصير (سادوم) و(عامورية) عندما قلبت كلمة الاله

---

[9] Quinte-Curce; liv-5- "Nihil urbis ejus corruptius moribus, nee ad irritandas illiciendasque immodicas voluptates instructius. – Liberos tonjugesque cum hospitibus stupor coire, modo pertium flagitii detur, parentes maritique patiumtur. – Convivales Ludi tota Perside regibus purpuratisque cordi sunt. Babylonii maxime`in vinum et quae ebrietatem sequunture, effuse sun. -Faeminarum convivia ineurtiun in principio modestus est habitus: dein summu quecque amicula exuunt, paulatimque pudorem profanant. – Ad ullimum (bonos auribus sit) ima corporum velamenta projiciumt. Nec meretricum hoc dedecus est, sed matronarum, virumque, apud quos comitas habetur vulgati copoiris vilitas."

حياتها. لم يعد يسكنها احد ولاجيال عديدة، ولم يعد يأتي الاعراب لينصبوا ولو خيمة واحدة، بل ولايتوقف فيها الرعاة مطلقاً لرعي اغنامهم[١٠]. واذ نحن قد آمنا كما نفعل دوماً بالروح الالهية، فلن يدهشنا ابداً انه لم يتبق اي اثر خارجي متطور من تلك المدينة الكبيرة الشهيرة، واننا يجب ان نُعجب بذلك الانجاز الصارم للكلمة. كُلُ ما كان قد كُتب تحقق وبامتياز. ولرّبما وجدنا اثراً صغيراً اذا ما كشفنا فقط تلك المرتفعات الارضية يمكن ان يذكرنا باسوارها العالية ومعابدها المدنسة وقصورها الفخمة.

ومنذ عصور موغلة في القدم[١١]، كانت اعمال البناء في الشرق تستخدم الطابوق النئ والطين والصلصال ويخلطونها بالقش والخيزران لاعطاء الخليط بعض الصلابة. ويتم تجفيفها تحت اشعة الشمس. وقد تم تشييد اسوار بابل وغيرها من المباني العامة باستخدام الطابوق النئ او الطابوق والملاط الاسمنتي. ومن السهل اذن معرفة كيف تتأثر مواد من هذا النوع بعوامل الزمن والتعرية والامطار. وقبل ان نبدأ بوصف تلك الاطلال التي نستخرج وجودها من مذكرات السيد "ريچ" المقيم الانجليزي في بغداد[١٢] سيكون من المفيد لنا القيام بدراسة تلك الاطلال او

[10] Esate, chap. XIII, vers. 19-22.

[11] De`s le temps de la captivite` d`Egypte nous voyons pharaon dire a ses officiers: “Nous neleur donnerons plus de paille pour faire des briques, comme nous l`avans fait jusqu`ici. Qu`ils aillent ramasser de la paille pour eux”.

[12] Ce memoire parut originairement dans un joural intitule`: *Mines de l`Orient*. J`eus l`avantage de coinsulter Poriginal et de jouir de la converation de l`anteeur pendant jouissait se`jour a Bagdad. Personae ne pouvait se livrer `a ces recherches avec plus d`espoir de success que M. Rich, car sans parler de ses canaissances profondes sa place et la consideration dont il jouissait aupre`s du gouvernement du Pacha lui offlraient toutes les facilites qu`il pouvait de`sirer.

تلك البقايا التي مازالت موجودة من مدينة بابل والتي تتكوم في ذلك المرتفع الارضي الذي تكون من تحلل تلك الابنية التي دمرها الزمن والتي مازالت توجد على سطحها بعض قطع الطابوق والقير والاواني الفخارية. انها البقايا التي يمكن رؤيتها كما ان وفرة تلك المواد تبرهن بمافيه الكفاية ان هذا الموقع الصحراوي كان موقعاً لمدينة كبيرة شهيرة.

وتبدأ الاطلال على الشاطئ الشرقي للنهر، على بعد ميلين فوق الحلة وتغطي منطقة مستطيلة الشكل وغير متساوية مساحتها ميلين ونصف الميل وحتى الى الثلاثة[١٣] والكومتين الاولين المستطيلتين المتجاورتين تقعان الى الشمال والجنوب الواحدة مقابل الاخرى، وتقدم خطا محدوداً نحو اليمين، واذا ما صعدت الى اليسار وبالقرب من النهر يوجد شاطئ اكثر ارتفاعاً مكوناً حداً فاصلاً واضحاً ومحدوداً. ويميز السيد "ريج" الكتلة الكبيرة الاولى باسم عمران وذلك احتراماً لمعلومة تركية مثيرة للسخرية اطلقت عليه تلك التسمية. ويقدر طول تلك الكتلة من الانقاض بالف ومائة ياردة، وعرضها ثمانمائة ياردة، وارتفاع اكبر كومة منها بحوالي ستين قدماً فوق سطح السهل. ويقول انها تحوي القليل من ذلك الطابوق المفخور في الافران والذي كان يُستخدم عادة لتشييد المباني الكبيرة. ((واذ نحن نتقدم نحو الشمال، اضاف قائلاً، نلتقي بكتلة الانقاض الكبيرة الثانية وهي على

[13] M. Rich donne deux milles et 600 yarda (a) de largeur, et environ 600 yards de plus de longueur, a l`espace que les ruines se trouvent en ge`ne`ral occupier. En supposant, ce qui n`est pas improbable, que la riviere a usarpe` sur les terres, cet espace oblong deviendrait preaque un carre` parfait, et occuperait une etendue de dix milles 1, 28 yards, ou bien pres de oaze milles; ce qui a huit stades le mille, correspondrait aux quatre-viogt-dix stades auxquelles on estime ordinairement la ejrconference de l`espace interieur qui etait occupe pasr dea batimens, suivant la description de Quinte-Curcew, Liv. 5; ectte conuncidence parait remarquable.

(a) Le yard vant trios piods anglais (9.5 millimeters).

شكل مربع تقريباً ضلعه سبعمائة ياردة. وترتبط زاويته الجنوبية الشرقية بالزاوية الشمالية الشرقية للكتلة المعروفة باسم عمران وبارتفاع واضح عرضه مائة ياردة تقريباً)).

انه المكان الذي تحدث عنه الكثيرون ، ويتفق الجميع انه المكان الاكثر اثارة في اطلال بابل، حيث تدلل جميع الاثار التي وجدت فيه على انه كانت توجد مبان فخمة عالية جداً، بل واعلى من تلك التي بقيت اثارها في المنطقة الشرقية، حيث الطابوق من اجمل الانواع. ورغم انه قد تم سحب الكثير منه، وما يتم سحبه منه يومياً فمازالت هناك كميات هائلة منه. وتعمل عملية سحب الطابوق بدورها على زيادة صعوبة عملية التعرف على توجه وشكل تلك المباني الاصلية. ولانه اذا اردنا التعرف على ذلك، سترى العمال يضربون في كل الاتجاهات ويحفرون في العمق ثم يرمون الانقاض على السطح. وفي بعض الاماكن ولكي يصلوا الى الاساس كانوا يفتحون فتحات كبيرة وممرات جوفية وينتهي كل ذلك باحتواء العمال ودفنهم تحت الانقاض لعدم وجود دعائم لتلك الفتحات.

وفي جميع هذه التنقيبات نرى جدراناً من الطابوق المخفور والمغطى بالجير والاسمنت. والى جانب المواد المنتشرة بشكل عام على قمة تلك الاكوام المرتفعة، نجد في حناياها قطعاً وبقايا اواني مرمرية وفخارية غاية في الجمال. وعدد اخر مصنوع من الرخام وكذلك كمية كبيرة من الفخاريات المتكسرة المطلية والتي مازالت الوانها حيوية بشكل عجيب.

وفي احدى الحفر في الجانب الجنوبي وجد السيد "ريج" جرة جنائزية من الفخار كانت قد كسرت اثناء الحفر، كما وجد الى جانبها عظام انسان تتفتت عند اللمس. واكتشف كذلك صنما من الجرانيت مرتفعاً جداً يمثل اسداً وسط فمه فتحة مستديرة تتسع لقبضة اليد.

وعلى بعد خطوات من حفريات يقوم بها العمال، بحثاً عن الطابوق وجدوا شيئاً يستحق فعلاً الاهتمام، ويسميه اهل البلد بالقصر. وكانت التنقيبات على بعد مائة ياردة تقريباً الى الشمال من الانقاض التي وصفناها سابقاً. ويوجد حائط متكامل تقريباً يحمل طابوقه نقوشاً مما يجعل من ذلك الموقع مكاناً مثيراً للاهتمام. انه بقايا اثار سرداب تعلوه قنطرة من الطابوق المغطى بالقير في حين نجد امثاله في ابنية اخرى مغطى بالاسمنت. ومازلنا نرى في القصر كذلك بقايا جدران وبعض الممرات مشيدة باجمل الطابوق المفخور ومحاطة بالاسمنت والجير القوي المتماسك جداً، لدرجة ان العمال اوقفوا العمل فيها بسبب صلابته الشديدة التي تمنع استخراج الطابوق سليماً.

اما الاطلال المقلوبة، والتي يشبهها "دولاڤال De Lavalle"، بالبرج الشهير في بيلوس وهو اعلى بل انه اخر بناء مرتفع من المباني التي تكومت هنا في تلك الكتل والاكوام الاساسية.التي يمر بها الرحالة مرور الكرام. ويتحدث عنها السيد "ريچ" بقوله: ((انها كتلة مستطيلة غير مستوية في ارتفاعها. وغير منتظمة في طول جوانبها التي تواجه الجهات الاربع)). ويصل طول الجانب الى الشمال مائتي ياردة، والجانب الى الجنوب مائتين وتسع عشرة ياردة. والجانب الشرقي مائة واثنتان وثمانين ياردة، وتلك الى الغرب تبلغ مائة وست وثلاثين ياردة. ويبلغ ارتفاع الزاوية الجنوبية– الشرقية وهي الاعلى، مائة واحدى واربعين ياردة. وواجهة الجانب الغربي هي الاوطأ والاقل طولاً ولكنها مثيرة للاهتمام وذلك بسبب الاطلال التي تحتويها. ونرى فيها جداراً واطئاً مقطعاً في عدة جوانب ومشيداً بالطابوق النيئ المغطى بالملاط الطينى وذا سمك كبير. وهو مكون من طبقات تخللها طبقة من القصب بين كل طبقة. اما الزاوية الجنوبية الغربية يعلوها نوع من الابراج او مجرد سراج

على شكل مصباح. اما باقي الزوايا فلم يحفظها الزمن تماماً ولكنها كان يمكن ان تكون في الاصل قد زينت بنفس طريقة الزوايا الاخرى. وقد حفرت الامطار في كل مكان اخاديد عميقة. اما القمة فمغطاة بالانقاض وفي وسطها وجدنا ونحن نحفر طبقات من قطع الطابوق المحفور المغطى بالملاط ومن بينها طابوقاً متكاملاً يحمل نقوشاً. والكل مغطى بطبقات من كسور لاتحصى من الاواني الفخارية، وقطع القرميد والزلط وقطع الطابوق المزجج او تراب المعادن وقطعاً من الزجاج وحتى عروق اللؤلؤ.

ولم نعد نتابع كثيراً تحركات السيد ريج في ابحاثه الدقيقة، وملاحظاته العلمية التي يمكنها ان تفقد الكثير من قيمتها اذا ما انتزعت من الاطار الذي وضعها فيه. لقد قدمنا وصفاً لبابل وهي في اوج مجدها، ولكننا لم نعد نرى سوى اكوام من الركام وحتى بعض الاطلال المتفرقة التي لايكاد يلاحظها المرء. ولكن اهم مايجب ملاحظته في قصة افول وسقوط بابل، انه وبعيداً عن كل تلك الاسباب الطبيعية التي تسبق انهيار الامبراطوريات وتدميرها التام، انه قد تم التنبؤ بماحدث لها بشكل واضح وصريح تماماً وهو مسجل بدقة في الكتابات المقدسة.

لقد تم تحديد صفات مليكه في تلك الكتابات، غروره وقسوته وكُفره ودنسه، ثم التوقيت وطريقة اداة السقوط او سبب الانهيار. وكانت قمة مجد بابل في عهد نبوخذ نصر، ذلك الطاغية المغرور الذي قهر سوريا وفلسطين واورشليم ومصر، ويضاف الى ذلك القصة الحزينة للغضب الالهي، وقورش اداة الاله الذي غزا بابل وغير مجرى الفرات وحطم الدفاعات وقضى على الامبراطورية الاشورية الثانية، التي كانت بابل عاصمتها وفخرها. ومنذ ذلك العصر اصبح ملوك فارس يفضلون مدناً كـ(همدان Ecbatan)، و(برسيبولس Perceplis) واهملوا بابل تماماً ونهائياً. (١٥٣) وفي القرن الاول الميلادي لم تعد بابل سوى مدينة من

الدرجة الثانية او المكان الذي يحدد تأريخ رسالة "القديس بيير Saint Pierre" الطويلة ومحل اقامة كبير قساوسة اليهود[14]، (جرجان Hyrcan). اما في الوقت الحاضر فقد اصبح المكان مخبأً للحيوانات المتوحشة، بل نقطة في الصحراء.

بعد ذلك الاستطراد الذي دفعني اليه ذلك الموضوع المثير، وليس اهميته، او قيمة ملاحظاتنا الخاصة، يجب ان نسرع لاستئناف مايخص رحلتنا.

وبعد ان تناولنا بعض القهوة في ظل واحدة من هذه الاكوام الصغيرة وحيث يمكننا رؤية ماوراء الاكوام، على بعد قليل، للاكوام الكبيرة الرئيسية للاطلال التي وصفناها آنفاً. واستأنفنا رحلتنا في الثالث من فبراير في الثامنة صباحاً. وكانت الرياح الشمالية الغربية شديدة جداً طوال الليل واثارت غيوماً من الاتربة ولم تتبدد رغم هدوء العاصفة. وفي الحادية عشرة كان الضباب الكثيف ولم يسمح لنا باعتقاد ان الشمس تميل نحو ظهر اليوم، اذ كانت مختفية تماماً وراء السحابات الرصاصية من الغبار الذي يلفنا جميعاً. اما النهار الذي ننتزعه من اشعّتها المتقطعة والتي تشبه خسوفاً كاملاً لذلك النجم الذي يرسله ظهر احد ايام الشهور الاكثر حرارة. ولانستطيع ان نرى على بعد اكثر من ثلاثين خطوة منا، ويقول لنا دليلنا دائماً انه لايدري في اي اتجاه يمكنه ان يسير؟ بل اضاف بان تلك الظلمة جيدة بالنسبة لنا لاننا في الوقت الحاضر نسير وسط قبائل عدوة وانه من الصعب ربما ان نمر فيما بينها.

وفي الواقع حدث ان سمعنا جلبة، وتبين لنا انها لقطعان عديدة من الجمال التي تمر بجوارنا ولكننا لم نستطع تمييز الحيوانات او هوية الاعراب الذين يمتطونها. اما خادمي فكان في حالة انذار متواصل، بل

---

[14] Joseph, Antiquit., Liv. Xv, c. 2.

واكد لي مرتين او ثلاث ان خيوله السوداء عند خروجنا من البصرة ستصبح رمادية عند وصولنا الى بغداد. وحتى التركي، قد بدأ يتفهم في هذه المرة مدى الاخطار التي تحيق بنا في كل خطوة. وفجأة، وفي اللحظة التي كنا ننتظر فيها اقل الاخطار، وجدنا انفسنا وسط قطيع من العديد من الابل التي تملأ الطريق. ولكن وقت تراجعنا للخلف كان قد فات آنذاك. وكنا جميعاً قلقين ولكننا اكتشفنا لحسن الحظ انها كانت قافلة متوجهة الى بغداد. وتم اصطحاب التركي امام كبار التجار وكان يعرف الكثيرين منهم وقد ظهر بينهم في افضل حالاته. وانا اتخذت موقعاً جانبياً لحين عودتي. ولكن، رايت رسول الشيخ حمود وقد قبضوا عليه وانقضوا عليه يريدون قتله مع محاولة خادمي والتركي ابعادهم عنه. ولم استطع ان اتحمل رؤية دليلنا الامين ان يَضحى به امام عينى، فاسرعت نحوهم حتى اخلصه من بين ايديهم. ولكنهم دفعوني بشراسة حتى اندفع التركي يقول انني انجليزى، مما اعاد الى ثقتي، واستطعت ان اظهر على حقيقتي امام اهم كبار تجار القافلة الذين قاموا بانهاء المشكلة.

وعلمت فيما بعد ان قبيلة المنتفك قد هاجمت القافلة وعندما رأوا دليلنا رسول الشيخ معنا، ارادوا ان ينزلوا به انتقامهم. وفي هذه الاجواء الشبه بربرية، اهم شئ لديهم هو اقرار العدالة. ولكنهم مع ذلك وفي هذه الحالة قد قرروا اخلاء سبيل ضحيتهم.

والتجار الذين اصطحبونا في رحلتهم كانوا من بغداد ومن اصول تركية وعربية. وعند حلول المساء قاموا بترتيب طرودهم وحقائبهم على شكل كومة مستديرة، ورحلنا في اليوم التالي في الساعة الخامسة صباحاً، وذلك لكي نصل بغداد في المساء. وما كدنا نقطع بضعة اميال، حتى صاح دليلنا المسكين بانه قد تمت سرقة ماله اي الخمسة وثلاثين قرشاً التي اعطيتها له مقابل خدماته لي. وقد ظننت بادئ الامر انه قال

ذلك ليأخذ مني نقوداً اخرى، ولكن تصرفات التركي اقنعتني عكس وجهة نظري عندما صاح امامي مُكرراً بانه ليس المسؤول عن ذلك لاقناعي. وظهرت لي حقيقة وجوهر المثل القائل "يد نظيفة، ضمير مرتاح" بخصوص تلك المسألة، وان ذلك التركي غريب الاطوار قد حاول الدفاع عن براءته قبل اتهامه بالسرقة. اما دليلنا فقد قال انه لم يشك مطلقاً ان يكون ماله قد سُرق اثناء نومه من قبل احد افراد القافلة. وقد اثار الحادث استياء التجار كما ان ذلك التركي ولاسبابه الخاصة كان صوته اعلى من الاخرين. وقال احد الشهود ان التركي هو الذي كان نائماً بجوار الدليل مما حول شكوكي الى حقيقة. فاعلنت وبدون تردد انني اظن ان "علي اغا" هو السارق واضفت انه قال لصديقي مؤخراً انه لم يتبق لديه مال، فاذا كان لديه المال الزائد سيكون هو السارق.

وعندما رأى ان خدعته سوف تنكشف، لم يُبد اي قلق، بل كان ذكياً بما فيه الكفاية ليتراجع في الوقت المناسب، واذ ذاك اطلق ضحكة كبيرة واعاد المال قائلاً انه وجد المحفظة ملقاة في الشارع وانه اراد فقط ان يخيف صديقه. ولكن عذره كان مثيراً جداً للشفقة، في حين كان دليلنا سعيداً جداً ان استعاد ماله. ولكنه لم يُظهر رضاه تماماً ورغم انه ابتعد عن التركي بمسافة كبيرة الا انه لم يظهر للتركي اية ضغينة اثناء الرحلة.

وبعد ان قطعنا اربع ساعات من الطريق، لاحظنا شطآن قنوات معينة كانت تقطع الطريق. انها بعض الاعمال الانشائية القديمة اللازمة للزراعة، وقمنا بعبور بعضها بل اننا كنا نسير غالباً في حماية تلك الشطان متعمدين ان نتجمع في مجموعات مخافة التعرض لاى هجوم، ولاننا ومع اقترابنا من العاصمة، فقد زاد الخطر خاصة مع القلاقل التي اندلعت فيها. ان تلك الانشاءات الزراعية كانت تحتل مساحة كبيرة وما تبقى منها تقريباً حوالي

خمسة عشر ميلاً. وربما كان نهر الملكة كما كان يسمى او النهر الملكي الذي حفره نبوخذنصر الذي تحدثنا عنه سابقاً.

وابعد قليلاً، وفي اللحظة التي اقتربنا فيها من اطلال المدائن رأينا كتلة كبيرة من الجرانيت الاسود، يبلغ طولها سبعة اقدام، ربما كانت بقايا تمثال ضخم مفقود الرأس، ولكن الايدي كانت معقودة على الصدر على الطريقة الاسيوية احتراماً لمن هو اعلى مقاماً ويمكن فقط رؤية اطراف القدم تحت الثوب الطويل الذي يرتدونه في الاحتفالات. ولم نشاهد اية اطلال تدلل على وجود ابنية في الجوار القريب. وعندما تحدثت عن ذلك المكان لدى وجودي في بغداد، عرفت ان بعض الرحالة عند عودتهم من بابل قد رأوا اطلالاً قيمة لاثار تعود للعالم القديم جداً الموغل في القدم، وانهم لم يتمكنوا من حملها لوزنها الثقيل وقد اثارت هذه البقايا المثيرة والمُكسرة، اثارت اهتمامي باطلال المدائن التي نراها عن بعد. وسعدت جداً بحصولي في بغداد على الابعاد الحقيقية الدقيقة لطاق كسرى وكذلك ابعاد الارض حيث توجد تلك الاطلال، بل ويسعدني اكثر انني اتمكن من تقديم المعلومات الثمينة بدلاً من ملاحظات عامة لم اكد اجمعها.

وطاق كسرى، البقايا الرئيسية لقصر يعود لملك شهير يقع على بعد عشرين ميلاً جنوب- شرقي بغداد، وعلى بعد ميل من شط النهر حيث يشير الى موقع المدائن. وتلك الاطلال مثيرة جداً، واستناداً الى تجمعها في هذا المكان، لايوجد ادنى شك في انها جزء من قصر فسيح، ومن ينظر اليها من بعيد. يرى انها مازالت تحمل جلال العظمة التي انهارت وقد تم تشييد الطاق من الطابوق، الواحدة مساحتها قدم مربع وسمكها ثلاث بوصات. ويبلغ طول الواجهة مائة وخمسة وعشرين قدماً، وعرض الرواق ستة وثمانين قدماً والارتفاع مائة عشر.

ويبلغ طول القبة الداخلية من الشرق الى الغرب ستين قدماً. وتوجد في النصب فتحات كثيرة لدخول الهواء والضوء. والواجهة التي مازالت محفوظة جيداً هي واجهة الشرق ومليئة بالفتحات التي تشبه تلك الموجودة في الكنائس القوطية.في حين تهدمت الواجهة الغربية تماماً، بل وقد انهار جزء من القبة كذلك.

وعلي بعد يُقارب الثلث ميل تقريباً من قصر كسرى، توجد مقبرة "سليمان باك" (سلمان الفارسي) وتحيطها اطلال جدران. في حين ترى الى الجنوب، وتقريباً في نصف المسافة مابين النهر والطاق يوجد مسجد يحمل اسم (حذيفة بن اليمان). اما الاطلال التي تحدثنا عنها لحد الان، والتي قدمنا لها وصفاً ناقصاً فتعود بالطبع الى المدائن، استناداً الى موقعها الاقرب الى النهر منها الى بغداد. وعلى الشاطئ المقابل لنهر دجلة، وبالقرب من المطاحن القديمة العائدة لبغداد، نجد بقايا مبان يُفترض انها كانت قديماً جزءاً من سلوقية. وقد اسس مملكة سلوقية (سلوقُس- منكانور)، احد ضباط الاسكندر الاكبر والذي كان اول اجنبي يؤسس مملكة استورثت مجد وعظمة وترف بابل. وبسبب تأريخها القديم وموقعها، كان يجب ان تهمنا لنتحدث عنها قبل اهتمامنا بالمدائن، ولكن منظر طاق كسرى العظيم، اثار اهتمامنا في البداية. ولايكاد يتبقى اليوم شئ من سلوقية كما من بابل: وأتساءل، ايجب ان نُرجع سبب ذلك للمواد المستخدمة في المباني الرئيسية او لاسباب ابعد من ذلك، ولكنني لن اتطرق لهذا الموضوع. ومازلنا نرى على الشاطئ الغربي لنهر دجلة كمية من الانقاض غير المحددة الشكل وكلما ابتعدنا نجد بعضاً من قطع الرخام او المرمر. والتي اعتقد، انه اذا ما قمنا ببعض الابحاث المثابرة، لربما اكتشفنا تماثيل مشابهة لتلك الكتلة الجرانيتية التي شاهدناها وتحدثنا عنها سابقاً، والتي صادفناها على الطريق، وذلك لانه وفي جميع

المباني القوطية في الشرق التي رأيتها، لاحظت ذلك النوع من الزينة، تمثال ضخم مثل ذلك التمثال او مجموعة من التزيين بالتماثيل العديدة المرتبة وبشكل متناسق.

وبدأنا نرى عن بعد وبشكل متقطع مآذن بغداد، حين جاءنا احد التجار من بداية القافلة ليقول لنا انه رأى فيلقاً من الفرسان وربما لن يكونوا سوى بعض البدو اعداء. وكنا جميعاً نميل لاتخاذ الحيطة والحذر، وعملنا على تركيز قوانا او عددنا، والاخطار التي نجونا منها، ثم القرب من المدينة، كل ذلك اثار فينا شجاعة لدرجة ان البعض من بيننا اظهر بعض التحدي. واخبرنا تاجران كبيران مهمان بضرورة الانتظار حتى عودة الطلائع التي ارسلوها ثم اندفعنا الى مقدمة القافلة. وعادا بسرعة في كل مرة تدفعهم فيها جرأتهم للذهاب بعيداً وللتأكد من ان الجميع يساندهم. وفي النهاية استأنفنا السير وكان رؤساؤنا يتصايحون وهم يستلون سيوفهم ويطلقون صيحات الحرب.

وحتى الان لم نتعرف تماماً على اعدائنا فالمسافة التي تفصلنا مليئة بالاطلال والانقاض مما يعرقل رؤيتنا لهم. وعاد الينا كشافتنا والخوف يطل من نظراتهم ليقولوا لنا انهم بجانبنا وان عددهم يبلغ المائة.ولكننا سنكتشف بعد قليل ان كشافتنا لم يقوموا تماماً بواجبهم ولم يتعرفوا على الاعداء. ومهما كان الامر فقد كنا نتقدم بحذر كما ان الفرار في الصفوف الخلفية قد تزايد. وفجاة ونحن نخرج من وراء انقاض خان قديم، وجدنا انفسنا وجهاً لوجه مع اعدائنا؛ وفي الوقت الذي شعرنا فيه بالاضطراب، والفزع الذي اجتاحهم، اكتشفنا انه كان قطيعاً من الحمير المسالمين الذين تركهم اصحابهم خوفاً عند رؤيتهم لنا.

ولن انسى مطلقاً تنوع التعابير التي ارتسمت على الوجوه. ووحده دون كيشوت يعرف من هم هؤلاء العمالقة المروعين الذين جابههم، وادرك

مكر السحرة الذين حولوا جيوشهم الى خراف مزقوهم ارباً حتى يحرموه، هو دون كيشوت، من نشوة وكرامة النصر عليهم. وما كان ليشعر بنفس المفاجأة التي تفاجأنا بها. اما طلائعنا المهرة فقد ابتعدوا ليتجنبوا التنديد والسخرية التي يستحقونها، وبعد ان اكدوا لنا ان هؤلاء ليسوا الاعداء الذين رأوهم وانه يجب علينا انتظار ظهورهم. اما اولئك الذين فرّوا الى مؤخرة القافلة، ابتعدوا اكثر للتخلص من سخرية واستهزاء رفاقهم، في حين ان بعضاً من فرسانهم اليقظين جداً قد اندفعوا للامام وهم يرسلون حولهم نظرات لاتخلوا من الكبرياء النبيل الممزوج بالدهشة. في حين ان الادلاء الذين كانوا يرتجفون، قد انضموا الينا بعد ان رأوا اننا مستعدون للضحك اكثر من الغضب بسبب الخوف الذي اثارته حميرهم. وقد اكدوا لنا الخبر الذي سمعناه في بابل، بانسحاب وهزيمة الباشا الجديد هو وكُرده. وان الباشا سعود قد تثبتت اقدامه اكثر مما كان، وانه قد تم تعيين عبدالله اغا وزيراً، وهو رجل معروف جداً والثقة جاءت بعد الكُثرة.

ان عبدالله نفسه، واحد من بين اشهر المنفيين الذين تركوا بوشهر قبيل وصولنا تلك المدينة. ان هذه التغيرات المفاجئة من المنفى الى اعلى مكانة، من ذروة الثروة الى حضيض الفقر، من التاج الى المنفى او السجن وحتى الى الموت، وتلك اجراءات معروفة جيداً في هذه المناطق حيث يسود الظلم والعبودية، وسوف تأتي الفرصة لاذكر بعض الامثلة لهذه التقلبات. ولكن بالنسبة للوقت الحاضر، و بعد ان وصلنا بغداد وودعنا الصحراء واصدقاءنا البدو الطيبين. ولكن، ونحن نودعهم فلسوف اقدم في هذا الشأن الملاحظات العامة التي وعدنا تثبيتها حول صفات وعادات ذلك الجنس الرائع، وكذلك السمات الرئيسية والمُميزة للمنطقة حيث يعيشون.

الفصل الثامن

وصف بلاد العرب، اخطار وسراب الصحراء، صفات البدو
عاداتهم ونبلهم وكرمهم، المرأة العربية،
آراء حول الابل والحصان العربي

***

تمثل شبه جزيرة العرب، مثلثاً ذا ابعاد غير متوازية، تمتد طولاً بمسافة ١٥٠٠ميل من " Beler". على نهر الفرات وحتى مضيق باب المندب والمحيط الهندي، ومساحتها سبعمائة وخمسين ميلاً في المتوسط. ولكن اكبر منطقة فيها أُطلق عليها اسم "البتراء Petree" او الارض الصحراوية المقفرة. وكما يقول احد المؤرخين الفصحاء فان ((يد الطبيعة قد زينت فقر، الصحراء فيها بالاشجار الكبيرة والمراعي الغنية ويجد المسافر المنعزل الوحيد بشكل ما مُجتمعاً طبيعياً حياً من النباتات النشيطة التي تنمو فيها)). اما باقي الاراضي فهي سهل صحراوي ممتد، لم يشق فيه طريق، بل تتخلله جبال مقفرة. ولايوجد فيها مايمكن للمرء ان يبحث فيه عن ظل يحميه من حرارة الشمس العمودية الحارقة، وبدلاً من ان تخفف الرياح من تلك الحرارة وذلك القيظ، نجدها رياحاً عاتية خاصة تلك المسماة برياح السموم التي تنشر بخاراً خطيراً ومميتاً[١٥]. واثناء شهور الصيف، يكون هبوبها خطيراً جداً على

---

[15] يسمى الغرب تلك الرياح الحارة الرياح الخانقة.ويسميها العرب رياح السموم. وانا اعتقد انها سامة، وهي توجد دائماً في الصحراء بين البصرة وبغداد وحلب. بل انها معروفة في فارس وفي الهند وحتى في اسبانيا، كونها في الواقع رياح ارضية تهب في جميع البلدان الحارة. واستناداً على طبيعة الارض التي تهب عليها. نجدها خطيرة جداً في الصحراء اكثر من اي

الكائنات الحية التي تهب عليها. اما تأثيرها فخطير جداً وآنياً في الحال. لانه اذا ما انتشر الفساد في الجسد، تتطاير الاشلاء في كل مكان اذا ما اردنا حمله من الارض.

واذا استمرت الرياح في الهبوب لاسابيع كاملة وفي نفس الاتجاه، فانها تحمل للمسافر الذي يتحرك في تلك الصحاري خطراً اخر لايمكنه تفاديه. فجبال الرمال التي تحركها تلك الرياح تطمر القوافل والجيوش باكملها. ويشبهونها تماماً بامواج البحر الهائجة.

ولكن اذا كانت الصحراء تقدم اخطاراً كبيرة، فهي كذلك تقدم سراباً مفاجئاً لانستطيع ان نجد له شرحاً. ذلك السراب الذي يظهر للمسافر المُتعب الذي ارهقته الحرارة واحرقته اشعة الشمس العمودية اثناء رحلته، وعندما يموت من العطش ويكاد يقع فريسة الهبوب الحارق لرياح السموم فهو يتراءى له فجأة في قمة عذاباته. انه يرى امامه بحيرة كبيرة تنصب امامه في قلب الصحراء وحتى انه يرى قبابها وابوابها والحدائق التي تعدُه بانتعاش مرغوب. وتحاول نظراته ان تخترق نوعاً ما الضباب الذي لايسمح له بتمييز تلك الاشياء المثيرة بوضوح ويسترسل في آماله الجميلة. واذا ما كان لديه بعض القلق، فلايكاد يبقى له نوع من الشك، فالامل يترعرع في احضان الطمأنينة. ذلك السراب الخادع المشؤوم، انها رؤى الصحراء[١٦].

منطقة اخرى. ويضيف العرب على هذه الصفات انها تتميز عن غيرها من الرياح برائحتها الكبريتية التي تصاحبها دوماً في حين يمكن التعرف لحبات الرمل الدقيقة التي تجتاحها وترفعها معها، كما عانيناها نحن وكما حاولت ان اوضح ذلك واصفه في الفصل السابق. هي ليست خطيرة جداً في فصول الشتاء ولانها تهب افقية فلا اثر لها على مستوى الارض، ربما لانه يتقطع بسبب عدم استواء التربة، لدرجة ان الحيوانات والرجال يتفادون اخطارها بالانبطاح على البطن فوق الارض حال هبوبها.

[16] يذكر القرآن مدينة ارم. وقد استطاع قرائي الذين يعرفون الهند جيداً، رؤية ظاهرة تكاد تشبه في ودياننا الفسيحة ذلك السراب، خاصة مع هبوب الرياح الارضية. ففي البنغال،

انها حدائق ((ارمَ ذات العماد))، التي انشأها "شداد ابن عباد" تتراءى لناظريه انه القدر. وتقول تقاليدهم وتراثهم ان القدر يحفظها في قلب صحراء عدن لتكون مثالاً للغضب الالهي.

والمواد سهلة الاشتعال نادرة في بلاد العرب، لدرجة انهم يصنعونها من روث الابل والخيل، ويتطلب الابقاء عليها مشتعلة لاينطفئ نارها حذقاً ومهارة كبيرين. ولايوجد نهر يخترق الصحراء، وامتلاك بئر مدعاة للحسد بل انه يكون احياناً سبباً في اندلاع الحرب. وتتساقط احياناً السيول من الجبل ولكنها تجف في الحال لانها تسقط على ارض قاحلة اسفنجية. في حين ان نبات التمر هندي والطلح والذي تخترق جذوره شقوق الجبل فانه يرتوي من ندى الليالي. وكان المسافر المُتعب غالباً مايضطر لارواء عطشه بتناول الماء الذي ينبثق من نبع آسن يمتد فوق الرمال او فوق طبقة كبريتية.

ورؤية المآسي التي تجاورنا تدفع لتقييم ادنى مظاهر المتعة التي نحس بها. كما وان بلاد العرب السعيدة[17] تدين بهذا الاسم لمثل ذلك المظهر الاكثر عُقماً والاكثر صعوبة للحياة في ذلك الجزء الذي حاولنا وصفه. ويمكن ان ترى هنا وهناك حقلاً مزروعاً او نبع ماء لايجف مما يشير الى وجود قبيلة اكثر تحضراً قد ثبتت اقامتها في اراضيها. وانشأوا

وعند عبور "لابرادا La Parada"، حيث يرى المرء شجرتين اطلق عليهما السفينتان الشراعيتان، لانهما تشبهان عن بعد سفينتين شراعيتين. ولست انا الوحيد من انهما وجدتا وسط السهل. فالسراب هو نفسه السراب في صحراء جزيرة العرب، ولكن التأثيرات اكثر تطوراً، فهي تعود لاسباب اكثر تأثيراً.

[17] ان تميز العرب السعيدة البادية والبتراء، لم يكن يعرفها اليونان ولا الرومان، ولم تكن يُحسب ضمن الاراض العربية المقسمة الى خمس مناطق: اليمن، الحجاز، تهامة، نجد واليمامة. البعض يضيف سادسة البحرين، في حين ان هناك من يقول انها اثنتين فقط: اليمن والحجاز.

بعض الاكواخ ويقومون بزراعة النخيل الذي لايهيئ ظلاً كافياً بل جزئياً. ولكن اهوال الصحراء التي تُكون ارضية تلك الصورة، تزيد في الخيال الحي ابهار تلك الالوان للاشياء التي تبدو للعين لاول وهلة، ليقتنص حماس المسافر في لحظة ما فكرة وجود ارض سعيدة، حديقة خصبة او فردوس ارضي. وقد بالغ القدماء على وجه الخصوص في الحديث عن ثراء وخصوبة تلك المناطق، ونحن نعرف ان الاسكندر قد خدعته تلك الاراء التي تكونت عن هذه المناطق لدرجة انه فكر في غزو بلاد العرب لدى عودته من بلاد الهند، ولكن الموت حرمه من تحقيق ذلك المشروع[18] ويجب ان ندرس سياسة المصريين لنتعرف عن مصادر تلك التهيؤات، فلانهم بعد حصولهم على تجارة الهند كلها تقريباً، لم يكونوا ليفكروا في التعرف على البلاد التي يستوردون منها بضائعهم في الواقع.

فالعرب، اصحاب تلك البلاد التي اتينا على وصفها انفاً كانت الكتابات الشرقية تصفهم على انهم يشكلون طبقتين متميزتين: العرب البائدة والعرب الحاليون[19]. ويقولون عن العرب البائدة انهم كانوا قبائل عديدة قد انقرضت تماماً او انهم تداخلوا مع قبائل قديمة جاءت بعدهم. ولاتوجد معلومات كثيرة عنهم يمكن الاعتماد عليها. ورغم الكارثة التي حاقت ببعض القبائل احتفظ بها التراث واكدها القرآن. والجنس الحالي، واعتماداً على مؤرخيهم، ينحدر من اصلين: قحطان، الذي هو "يقظان ابن عبر Eber"، وعدنان، الذي ينحدر مباشرة من "اسماعيل بن ابراهيم" و"هاجر"، ويسمون احفاد قحطان العرب العاربة اي العرب الانقياء، واحفاد الثاني العرب المستعربة، اي اولئك الذين اصبحوا عرباً.

---

[18] Straton, Lib. XVI, Arrienk, P. 161- 123-153.

[19] نسميهم العرب العاربة والمستعربة.

ولعدم وجود معلومات دقيقة عن السلالات بين عدنان واسماعيل، فالعلاقة لاتذهب الى ابعد من عدنان. وهم يعتبرونه اب قبائلهم، كما انه لايمكن التشكك مطلقاً في انهم قد انحدروا من سلالته.

ويتكون هؤلاء من ثلاثة اجناس متميزة انتشرت في آسيا بشكل عام، وكل منها لها اصل مختلف[٢٠] وهم العرب الحديثون الحاليون، التتار والهندوس، لاتوجد بينهم اية نقطة خلاف لا من حيث التأريخ او اللغة او عقائدهم الدينية. ويختلفون كذلك في صفاتهم وسماتهم رغم انهم يعيشون في خط مواز لاخر، بل واحياناً يعيشون في نفس البلد. ويعود ذلك الاختلاف رُبما يعود لتحريم التزاوج فيما بينهم. والهندي بعاداته الهادئة، وقامته الفارعة وشعره الاسود الكثيف، والعيون الناعسة كما عيون الريم يختلف في سماته عن التتري الذي لاتكاد ان تكون له لحية، ووجه مثلث. وهو عريض الرأس، وجسده معضل ونظرات ثاقبة نافذة، وعينان متباعدتان وانف لايكاد يظهر وهو بذلك ليس بأقل اختلافاً عن العربي وخاصة البدوي ساكن الصحراء.

والعرب البدو جنس بدائي يمتد تأريخهم الى اصل موغل في القدم. وعاداتهم هي هي متواصلة وصفات وسمات عامة خارجية تعود لهم وحدهم. وهي تختلف كثيراً عن عادات وصفات الامم الاسلامية بشكل عام. ولون البشرة المشابه للون الجلد المدبوغ، يقف بين لون بشرة الهندي ولون بشرة التتري البيضاء، وهيئة العربي العامة، تجعله يقف كذلك مابين الهيئة الملفوفة والرقيقة للهندي، وهيئة القوقازى الحادة الثقيلة الضخمة. والعربي عصبي، متوسط القامة، لايرتدي شيئاً زائداً

---

[20] En parlant ainsi, nous nous suivons l`autorite` des dissertations asiatiques. (Tom. I, R. 27). On croit pour tant qu`on peut trouver quelques rapprochements entre l`idolatrie des anciens arabes, ou perdus, et laes pratiques religieuses des Indous.

يمكن ان يضايق حركاته. وهو معتاد على الامتناع عن الطعام وعلى التعب تماماً مثل جمله الذي يعتليه. كما ان اطول رحلة يقوم بها لايمكنها ان تطفئ قوة نظراته النافذة المنبعثة من عيون سوداء كالفحم. بل ولاتستطيع لفحات حرارة الشمس او قيظ الصحراء ان يُحد من نشاطه او يقلل من حميته، اما مشاعره فهي جياشة، سريع الغضب، لايكلّ ولا يتعب، معتاد على القتال، يمتلك جسداً حديدياً وروحاً مندفعة. كما انه بكل عاداته يبدو غير قادر على تذوق لذة الراحة، الا في بعض الحالات عندما يكون راضياً عن نفسه، مهنئاً نفسه عن قيامه بعمل شجاع، مستسلماً للتفكير في بعض المدائح التي يمكن ان يحصل عليها. وتراه جالساً على الارض، غليونه في فمه، مداعباً لحيته المسترسلة على صدره. وهو مندفع في طيبته، كما في المه وضيقه وعذاباته. وترى الاب المحب يداعب اولاده، ويلعب معهم، ويعلمه كيف يرمي البوصة كما سوف يرمي مستقبلاً سلاحاً خطيراً، وباختصار، ترى جميع العواطف التي تملأ بها الطبيعة نفوس الناس، لن تراها بتلك القوة والحيوية والاندفاع كما تراها في هذه الصحاري.

والمحبة التي يحملها العربي لأولاده واسرته تمتد لتشمل جميع افراد القبيلة. وجميع الخيام والاكواخ مفتوحة الابواب، ولايُعرف من يسرق وسط زمرة من الاشرار. واذا لم يكن ممكنا وجود جماعات المال في مجتمعاتهم، فقد حلت محلها كرماً وسخاءً لا محدوداً، فاليد التي تملك مستعدة دائماً للعطاء لمن يحتاج. ويذكرون امثلة كثيرة عن ذلك الكرم المعروف، ولكنني ساقتنع بسرد القصة التالية: وقع شجار في ساحة الكعبة حول ماهية الرجل الاكثر سخاءً وكرماً في تلك المدينة. واقترح احد الحضور ليضع حداً لذلك الشجار انه يذهب واحد من كل جماعة الى اقرب اصدقائه طالباً منه المساعدة، ثم يرون ماذا قدم كل صديق، وبعد تلك

التجربة، يمكن اعطاء حكم عادل آنذاك. وقُبل الاقتراح. وذهب الاول باحثاً عن عبدالله، ووجده يضع قدمه على سرج جمله، يستعد لرحلة طويلة، ناداه قائلاً: ((يابن عم رسول الله واجابه قائلاً بانه ذاهب في رحلة طويلة وانه في حاجة للمساعدة. اجابه عبدالله، اركب هذا الجمل، انه لك بحمله، فقط حافظ جيداً على ذلك السيف المربوط في السرج فهو سيف على ابن ابي طالب)). واخذ الجمل ووجده محملاً بالحرير واربعة الاف قطعة ذهبية، ولكن اثمن ما موجود هو السيف.

ذهب الثاني الى قيس بن سعد. وقال له العبد ان سيده نائم و ساله عن سبب مجيئه. اجابه بانه جاء ليطلب مساعدة صديقه، فهو في حاجة الى القيام برحلة طويلة. قال له العبد، لا حاجة لايقاظ سيدي، وقدم له سبعة الاف قطعة من الذهب، مؤكداً انه ليس لديه اكثر في الوقت الحاضر، كما طلب منه ان يذهب الى من يهتمون بالجمال لكي يقدموا له جملاً وعبداً ليهتم به. وعندما استيقظ قيس واخبره العبد بماحدث، حرره ولكنه انّبه بلطف لانه لم يوقظه.

وذهب الثالث الى الرياح ووجده ذاهباً للصلاة. وكان رجلاً كبير السن مُقعداً واعمى، ويسير متكئاً على عبدين. وما ان علم ان صديقه في حاجة قال: ((انني بائس جداً لانني لست ثرياً، ولا املك سوى هذين العبدين. خذ العبدين وبعهما فهما لك منذ اللحظة. واصل طريقه بعذ ذلك هو يتلمس الحائط. واستحق كل المديح وهو الاكثر سخاءً فقد اعطى كل مايملك)).

وبدون اي تعليق على هذه القصة، يمكننا ان نقرر ان صفات الكرم والسخاء ليست نادرة في ذلك الشعب وهناك المجال للعديد من الامثلة على هذا السخاء. وقد ذهب كرم العرب مضرب الامثال و منذ ازمان سحيقة. وهاتان الصفتان متلازمتان، وقد وجه احد شعرائهم لسكان واسط في بلاد مابين النهرين تأنيباً دموياً لم يسبق له مثيل عندما قال: ((ان الرجال لايعرفون العطاء ولا النساء تستطيع الرفض)).

واذا ماكان الجميع يكيلون المديح للبدو وعلى كرمهم وسخائهم. فهم يستحقونه بل ويستحقون اكثر على شرفهم وصدقهم: اذ يمكن الاعتماد على كلمتهم، وعندما يهتمون باحد فان اخلاصهم يتحدى كل المحن. ويمكنني ان اذكر الكثير من الامثلة التي كنت شاهداً عليها ويمكن لاى كائن يلاحظ ذلك خاصة بالنسبة لرحلتي انا. فقد كنت اقطع الصحراء في رحلتي بدون حاشية وحمايتي الوحيدة هي شرف قبائلهم. تلك هي فضائل جنس نشيط ذي حمية، شجاع وحر. اما سيئاته فتعود بطبيعة البلد الذي يعيش فيه والحرية الشخصية التي يتمتع بها البدوي. وحقيقي جداً ان حال المجتمع واوضاعه، ومبادئ الحكومة تعتبر كلها مصدر فضائل واخطاء الناس.

والعربي رجل حُرٌ كما الهواء، لايتحمل الاكراه والاجبار، ولايتمكن من تقبل معارضة رغباته. واذا نوى فعل شئ ما، يقوم بتنفيذه. واذا توجب عليه استخدام العنف، يلجأ للسلاح وسفك الدماء، لاتوقفه الصعاب مطلقاً بل انها تدغدغ كرامته وغروره. ورغم انك ترى البدو فضلاء وكرماء وشرفاء في علاقاتهم الخاصة الا انهم حقودون ودون اية شفقة تجاه الغرباء والاعداء. ويدهم مرفوعة ضد كل رجل، ويد كل رجل مرفوعة عليهم. ففي الصحراء لايعرفون الحياد، واي شخص لايؤيد القبيلة فهو ضدها، كما ان داخل القبيلة مشهود له بالاستقامة التي لاتتأثر باي دافع. وخارج القبيلة، وتجاه كل من كانوا غرباء تجده قاطع طريق، يعني انه يغير فقط طريقة التعبير والتصرف وهو مرتاح الضمير ويقول البدوي وهو عائد من رحلة ما خارج القبيلة في صحراء الاجداد: ((لقد حصلت على هذا الاسير وتلك الغنيمة هناك. لقد حصلت عليه والحمد لله ففي الصحراء التي املكها، والتي منحها بكل ما فيها الى ابي اسماعيل وسلالته. فالصحراء ارثي، وبفضل الله الكبير، سيقدم لي مكاسب اخرى)).

هكذا يفكر قاطع طريق الصحراء، وهكذا يتصرف انه لايشبع من الغنائم وهو يعود محملاً، كما ان قاطع الطريق هذا يقتل المسافر الذي يقاومه، ولكنه يسرق من يستسلم له، يستعبده ويبيعه كما العبد، والله اكبر! الله اكبر! لايوجد قانون، يجب الاختيار بين العبودية والموت. لقد تعودوا على حياة الصحراء، وعلى السير الطويل الاجباري، كما تعودوا على الحرمان، وهم لايفكرون في مصير اسراهم الذين يمكن ان ينتظموا بشكل مغاير. واذا ما وقعوا ارضاً من فرط الاعياء فوخزة من طرف السيف تعيد لهم قواهم. والسير على الاقدام الاجباري ليس سوى بداية لمتاعب اخرى. وعندما تتوقف الابل يجب على الاسرى القيام بنصب الخيام وحفر الابار وطحن الحبوب من اجل اطعام الاسياد. كما انهم يحرمونهم من انسانيتهم حتى يجبروا على شراء حريتهم واذا لم يستطيعوا القيام بذلك، فلا رحمة لهم والموت هو الوحيد الذي يضع حداً لعذاباتهم.

هكذا يعاملون العدو الاسير، ولكنهم يتصرفون بشكل مغاير تماماً للعبيد الذين يشترونهم. وما قلناه حتى الان له استثناءاته ولكنها نادرة. ورغم ان حقوق الضيافة مُصانة كما شئ مقدس اذا ما طلبت واتفق عليها، فمع ذلك اذا مالم يكن ذلك مؤمناً من قبل فلن يكون ذلك متاحاً الا بعد تكبد جميع المعاملات السيئة القاسية من قبل البدو، وحينذاك فقط يمكن مع بعض المديح اثارة بعض المشاعر الانسانية لديهم املا في الفدية. ويعترف المسافرون معنا جيداً، يعترفون بتلك الحقيقة بعد ظروف عدة، فمنذ سنوات تخلف البكباشي، ليجمع بعض الاعشاب، فابتعد كثيراً عن ادلائه، والتقى به بعض الاعراب واسروه. وخلال ثلاثة ايام لم تصلنا منه اية اخبار. وفي اليوم الرابع اكتشف رئيس احدى القبائل انه يقوم بحفر بئر في الرمال، ووجده منهكاً ونصف ميت من التعب. ولان القبيلتين لم تكونا في حالة حرب، استطاع فقط ان يحصل على حريته بعد ان دفع فدية كبيرة.

وتعود قسوتهم في مثل تلك الظروف الى الحرية اللامحدودة التي يتمتعون بها, والامم التي تتباهى بامتلاك حرية مفرطة، هي تلك الامم التي تعامل عبيدها بمنتهى القسوة، واذاما تم اخضاع او قهر العرب لبعض الوقت، سرعان مايستعيدون حريتهم بعد بعض الوقت. وذلك بفضل بلادهم القاحلة وكونهم عرباً رُحلاً دائماً. لقد نجوا من ربقة اعتى الملكيات، "سينروستريس Sesostris" و"كورش Curush"، "بومبي Pompee" و"تراجان Trajan"، لم يستطيعوا اخضاعهم كلية، وحتى الاتراك انفسهم لم يكونوا في وضع افضل لتقييم السلطة المشكوك فيها التي يتفاخرون بها. كما ان ذكرى استقلالهم هي افضل ضمانة لاستمراريتها.

ومع اقتراب خطر الاعداء، تعلق جميع اشكال العداوة الشخصية ويتقدمون امام العدو كتلة واحدة، وهو يأملون هزيمته. وخلفهم توجد صحراء اجدادهم ينسحبون اليها. وحين يفخر عبيد الملوك بحريتهم السياسية، نرى ان البدوى هو انسان حُر اصلاً. ولكي لاننخدع كثيراً حول طبيعة وقيمة تلك الحرية، فهي شهادة، لانها حرية بعيدة عن كل قيد. ولان حياة البدوي مليئة بالمخاطر، التغيرات والحرمان، فانني اعتقد ان ابسط مواطن انجليزى عادي يشعر بالسعادة وبحرية وسهولة الحياة اكثر مما يشعر به اقوى رئيس لتلك القبائل الرّحل. فالشيخ تتم تربيته تربية خاصة تفوق اقرانه. لانه واعتيادياً هو اب القبيلة. فهو يترأس المجلس ويلقي الاوامر في ساحة القتال. ولكنه في هذا الموقع او ذاك اوامره محترمة ومجابة. ولايتم ذلك فقط بسبب مكانته، ولكن بسبب تاثيره الشخصي وصفاته. اذن ان تكون حكومته قوية وحازمة فسلطته قوية جداً، وان تكون حكومته ضعيفة وجبانة فسلطته تكون محدودة جداً. ان تلك الاستمرارية لذلك الامتداد الطويل، قد تسبب في ازدياد اعداد من يلقبون بتلك الالقاب، كما يتسبب في ظروف مختلفة، في حدوث

نتائج مختلفة تماماً والتي لم يكن يتصورها احفاد محمد المباشرون عندما سمحوا بالارتباطات بين اسرهم والقبائل الاخرى، ليتكاتفوا بعد ذلك ضد سلطة الخلافة. ومع ذلك وحتى الوقت الحاضر يحتفظ ذلك اللقب بقيمته وبحقوقه. وفي بعض المناطق يمكن لهذا السيد ان يندفع دونما خوف بين صفوف المتقاتلين في حالة النزال، ولايحاول احد او يتجرأ اي من الاطراف ان يتسببوا في خدشه حتى. وقد سنحت لي الفرصة، ان اقدم في كتابي هذا في الفصل الخامس برهاناً على ذلك الاحترام الذي يكنّه الناس لمن يحمل لقب سيد.

والعرب متمسكون بدينهم وعباداتهم، وصفاتهم الاخلاقية يحاول الاتراك عبثاً ان ينسبوا مثلها لانفسهم. والعرب في واقع الامر متسامحون تجاه المسيحيين وينظرون اليهم باحتقار قليل الى حدما، كما ان تناول المشروبات الروحية والسُكر حتى الثمالة يكاد ان يكون شيئاً لايعرفونه. وقد التقيت شخصياً باتراك يخالفون مفاهيم القرآن بذلك الخصوص، ولكنني لم اسمع عن عرب عرفوا بمثل ذلك الامر. واذتراهم معزولين عن الناس فهم يحافظون باهتمام بالغ على الانساب ممايشكل واحداً من دوافع كثيرة للحفاظ على قوانين النبي، في حين ترى الاتراك تختلط اجناسهم، ويتغير الجنس التركي مع كل جيل، ويتبعون في الظاهر مثل ابائهم ويقومون سراً بتحقيق مايؤدي لخرق مفاهيم التحريم.

كما ان قانون العين بالعين والسن بالسن معروف كذلك للعرب، ويعملون به رغم ان ذلك يتم بطريقة غير عادلة، لان الثأر يمتد للابرياء من العائلتين: القاتل المجرم والضحية. الدم يمحوه الدم، ويتمتع رجال الاسرة التي يُقتل فيها احد ما بحق انزال العقاب على الجريمة. كما يجب علينا الا نتأكد بان ذلك يأخذ مداه الكامل، بسبب تدخل الرؤساء، وظروف اخرى تساهم كذلك بدورها في تهدئة المشاعر الثائرة ووضع حد

لاي تصرف يُضر بالمصلحة العامة للمجتمع عندما يُعاقب البرئ على ذنوب المجرم.

والبدو قنوعون جداً في حياتهم، وعند الحاجة، اكثر من الهنود الذين يقنعون باختيارهم الخاص وكما احد مبادئ العقيدة. وهم يتغذون لاسابيع كثيرة على الخبز الردئ من الشيلم وبعض ثمار التمر الجافة. واذا ماحصلوا على بعض اللحم لتناول العشاء فانهم يسلقون اللحم او يشوونه على الفحم. بل انهم احياناً مايستغنون عن الملح.

ويتردد الحديث كثيراً عن اجراءات النظافة التي يهتم بها العرب والاتراك وغيرهم من الامم الاسيوية، ولكنني لا اتفق مع الكثيرين من المسافرين الذين يكيلون المديح للتصرفات في مناطق اخرى ويطلقون على سكانها صفات لايمتلكونها مطلقاً بل انهم يخاطرون حتى بالحط من صفاتنا. واستناداً على خبرتي التي عرفتها عن تصرفات المسلمين بشكل عام، فان نظافة العرب تفوق مثيلتها في بعض الدول الاوروبية، ولكنها لاتقارن بنظافتنا. فوضوؤهم المتواصل خاصة عند وجود الماء بكثرة يساعدهم على القيام بذلك. ولكنها لاتنفي الازعاج الناتج من الاستخدام المتواصل لنفس الملابس من غير تبديلها. وهم لايستخدمون الشوكة والسكين ويستخدمون يدهم اليمنى لتناول اللحم، بل واحياناً يستخدمون اليدين معاً[٢١].

---

[21] لن يتعود الاوروبيون مطلقاً على تلك العادة. كما ان تصرفات الاسيويين على المائدة، تتنافى وجميع مفاهيم الادب والنظافة. وينظر العرب الى ذلك انها عادة متحضرة باظهار انهم شبعوا جداً ويتجشؤون الى جانب ذلك. وهي طريقة ينظر اليها الاوربيون بانها تخلو من الصدق. ولكنهم يعتبرون كذلك ان صوتاً كهذا يصدر من مكان آخر اهانة لاتُغتفر في عاداتهم. ومع افتقارهم للاهتمام بهذه النقطة، فمن دواعي السخف وجود ذلك الوسواس المبالغ فيه تجاه نقطة اخرى. وفيمايلي اورد قصة يروونها دليلاً على احترامهم لاصول اللياقة بهذا الخصوص. كان عبدالله بن عربقن واحداً من كبار

تجار مدينة "الرّستق"، ويحترمه الناس لثرائه وليبرياليته وجدية سلوكه. ولكن شاء سوء حظه ان يكون قد اقترف مثل ذلك الخطأ في مناسبة عامة. ففي واحدة من الصلوات المفروضة على المؤمنين واثناء سجوده اصدر صوتا كهذا من منطقة سُفلى وسمعه المفتي ولم يشك مطلقاً في صاحبه، لانه كان قريباً جداً منه ولم يكن يوجد من هو اقرب ليثير شكوكه. فرجالات المدينة، واعضاء الديوان، ورئيس القضاة وعميد المعهدن كانوا كلهم شهوداً على ذلك الانتهاك والتجاوز. واصبح ذلك موضع استياء تام اذ رأوا "عبدالله بن عربة" كبير تجار المدينة واكثر الرجال جدية وحزماً في عصره، رجلاً كانت كلمته قانوناً. ولانه محترم جداً وحدث ذلك على رؤوس الاشهاد في العلن فكان وضعاً لايمكن تحمله. فخرج سريعاً من المسجد وسط صمت تام من هول المفاجأة، ولم يجد الوقت لينتعل حذاءه الذي كان تركه امام باب المسجد وهرب من المدينة واختفى في الصحراء. والتقاه بعض البدو الرحل، واذ لم يجدو شيئاً معه ليسلبوه اساءوا معاملته وباعوه لاحدى القبائل. وكانت مصيبة استطاع تحملها واسهل من تحمل الخجل على خطئه. وكان السيد الجديد فقيراً وبخيلاً، واجبره على العمل دون هوادة ولايكاد يطعمه الا ليسد الرمق ويبقيه من الموت جوعاً. وكان يضربه اذا ما اجبره التعب على اخذ قسط من الراحة. واستمر الحال عشر سنوات عقاباً على خطيئته اللاارادية. وفي نهاية المدة، استطاع الهرب. وعندما ظن انه قد تم نسيان الخطأ بعد عشر سنوات من المنفى والعذاب والعقاب، ولكنه ومع اقترابه من "الرستق" انتابه القلق من جديد وقرر الاختباء، لفترة حتى يتأكد تماماً من ان ذكرى خطيئته مازالت ام لا في اذهان مواطنيه. وعلى بعد خطوات من المدينة التقى امرأتين كبيرتي السن كانتا تتشاجران حول تاريخ حدث يتكلمن عنه بجدية وحدة. واقترب منهما عن طريق حب الاستطلاع: وكم كانت دهشته كبيرة عندما سمع السيدة الاكبر سناً تقول لها انه لايمكن ان تخطئ في ذلك التأريخ، لان ماحدث قد حدث منذ عشر سنوات، اي اليوم الذي اخرج منه عبدالله كبير التجار صوتاً من اسفله في المسجد وهو حدث مازال يذكره حتى الان المفتي والقاضي والمجلس وكبار رجال المجتمع حتى انه اتخذ طريق الهرب مرة اخرى تاركاً ملابسة الداخلية لزوجته لتعرف انه مازال حياً يُرزق. ومازالت تلك الملابس معلقة في المسجد كما أثر يثير الرعب لمنع حدوث مثل ذلك الخطأ ابداً. وتعتبر تلك الملابس دواء شافياً للنساء العقيمات. وتتناول وتتداول الاجيال تلك القصة مع التركيز على فضيلة خصوبة الملابس الداخلية لـ"عبدالله بن عربة".

ويسود الختان لدى العرب، كما لدى جميع الشعوب المسلمة وذلك لانهم يربطون بها فكرة النظافة. وهم لايمارسونها فقط فيما بينهم، بل ان الفتيات يخضعن كذلك لنفس العملية لدى بعض القبائل، عندما يبلغن سن البلوغ. وانا لا استطيع ان اقول كيف يقومون بها، فالمسلمون لايتحدثون كثيراً عن مواضيع كهذه. ولكنني اعرف انه في جميع المناطق التي يُمارس فيها الختان للنساء، فان نساءً يقمن بهذه العملية للفتيات، والحلاقون فقط هم الذين يمارسون تلك العملية على الرجال، ويعتبروهم الناس غير انقياء بسبب تلك العملية التي يقومون بها.

يقيم البدو بشكل عام في الخيام، ولايتحملون مطلقاً الانغلاق داخل المدن، يحتقرون الزراعة ويغيرون دائماً اماكن اقامتهم. ويبدو ان الطبيعة قد منحتهم وبنفس القدر من الكرم حيواناً عظيم الفائدة، يقدم لهم افضل الخدمات انه الجمل. وما ان يشب الجمل عن الطوق، يعودونه على ثني ركبتيه حال تلقي الامر بذلك. وللتوصل لتلك النتيجة يربطون القدم بشدة برباط قوي بشكل لايمكنه ان يرتكز عليها على الارض. ويتركونه في هذه الحالة لفترة. ولما كان من الصعب عليه في هذه الحالة ان يذهب للمرعى، كان مضطراً ان يجثوا على ركبتيه. وفي اليوم التالي يقومون بنفس العملية للقدم الاخرى. وتتواصل تلك العملية لعدة ايام، الى ان يعتاد ان يطوي ساقيه معاً ويحثو بارادته. ولاندري ما يجب ان يثير اعجابنا اكثر: هو صبر وهدوء الحيوان او دأب ذلك البدوي على رعايته وتعليمه وتعويده على ذلك. الى جانب ذلك، يثقبون الغضروف الذي يفصل بين منخريهن ويمررون فيه حلقة او سلسلة تساعد على سحبه والسيطرة على نزواته الجامحة بطبيعتها اصلاً.

وكنت اعتقد انهم يبالغون في تقدير الحمولة التي يمكن ان يحملها، ويقولون انها تُقدر بسبعمائة رطل. وفي الهند حيث الابل اكبر حجماً واقوى

بنية، بل وافضل حيث يقومون على تغذيته بشكل جيد، وافضل بكثير من تغذية ابل صحاري البدو. وينظر الهنود الى الجمل على انه حيوان يساوي ثلاثة ابقار او بغلين. ومن بين الالاف التي رأيتها تمر امام ناظري، لم ار جملاً يحمل حمولة غير طبيعية. ولذلك كنت اميل للاعتقاد بان قوتهم اقل بكثير مما نعتقد بشكل عام، وعلى ان حمولتهم بشكل نظامي لاتتعدى الاربعمائة او الخمسمائة رطل. ويبدو من هيأة وتركيبة الجمل انه مُهيئ للسباق اكثر من كونه مهيئاً لحمل الاحمال. ومع ذلك فانه لايمكنه ان يتقدم على الحصان الذي يعدو. ويتميز الجمل باعتداله وقلة احتياجاته وقدرته على تحمل العطش، وتجدر الاشارة الى انه يفقد ملكاته تلك عندما يترك الصحراء بل انه يفقد على الاقل قدرته الفريدة على العطش، تلك الصفة المفيدة.

ويستفيد البدوي من كل جزء في الجمل. حليبه الذي يشبه حليب العنز، يروى عطشه وهو يهرب امام عدوٌ له يطارده، ومن وبره يصنع اغطية ممتازة. واذا ماوقع منهكاً من التعب، فلحمه طعام لايتعفف البدوي عنه. وقد تذوقته ذات مرة من باب حب الاستطلاع في احد الاعياد الاسلامية وانا في طريقي الى (كورنول Kurnoul)، ووجدت ان مذاقه يشبه مذاق لحم غزال بري كبير السن.

واذا ماكان الجمل يستحق بجدارة لقب سفينة الصحراء، فان من يعتليه يستحق بدوره ان نهتم به. ولكن اجمل الابل هي تلك القادمة من نجد، حيث يهتم العرب بانسابها، وهم يميزون خمسة اجناس اصيلة، يحافظ البدوي على سلالتها بعناية فائقة، ويعطي كل اسمه لنسله ويُعتبرون الجنس الاصيل[٢٢]. وتنحدر سلالات الخيول العربية بدورها من

[22] وتوجد كذلك قسم كبير منها من الدرجة الاولى بين الخيول العربية من "ذوي الجنس غير معروف الهوية "الكديش Les kadechi"، وقسم اخر هو "الكُحيل

مثل ذلك الجنس الاصلي او ذاك عن طريق سلالة الام، لان العرب يطبقون على خيولهم نفس المبدأ الذي تطبقه بعض الشعوب على نفسها، اذ يعتقدون ان الدم ينتقل نقياً بالتأكيد عبر سلالة الام. واحياناً مايسمح العربي للحصان الطلوق الانبل جنساً الاجتماع مع فرس ادنى مرتبة والنتيجة عكسية تماماً. ويستقدم العربي الشهود على عمليات التزاوج والولادة حرصاً على التأكيد من نقاء الدم. وتلك الخيول حيوانات رائعة، ويعود ذلك ربما لطريقة التربية او لمزايا مناخية. ومع ذلك فمن النادر ان نرى من بينها خيولاً ضخام الاجسام. بل، ويكاد يكون من المستحيل ان نجد منه ما يمكن مقارنته بغيرها من حيث الهيئة العامة او الهدوء او السرعة والقوة. ويتناول الحصان غذاءه من يد البدوي وفي داخل خيمته كواحد من ابنائه. وتتبع الخيول خطى اسيادها كما يتبع الكلب الوفي سيده. واذا ماخرّ صريعاً في احدى المعارك، فانه يبقى بلا حراك بجواره. ورأس الحصان العربي مرفوعة في جلال وهيبة على رقبة مُنحنية كالقوس، واعضاء متوترة، مشدود الجسد واكتاف خاصة بحصان السباق وصدر عريض. وعندما يعدو ترسل نظراته الشرر، خفيف سريع كما غزال الريم، حتى انه لايترك آثار اقدام على الارض. ويشبه حصان الصحراء الجمل في اعتياده على الخضوع والتعب والحرمان. ومنذ اولى سنى حياته، يصنعون على ظهره حملاً خفيفاً، يزداد هو شيئاً فشيئاً الى ان يصل الى استطاعته حمل حمولة ثقيلة، وهو متعب وقانع باقل كمية من الغذاء السئ. وفي مسيرة استمرت ثلاثين ساعة قطعنا فيها الصحراء الصغيرة من الموصل الى نصيبين لم تتناول خيولنا آنذاك رغم اننا امتطيناها دون اي انقطاع سوى بضع حفنات من الشعير السئ وبعض العشب الجاف اثناء العدو. لقد رأيت هؤلاء

العربي Kouhelja" ذوي النسب المعروف الاكيد. وانا تحدثت فقط عن القسم الثاني حيث لم ارَ اهتماماً كبيراً بغيرهم.

المتسابقين يشتعلون حماساً وهدوءً، ويتناولون بلذة بعض النباتات الجافة الموجودة على الطريق، بل ويتناولون بشغف بعض السيقان الدقيقية المجردة من اوراقها تماماً. ولجمال هيئته وهدوئه، وعدم شعوره بالتعب وسهولة تغذيته، يعتبر الخيول العربي اصيلاً نقي الجنس ويتميز بجدارة عن غيره من الخيول. ولكنه في بلدان اخرى، ورغم اصالته ونقاء دمه يعتبرونه سريع العطب والتعب. وذلك على العكس مما هو معروف وسائد في بلاد العرب. وفي كتابه وصف بلاد فارس، يقول اليوزباشي "ماكدونالد كينير Macdoland Kinneir"، انه امتطى حصاناً اصيلاً ذات يوم واستمر في رحلته قاطعاً تسعين ميلاً دونما توقف ودون ان يرفع يده عن السرج. ويُرسلون المئات من هذه الخيول سنوياً الى البصرة على السفن، وذلك لتنضم الى مؤسساتنا هناك. ويساوى سعر الحصان مائة جنيه استرلينى داخل البلد ويزداد السعر اذا اردنا اقناع احد العرب الاثرياء للتخلي عن حصانه المفضل.

وغالباً ماكنا نثير السؤال حول معرفة ما اذا كان يتم استخدام الخيول الاصيلة في كتيبة الفرسان في مدراس. واثارة مثل ذلك السؤال مهم جداً لنظامنا العسكري. ولكن الدوافع التي يقدمها البعض للاجابة بالايجاب وتبدو لي على الاقل مثيرة للشك تماماً. وان يكون نادر شاه ومحاربون اخرون يفضلون تلك الخيول لكتائب الفرسان لديهم، فلن يكون اختيارهم دليلاً لكي نقوم نحن بذلك ونختار نفس تلك السلالات لسلاح الفرسان لدينا. لا، ان الحال يختلف تماماً لان استخدام مثل تلك الخيول لايتناسب وسلاح فرسان نظامي والقطعان العسكرية الخفيفة السلاح. كما ان تفضيل نادر شاه لها يقدم لنا البرهان على ان الخيول العربية لاتناسب الخدمة العسكرية في جيوشنا. لان ذلك التفضيل قد اظهر تماماً ان الصفات الضرورية للخيول في القطعات العسكرية الخفيفة

السلاح لدى الاسيويين ليست تماماً هي الضرورية والاكثر نفعاً لتأدية الواجبات في جيوش انتظامية منظمة جداً.

والرأي القائل بان الحركة السريعة تُعوض عن خفة الوزن لايمكن لاحد ان يعترض عليه. ولكن ذلك الرأي ينهار تماماً امام الاقتناع الحاسم نتيجة ذلك الظرف الخاص الذي يمجد احد اكبر نجاحاتنا التي حصلنا عليها ونحن نعرف ماحدث في معركة واترلو. واقولها ودون ادنى شعور بالخجل ان احدى كتائبنا المهاجمة قد تراجعت مرات ثلاث امام مدرعات نابليون. ولكن بعد ان هاجمته فرقة الخيالة والذين يمتطون خيولاً لها نفس وزن وحجم وصفات خيول نابليون استطعنا التغلب عليه. وسأحاول الان ان اوضح لماذا لايستطيع الحصان العربي انجاز الواجبات النظامية لسلاح الفرسان.

يحرث الحصان العربي الارض وهو يعدو. ولاتعود سرعته الفائقة لاستواء الارض امامه والتي يقطعها في قفزة واحدة، وانما للسرعة، تلك السرعة الفائقة التي يقرب بها اقدامه الواحدة مع الاخرى وتعدد خطواته. وتلك حقيقة من السهل التأكد منها اثناء حساب خطواته عند العدو بل ومعروفة للجميع. واعتقد ان الكل يتفق معي على ان قوة الدفع التي تغطي مساحة كبيرة من الارض ستكون اقوى بكثير اذا ما نتجت عن جسد خفيف الوزن ويتحرك في مساحة اصغر. اذن، فقوة الدفع اقوى مع كل فقزة يقوم بها جسد قوي كبير الحجم. وبسبب الوقت الذي يأخذه لكي يضم قدميه الخلفيتين اثناء العدو، ينتصر الحصان العربي في السباق. ولكن اللحظة الحاسمة التي تقرر اختيار من يقوم بالواجب المناط به في الصدام مع العدو، هي تلك الحركة الاخيرة الحاسمة بالوزن الثقيل حيث تساعد على سهولة اختراق صفوف العدو المقاوم. ولذلك يبدو لي ان الحصان العربي لايناسبه تماماً مثل ذلك الواجب لخفة وزنه

وصغر حجمه، الى جانب انه من الصعب السيطرة عليه وابقائه في الصفوف اثناء القتال اذا ما اخذته حمية السباق.

لقد توقفت كثيراً للحديث عن جمل الصحراء والحصان العربي، لانهما الحيوانان الوحيدان الشهيران جداً في تلك المناطق. ولكن يوجد غيرها كثير في بلاد العرب لايتحدثون عنها كثيراً ولكنها تستحق اهتمام عالم الطبيعيات ورغم انها لاتستثير كثيراً اهتمام الرحالة. وتقدم منطقة عمان نوعا من الحمير صخام الحجم، الى جانب الكلاب السلوقية ولاتقل عنها بغريزتها ومقدرتها في العدو ولكننا لانتحدث الا عما نعرف. ولسوف انتقل اذن للحديث عن حكومة بغداد. ورغم ان الحديث سيكون تخطيطاً غير متكامل دون شك، الا انه سوف يستند على معلومات حقيقية استطعت الحصول عليها. فالجزء الاول منها حصلت عليه في بغداد وفرها لي "درويش اغا"، حيث انه شخصية مرموقة. وكان وزيراً لدى سعيد باشا، ولجأ الى المقيم الانجليزي اثناء الاضطرابات التي تحدثت عنها انفاً، الى جانب ان سنه ومهارته والمناصب التي شغلها تجعل معلوماته شيئاً مؤكداً.

الفصل التاسع

ملخص تأريخ بغداد منذ (١٦٣٨) وحتى الوقت الحاضر

اذا ماعدنا بانظارنا الى قرون خلت، فاننا لن نجد بلداً اشهر من تلك المنطقة في تأريخ الانسانية على ماعتقد. انها تلك الواقعة بين نهري دجلة وفرات واصبحت قاحلة اليوم. لقد كانت قد اختيرت خصيصاً لتكون موطن الانسانية منذ بداياتها الاولى. لقد رأت اول ملكية احتفظ التأريخ بذكراها، بل وحتى اسست دولة في تلك العصور حيث كانت الحيوانات المفترسة مازالت تتصارع مع الانسان على سيادة الارض.

وكانت مركزاً لامبراطوريتين آشوريتين عاصمتهما بابل. ولكن مجد هذا البلد مايكاد يخبو حتى يستعيد عافيته من جديد بنفس البريق ان لم يكن افضل، وذلك في (سلوقيا)، و(المدائن)، و(بغداد) التي كانت عاصمة لامبراطورية العرب، وطارت شهرة بغداد في اكثر عصور الخلافة اشراقاً. وقد تم تأسيسها في ظل حكم محمد الثاني الملقب "بأبي جعفر المنصور" في موقع حديقة كان يقيم فيها احد النساك المسيحيين، ومازالت الحديقة تحمل اسمه.

وانا لم اكن انوي ان اعود الى تأريخ اقدم كثيراً من زماننا الذي نعيش فيه. وقد نمت بغداد وازدهرت ووصلت الى ذروة مجدها تحت حكم هارون الرشيد الشهير. ولكنها ومباشرة تحت حكم من خلفه بدأت عظمتها تأفل شيئاً فشيئاً حتى وضع القائد التركي "طغرل بك"، ومن بعده "هولاكو"، وضعوا حداً لازدهارها بنهاية الخلافة والتي عمل على سقوطها الى جانب ذلك نجاحاتها والترف الذي انغمست فيه وانقساماتها وتمزقاتها الداخلية.

اما تلك اللحظة الوحيدة الاولى التي تهيأت لي لاستعادة الحديث عن المدينة هي عودتها للتألق من جديد بعد سلسلة من الاندحارات واخذ نجمها يسطع من جديد كوكباً ثانياً يدور في مدار امبراطوريات نشأت حديثاً كانت تتنازع العظمة وعلو الشأن.. فقد تبعت اولاً الاتراك ثم الفرس حتى انتزعها السلطان مراد نهائياً والحقها بالامبراطورية العثمانية.

والدين، حيث العقلية الحقيقية هي السلام والرحمة، فهما مفهومان تم دائماً استخدامهما ذريعة لانزال العقاب عن طريق الحرب والدمار، وحتى الطموح نفسه فقد استخدمهما لتبرير النفس. اما الفُرس المتعجرفون اعداء الاتراك، ولانهم شيعة، انكروا قداسة المقام الذي شيده السنة لامامهم ابي حنيفة تكريماً له، فهو امامهم الاكثر علماً بين فقهائهم. ان انتهاك حُرمة الضريح والظلم الذي انزله الفُرس الهراطقة المكروهون بالمؤمنين الحقيقيين قد اعتبر اهانات لم يستطع ان يتقبلها او يتحملها اي من سلاطين العثمانيين. وقد قام احد العلماء الشارحين للقرآن برحلة من بغداد الى عاصمة الامبراطورية العثمانية، حيث طلب السماح له بالقاء خطاب امام الحاكم في المسجد. وبعد ان حصل عليها، قدم في تعابير قوية جداً وبطريقة مؤثرة جداً شرحاً لعذابات ومعاناة اخوتهم المؤمنين وعن وقاحة وجرأة الهراطقة الذين قاموا بانتهاك حرمة ضريح "الامام الاعظم ابي حنيفة".. وتصادف ان السلطان يتبع مذهب الامام نفسه، هل يمكنه ان يتحمل مثل تلك الاهانة؟ بالطبع لا. وظهر ان موقع بغداد بالنسبة له مناسبة جداً ليكون خطاً دفاعياً امامياً. وكانت بغداد تعود للاتراك الذين ظلوا نادمين آسفين على فقدانهم مزايا موقع تلك المدينة. وجاءت الفرصة المواتية جداً، فقد تم اشعال نار الحماس الدينى، وتقرر اذن الهجوم فقد كان هناك داخل اسوار بغداد قسم من السكان يؤيدون العثمانيين. وتم اعداد جيش توجه الى المدينة التي لم تقاوم اسوارها شجاعة العثمانيين،

وانتصر السلطان مراد: ودخل من باب كان قد تم تحصينه في تلك الفترة، ولان الباب قد تشرف كثيراً بمرور السلطان لدرجة لم يتم السماح لاقدام اخرى ان تتشرف بالمرور عبره. ويقول العثمانيون انه طالما ظل الباب مغلقاً محصناً، فسوف تبقى سلطتهم قائمة ثابتة في تلك المدينة. ولان السلطان مراد ومن جاء بعده مباشرة قد عرفوا اهمية ذلك الموقع وكيف انه من السهل على من يحكم بغداد استغلال السلطات التي انيطت به، فقد قرروا عدم ترك الباشا نفسه، حاكماً لبغداد لفترة طويلة. وفي السنوات السبع والستين التي تبعت الغزو، بلغ عدد الباشوات الذين حكموا بغداد سبعة وثلاثين.

ان احد الاثار الطبيعية للاستبداد هي ان تلك الوسائل نفسها التي تستخدم لادامة الاستبداد، تؤدي بالتحديد الى نتائج مغايرة تماماً. وعندما تكون القوانين ثابتة ومعروفة، وعندما لايتخوف المرء سوى من استغلال الحاكم للسلطات المنوطة به، ويكون التغيير المتواصل للحاكم وسيلة تجعل من مشاريع الطموح امراً اصعب كثيراً بل واكثر خطورة. ولكن، عندما يكون كل شئ متعلقاً بارادة المستبد، وعندما تكون تلك الارادة مترددة وعرضة للتغيير المتواصل، فلن ينتج عن ذلك النظام السئ سوى الضعف والفوضى. وكما يتسبب الداء نفسه في ايجاد الدواء، وعندما نُحس بضرورة وجود حكومة قوية من اجل خير المجتمع، فان تلك القوى نفسها تنظم وتنتظم وتخرج بالضرورة من الحدود التي وضعت او التي ادعوا وضعها امام الطامعين في السلطة.

وذلك هو ماحدث لباشوات بغداد، ولم يكونوا في البداية سوى صنيعة السلطة، وبما ان تلك السلطة العليا بعيدة جداً وضعيفة غالباً ومتأرجحة في قراراتها يتوجب اذن للحفاظ على بقائها ان يكون من يمثلها مُزوداً بالقوة الكافية لتصحيح الاخطاء والمشاكل التي تنتج عن ضعف

السلطة البعيدة. ولكن سياسة مغايرة يمكنها ان تؤمن سلطة الحاكم على اتباعه ولكنها تفقده احترام الجموع وكذلك ذلك التأثير الذي لايمكن الحفاظ عليه الا بنشر قوة مؤثرة مهيبة في تلك المناطق.

وفي زمن الفوضى، يتزعزع موقف بغداد وسكانها ولن يكونوا على مايرام. فقد كان منصب الباشا مُزعزعاً وخطيراً. وتحكم الانكشارية المدينة في حين كان العرب اسياد جميع المناطق المحيطة بها. وانهارت التجارة بسبب فقدان الحماية والثقة لدرجة ان تجار تركيا وسوريا تناسوا تماماً طريق بغداد، وغالباً ما يذهبون الى اصفهان ليتعاملوا مع تجار الهند وغيرها من البلاد.

وفي عام ١٧٠٢م اي سنة ١١١٤هـ. اصبح "حسن باشا" حاكماً لبغداد للمرة الثانية وقد احتفظ بمنصبه حتى وفاته. وقد امتد به العمر ليقوم باخضاع الانكشارية والعرب، ولكي يحافظ على سلطانه والامن والاستقرار في اراضيه. ولكن تلك السلطة امتدت فقط في المدينة والمناطق المحيطة مباشرة بها مثل (منطقة شهرزور) التي تحتضن القسم الاكبر من كُردستان. وكان لـ(ماردين) و (البصرة) حكام آخرون. ولانه كان سياسياً ومقداماً، فقد عرف كيف يستغل الانقسامات داخل فارس. وكافأته الحكومة بالحاق حكومة ماردين الى سلطته في بغداد. واخيراً، استطاع بمكائده الحصول على حكومة البصرة من اجل ولده احمد، وعلى وعد منه بتزويد الباب العالي سنوياً بمبلغ كبير. فقد كان الباب العالي يعتبر مدينة البصرة مجرد سلعة للحصول على المال. وتوفى "حسن باشا" في كرمنشاه في احدى غزواته، بعد ان ظل باشا بغداد لاثنتين وعشرين سنة.

وكان احمد الذي اصبح باشا البصرة، يصاحب والده في تلك الغزوة، وتوجه دون تردد او تأخير الى همدان واستولى عليها. وطارت

شهرته بسبب تلك الغزوة لدرجة ان الباب العالي قد عينه باشا على بغداد وماردين والبصرة، وذلك لاثارة حماسه ودفعه الى مواصلة الحرب ضد فارس وبنجاح. وفي عهده حاصر "نادر شاه" بغداد عام ١٧٣٢، وظل كذلك لثمانية اشهر، ولكنه لم يستطع الاستيلاء عليها، واشترى "احمد باشا" انسحابه باعادة المدافع التي كان قد استولى عليها في همدان. وقد حافظ على هيبته ولفترة احدى عشرة سنة تلت وفاة والده. وفي نهاية تلك الفترة، كان رئيس الوزراء الذي كان موجوداً آنذاك اثناء حملة همدان، والذي كان يشتعل غيرة من ذلك المجد الذي يحيط بـ"احمد باشا" واستطاع ان يحصل على امر باستدعائه. وظن الجميع عامة ان "احمد باشا" لن ينفذ الفرمان الامبراطوري، وكان اعداؤه ينتظرون تلك اللحظة لاعلانه متمرداً، ويضع رأسه على المحك. ولكنه، وعلى خلاف ما كان يتوقعونه، انصاع للامر الذي اصدره الباب العالي بل انه تم تشريفه لحرصه واخلاصه، كما انه قد حصل على المجد لشجاعته ومواهبه.

وخلال سنتين فقط، ارسلوا لحكم بغداد عدداً كبيراً من الباشوات، ولكنهم كانوا غير قادرين على السيطرة على السكان والعرب في الضواحي. وبما ان سلطة "نادر شاه" كانت في تصاعد مستمر، وجد الباب العالي نفسه وديوانه مجبرين على تعيين "احمد باشا" مرة اخرى، فهو الوحيد في نظرهم الذي يمكنه ان يُمسك بزمام الامور، وان يهزم عدواً مُخيفاً كهذا. واذ عرف ان خدماته اصبحت ضرورية، فقد تخطى مايطالبه رئيسه به، فهو لن يحاول القيام بغزوات ضد عدو بقوة نادر شاه. ولكنه كقائد في الجيش التركي استطاع الاستيلاء على مناطق مختلفة من كُردستان، كان يحكمها باشوات آخرون والحقها بسلطته. ولما كان الامر يتطلب استدعاءه مرة اخرى، استطاع في حذق ان يستفز نادر شاه للعدوان على البصرة. انذاك فقط عادت له باشويته وكرامته في جميع الميادين وفقاً لفرمان جديد. وليس

ذلك فقط، بل ارسلوا له مختلف الوان المساعدة، المال والمدفعية والذخيرة الحربية للدفاع عن البصرة.

وكان الاعتقاد السائد ان الباب العالي قد ارسل اكثر من حارس شديد اليأس عليهم ان يُحضروا رأسه. ولكن احمد باشا كان له عملاؤه واصدقاؤه في العاصمة وعلى طول الطريق والذين كانوا ينقلون اليه الاخبار، وكان دائماً يجد الوسيلة للتخلص منهم في الطريق. ومع ذلك نجح احدهم في احاطة رحلته بسرية تامة واستطاع ان يستخدم بعض الوسائل لدرجة ان "احمد باشا" لم يعلم بمجيئه الا قبيل ساعات من حضوره. وكان موقفه حرجاً جداً لدرجة انه لم يبق لديه سوى امكانية ركوب حصانه مع بعض كبار ضباطه. وخرج من المدينة بحجة قضاء بعض الوقت حيث يتسلى برمي رماح الجريد، وهي لعبة عسكرية كثيراً ما كان الاتراك يتسلون بها. وما كاد احمد باشا يخرج من المدينة حتى تقابل مع الجندي الحارس كما لوكان في انتظاره. وقدموا له كل الاحترام والتشريف اللازم تقديمه لرجل يحمل فرماناً سلطانياً. وعرض عليه احمد باشا مشاركته في اللعبة الترفيهية بل عرض عليه ان يكون هو من يتشارك اللعبة معه. وكان الاتراك مهووسون بتلك اللعبة ودعوته للمشاركة تعتبر اشارة على انه متميز، لدرجة ان الجندي الحارس اجل الامور الى الغد وبدأوا اللعب وكان احمد باشا قد حصل على رمح حاد جداً ورماه على عدوه وقتله في الحال. وجمعوا رسائله وجميع اوراقه، ووضعوها داخل مظروف دون ان يقرأوا شيئاً وارسلها احمد باشا الى الباب العالي بشكل رسالة هامة جداً لكي يقرأها دون ان يأخذ اذن السلطان. وارفق بها رسالة عزاء يواسيه فيها على هذا الحادث الاليم.

وخلف احمد باشا وراءه فتاتين شقيقتين لأم واحدة. وكان شغوفاً بالشؤون الحربية، وكان متميزاً في ميادينها. كما كان يحب صيد الاسود

ويعتبره افضل تسلية يقوم بها. وغالباً ماكان يذهب وحده، ولم يكن يريد ان يشاركه احد شرف قتله. وفي احدى رحلات الصيد تلك انكسر رمحه ولم يستطع احد ان ينتصر له لانه كان يود ان يكون وحده، وكاد ان يكون ضحية جرأته وتهوره، عندما هب سليمان، عبد والده والجيورجي الجنسية لنصرته ومساعدته متخلياً عن جميع الامتيازات واندفع نحو الاسد وقتله في الحال. وكافأه احمد باشا على ذلك بتزويجه ابنته الكبرى ورفعه بالتدريج الى اعلى المراتب التي قادته بعد ذلك الى ان يخلف والد زوجته بعد وفاته على حكم البلاد. وعندما تُقدم مكافآت كهذه،يمكن تصديق عبء العبودية لم يكن ثقيلاً جداً، والامثلة على ذلك ليست نادرة.

ولدى وفاة احمد، الذي قُتل في احدى المعارك ضد الكُرد، بعد حكم دام ثلاثة وعشرين عاماً، وان حكام مدنه ومناطقه التابعة له كانوا صنيعته او صنيعة سليمان والجميع متهيؤون لتأييد الوزير المقرب للمتوفى. ولانه كان يتمتع بالاحترام لشجاعته ومواهبه وقدراته، اما بسبب ابنة او حفيدة ثاني اخر باشوات فوض لهم الامر، وان يكونا قد حكما بغداد فعلاً. ولكن الباب العالي الذي كان غيوراً بسبب التأثير المتزايد لتلك الاسرة لم يعطهم الوقت ليتداولوا امرهم، وسارع بارسال احد الباشوات الى بغداد متعمدين في ذات الوقت تأدباً يمنح سليمان حكم البصرة. وذلك لتخفيف الضربة التي وجهها له.

وخلال سنتين، تم ارسال اربع باشوات ووجدوا ان ما اوكل اليهم امر صعب جداً ويفوق طاقاتهم. وتمت سرقة الاول اثناء الطريق على يد الاعراب واستقبلوه في المدينة بكل احتقار وسخرية، والثاني قُتل قبل وصوله، والاخران لم يكونا قادرين على الامساك بزمام الامور وادارة الاحداث وما كادا يتمتعان باية سلطة داخل المدينة. واخيراً رفع سليمان القناع وتقدم على رأس جيش تابع له من البصرة وحتى السماوة.

وعندما تلقى الامر بالانسحاب لم يذهب ابعد من الديوانية، وهي مدينة كان يحكمها "علي آغا"، والذي كان يدين لاحمد باشا بتقدمه كما كان مخلصاً لسليمان. وكان هذان القائدان متفاهمين جداً. وقدم علي اغا لصديقه مساعدات مالية سرية. وتظاهر علي اغا بالخوف والذعر وفرّ هارباً الى بغداد ولكن لكي ينشر انباء تقدم ونجاحات سليمان. وفي الحال، تم اعداد جيش قوامه اربعة عشر الف جندي وارساله الى الجبهة. وترأس محمد ترياكي، باشا بغداد. ذلك الجيش وسار نحو سليمان الذي كان مُعسكراً قرب الحلة.

ولم يكن تحت امرة سليمان سوى ثمانمائة فارس ولم يحاول سليمان ان يتحرك او ان يضرب وهو يتراجع، وقد دُهش الجانبان لشجاعة وجرأة بعضهما البعض. ولكن علي اغا، واثناء بقائه في العاصمة عمل على تأليب جميع الضباط لصالح سليمان. وعندما التقى الجيشان في ساحة المعركة، هتف الجيشان معاً لسليمان. ولم يكن امام "محمد ترياكي" سوى الفرار. وعندما وصل العاصمة وجد ابوابها مُغلقة في وجهه. ووصلها سليمان بعد قليل، حيث استقبله الجميع بهتافات الترحيب والفرح. وفي الحال امسك بزمام الامور والسلطة والديوان. ومن ثم ارسل الى الباب العالي مذكرة يشكو فيها سوء ادارة من سبقه من الباشوات ومطالباً بتعيينه باشاً على بغداد. وكان من الصعب رفض ذلك الطلب لمحارب كان يحكم ذلك المكان من قبل. وتم تعيين "سليمان باشا" على بغداد وعلى جميع المناطق التي كان يحكمها او التي استولى عليها عنوة والد زوجته.

واستمر "سليمان كهية"، او "سليمان الكبير"، يحكم ثلاثة عشر عاماً، وكان الشعب يحبه لدرجة انهم غنوا مرثيات عديدة له ترحماً على وفاته و مازالت تلك المراثي يرددها المغنون في مقاهي بغداد الى اليوم. ولم يتمكن احد من السيطرة على العرب واخضاعهم سوى في عهد احمد

وسليمان. وكان من الصعب السفر على النهر بين الحلة والبصرة بدون وجود حراسة كبيرة وبثمن كبير نسبياً. ولكن في ظل حكم "احمد باشا" و"سليمان باشا" ساد الامن والامان تماماً. ولان طرق فارس لم تكن آمنة، تحولت تجارة الهند كلها الى بغداد والبصرة ولصالح هاتين المدينتين وضواحيهما.

وقد اظهر سليمان قسوة وحزماً كبيرين تجاه العرب، وكان دوماً يهاجمهم فجأة لدرجة لايكادون يجدون الوقت للفرار الى الصحراء. وفي الوقت الذي سماه سكان بغداد سليمان الاسد، كان البدو يطلقون عليه "سليمان ابو الهول"* يعني ابي الليل لان حملاته المفاجئة كانت تداهمهم ليلاً. وما كان ليترك لهم فترة راحة مطلقاً قبل القيام بحملاته. وكان جيرانه الباشوات, رغم انهم يتمتعون بنفس سلطاته، فقد كانوا يشعرون باثار انتقامه عندما يجدون انفسهم عاجزين عن السيطرة على القبائل الرحل الذين يتجولون في حدود سلطتهم. وذات مرة نهب بدو تابعون لباشا دمشق قافلة من بغداد، ويؤكد الجميع ان سليمان قام على رأس جيش وعبر الصحراء في تسعة ايام لينتقم لتلك الاهانة، وقام بنهب المدينة رغم ان دمشق تابعة كذلك لسلطة باب العالي. وتثير احداث كتلك القراء الاوروبيين ولانه بواسطة سياسة قوية كهذه يسود الاستقرار والامن والنظام في ظل الحكومات الشرقية الضعيفة والمستبدة. وكان احمد باشا يحترم بشكل عام القيمة حتى لو كانت لعدوه. ولكن واحدة من صفات سليمان غير المحببة هو انه لايتحمل ان يسمع مديحاً حتى لو كان موجهاً لصديق، فذلك سيكون على حساب استحقاقه هو كما يعتقد. ولكن موضوع التذمر الرئيسي منه، هو احترامه الكبير لرغبات زوجته،

---

* كان معروفاً بـ"سليمان باشا أبو ليلة"، حكم بغداد في الفترة (١٩ شوال ١١٦٢هـ- أول ١١٧٥هـ). [مؤسسة ژين]

عادلة خاتون ابنة احمد باشا المتكبرة الطموحة التي لاتكاد تنسى ان زوجها ورغم المنزلة الكبيرة والرفعة التي وصل اليها، كان يوماً ما عبداً لوالدها. وكانت عادلة خاتون تخصص اياماً في الاسبوع تستقبل فيها اولئك الذين يطالبون بتحقيق خدمة ما لهم. ولكنهم لم يكونوا يقومون بذلك في حضرتها، وانما كانوا ينتظرون في غرفة صغيرة ملحقة بالحرم الملكي وحيث يوجد غلام يتمتع بثقتها ويتسلم الطلبات ويقدمها لسيدته ثم يعيد الجواب. وبهذه الطريقة كانت تعرف كل مايدور. وكثيراً ماكانت تنجح في فرض الرجوع عن قرارات كانت قد اتخذت بعد مشاورات كثيرة غاية في الجدية. ولطموحها واهتمامها، استطاعت "عادلة خاتون" ان تحصل على المال بكميات كبيرة. فعندما يفوز اي اغا بمنصب ما، او تثبت في منصبه اعتاد الباشا ان يقدم له معطفاً من الفرو اذا ما كان تركياً، او معطفاً كبيراً اذا كان شيخاً عربياً.

وكانت عادلة خاتون ترسل عادة للقادة الذين كانوا قد قدموا خدمات لجدها حسن او لوالدها، شريطاً حريرياً مُطرزاً لكي يُلف حول الرأس لتمييز من يضعه، عمن جاءوا بعدهم في مناصب عليا. ومع مرور الوقت كانوا يعملون بكل جهد للحصول على علامة التمييز تلك، وكانوا يشترون ذلك الشريط الحريري مقابل هدايا باهظة. وهكذا، اصبح من المعتاد الحاق ذلك الشريط بمعطف الفرو ورغم انه ليس بالشكل اللازم لتقليد المنصب، الا ان الجميع كانوا يودون الحصول عليه وباثمان باهظة.

وكانت هناك عداوة معروفة بين الاختين: عادلة خاتون واختها الصغرى، وكان قد تزوجت باحمد اغا، وهو شخصية مرموقة ومن اسرة عريقة، الى جانب انه كان يتمتع بعطف الباشا، ولكن لسوء الحظ، اثار في نفس "عادلة خاتون" بعض الشك. ورغم انه رفض شرف التخلص من سليمان بطلب من الباب العالي، الا انه دفع رأسه ثمناً لذلك، كما لو انه

كان يسعى فعلاً لذلك. واجمع ذلك الحدث العداوة بين الاختين، الا ان سليمان قرر اخيراً ولكي يجمع بين مصالح الاختين، قرر تزويج الاخت الصغرى من رئيس وزرائه "عمر".

ولم يكن ذلك الامير مستعداً بدوره ان يضحي برأسه كما فعل من سبقه "احمد اغا". ولكنهم يعرفون في القسطنطينية ان الباب العالي لن يستعيد مطلقاً سلطانه على تلك البلاد، ويقال انهم قاموا بعدة محاولات للاطاحة به. ولكن اذا ما خامر سليمان ادنى شك، لايتردد حينذاك ان يطيح برأس من يشك فيه.

كنت قد ذكرت سابقًا ان "احمد باشا" قد توفى في احدى معاركه ضد باشا كُردستان. وكانت وفاته طبيعية، ولكن "عادلة خاتون" لم تترك لزوجها فرصة للراحة الا بعد ان ينتقم لوفاة والدها من ذلك الذي تسبب في هذه الحرب. وشن سليمان عدة غزوات ضد باشا كُردستان، ولكن عدوه كان ينجو دائماً بالهروب الى الجبال. فتوجب آنذاك اللجوء الى الحيلة. فاقاموا له دعوة لزيارة بغداد، وارسلت له "عادلة خاتون" شريطاً مطرزاً فاخراً. وخدعت كل تلك المظاهر باشا كُردستان، الذي تخلى عن حذره ولم يعد يخشى على سلامته. بل انه تمادى في عدم الحيطة والحذر حتى وقع بين يدي عدوه. وما كاد يصل بغداد حتى تم اعتقاله، وقتل غداة وصوله في احد اجنحة القصر.

وكانت "عادلة خاتون" حريصة جداً، وغيورة على مصالحها ونفوذها فلم تسمح مطلقاً ان يتخذ زوجها زوجة ثانية، او حتى ان تكون له مَحظية، لدرجة انه توفى ولم يخلف وراءه ذرية، ووجدت نفسها وريثة ثروة طائلة. وعاشت "عادلة خاتون" حتى عام ١٧٦٤ ومتمتعة في بغداد بثروة وحسابات لاتحصى، وشيدت مسجداً وخاناً في العاصمة يحملان اسمها ولاتوجد مدينة او ناحية اقل شأناً الا وساعد كرمها على تشييد اجمل اثارها.

وعندما توفى سليمان، كان "علي اغا" الذي سبق وتحدثت عنه، حاكماً على البصرة. وطالما انه كان قد تسنم جميع المناصب الاولى وهو شخصية محترمة جداً، فقد كان الامل يراوده في ان يخلف سليمان، وقد نجح في ذلك بفضل توصيات الديوان والهدايا الثمينة التي ارسلها لوزراء الباب العالي العثماني. ومع ذلك لم يبق في سدة الحكم الاّ اثنين وعشرين شهراً فقط.

وهناك مجال للاعتقاد، تماماً كما اتيحت لي فرصة ذكر ذلك، ان "عادلة خاتون" كانت سبب ضياعه. ولم يدخل "علي اغا "بغداد عبداً كما هو حال اصل كبار الضباط. لكنه ولد في فارس لاسرة فقيرة، ومن هنا لقبه العجمي اي الفارسي. وقد اندرج منذ شبابه المبكر في الخدمة العسكرية لدى احد ضباط "احمد باشا". وقد لفت سلوكه انتباه الباشا الذي علمه كل مايمكن ان يعرفه رجل تركي مميز ورفعه بعد ذلك بالتدرج لتسنم اعلى المراتب. وقد عرفته عادلة خاتون في شبابه، كما كانت تعرف كل مايدين به لوالدها، وصرحت مراراً في تفاخر بانها تتمتع بنفس النفوذ الذي تمتعت به في عصر زوجها. ولكنها كانت مخدوعة في امالها. فقد اتخذ علي اغا قراره بان يحكم وحده. وقد اراد ان يقلل من سلطة الانكشارية وهم جهاز جرئ، مقدام كما هو معروف وخاصة في فترات الفوضى التي تفصل بين وفاة الباشا وحتى تعيين باشا جديد. وبما انهم متمردون في بغداد كما في البصرة، فقد شعر بضرورة اتباع مثل تلك السياسة. ولكن لان عدداً كبيراً من السكان قد اندرجوا في صفوف الانكشارية بسبب الامتيازات الكبيرة التي يتمتع بها من يحمل ذلك الاسم. واصبحت المدينة بعد ذلك تحت ايديهم، وحدث تمرد واضطر الباشا للفرار من بغداد.

وبفضل مساندة كبار القبائل الرئيسية العربية، والتي كانت بشكل عام تناهض سكان المدينة، واستناداً على مخبريه وكبار الاشرار اصدقائه، لم

يمض وقت طويل حتى عاد الى بغداد. وقام باعدام العديد من الانكشارية. وبعد فترة من الوقت اعلن بعض باشوات الكُرد الحرب عليه، وتبعتهم بالمثل قبيلة الخزاعل العربية. وانتصر على الكُرد انتصاراً كاملاً تاماً في حين انتصر عليه العرب تماماً ولدرجة ان ذلك الانتصار كان موضوع اغنية يتغنون بها في شوارع بغداد. وآنذاك فقط، وجدت عادلة خاتون فرصتها التي انتظرتها طويلاً. ولم تعد تتحمل الا يأتي احد يستشيرها ويأخذ برأيها، الى جانب انه كان هناك رأى بابعادها عن بغداد. وقررت ان تعمل على اسقاط الباشا. وأشيع انه كان يُخفى اتباعه للمذهب الشيعي، مذهب الفرس. وقدموا مثالاً على ذلك قسوته الشديدة مع الكُرد والانكشارية وهم من السنة. بل، انه قد ترك العرب الخزاعل وهم شيعة كما الفرس يهزمون جيش السلطان. واخذ كل يفكر اين او متى اظهر علي اغا تحيزه للشيعة. واخيراً سادت اشاعة تقول بان الباشا من الهراطقة، وانه انما ينتظر فقط الفرصة المناسبة ليقدم البلاد للاعداء الفرس.

ومن بين الشخصيات الهامة في بغداد، خمسة من الاشراف كانوا في الاصل مملوكين لاحد الباشوات والذين نشأوا منذ شبابهم نشأة اسلامية. وقد تناوبوا في مراكز كبيرة في العاصمة وفي المحافظات والبلاط. وكانت تربطهم صداقة حميمة مع بعضهم ومع "علي اغا"، كذلك الذي كان قد ساهم في تربيتهم. فمن المؤكد اذن، انهم تتبعوا باهتمام تلك الشائعة. ولكنهم في ذات الوقت كانوا يحترمون عادلة خاتون الزوجة الابنة والحفيدة لمن قام على تربيتهم، وذلك بالرغم من اخلاقها المتعالية والتي كانت في كثير من الاحيان تثير حنقهم. ولكن حدث انه في حين كانت الامور تسير في ذلك الاتجاه توفى فجأة احد هؤلاء الاشراف الخمسة. وفي الحال، سارعت "عادلة خاتون" في نشر اشاعة مفادها ان الباشا قد امر بتسميمه. واستطاعت بمهارة ان تضيف مايدفع للاعتقاد باحتمالية وقوع مثل تلك الجريمة. بل واكدت انها علمت ان الباشا حصل على

فرمان باعدام الاخرين الاربعة. وعندما يكون لديك امثلة في كل وقت على الخيانة، فلن تهمل مطلقاً راياً يميل الى الحديث عنها. وهكذا تيقن الاخرون بوجوب توخي الحذر، والخوف على سلامتهم. وكانوا المساندين الرئيسيين لسلطة الباشا. ولانهم خافوا على حياتهم دبروا لة مؤامرة سرية لايعرف حتى اقرب اصدقائهم ساعة التنفيذ، ويعني ذلك عندما تهب المدينة كلها ضده. ولم يتبق امام الباشا سوى الفرار. وتخلى عنه جميع اتباعه، وخرج من القصر متخفياً في زي امرأة. وكان ينوي الاستعانة بالعرب، وتعرفوا عليه قبل ان يخرج من بغداد وقُتل في الحال.

واجتمع الديوان في الحال ليختارالباشا من بين الاشراف الاربعة الكبار الذين تحدثنا عنهم سابقاً، ومن بينهم اثنان اعترفا بعدم رغبتهما في المنصب، فقد كانا يعتقدان ان ذلك المنصب لعمر زوج الاخت الصغرى لعادلة خاتون. ومحمود الذي كان يحكم البصرة كان اكثر جرأة واقداماً من صاحبيه ويأمل ان يحظى بالمنصب.

وكان عمر حاضراً في اجتماعات الديوان، ولايتميز بمعارف في مجلس الوزراء، ولابمواهب في ميدان القتال. ولكنه يمتلك صفات شخصية حيمدة، كما انه زوج لسيدة محترمة ومحبوبة ليس فقط لصفاتها الحميدة بل ولكونها ابنة احمد. ووافق الديوان على تسميته باشا بغداد مؤقتاً وارسلوا مذكرة بهذا المضمون الى الباب العالي. وقالوا في المذكرة ان علياً كان مهرطقاً وانه كان ينوي عرض المدينة على الفرس في الوقت الملائم. ولهذه الاسباب وغيرها كثير.

ثار الشعب ضده واعدموه. وتبعهم الكُرد والعرب وثاروا ضده. وان عُمراً هو الوحيد القادر على اعادة استتباب الامن والهدوء ويأمل الديوان ان يستجيب الباب العالي ويأمر بتثبيت عمر في المنصب الذي تسنمه مؤقتاً. وذكرت سابقاً ان التصرف الحالي لبلاط القسطنطينية هو في تثبيت من

يكون في المكان المطلوب، حتى لوكانت ظروف اختياره غير نظامية. وتثبيت كهذا ينقذ شرف ومكانة الامبراطورية ولا يكلف شيئاً، بل ويمكن التغيير دائماً بتعيين شخص اخر اذا ما سنحت الفرصة. وهكذا تم تثبيت عمر وبشكل نهائي باشاً على بغداد في صيف عام ١٧٦٤.

وفي العام الذي تلاه اعلن الحرب على قبيلة الخزاعل العربية وحرق مدينة (لملوم) مقر الشيخ الاعتيادي، وقطع رؤوس خمسة او ستة شيوخ اقل مكانة منه. اما في التقرير الذي رفعه للباب العالي ووصف هزيمتهم بانها نهائية وتلقى التهاني من الباب العالي على انتصاره. ومع ذلك ظهر الشيخ في لحظة لم يكن يتوقعه فيها احد، وطرد الشيخ الذي عينه عمر في مكانه رئيساً للقبيلة واجبر الباشا الذي لم يعد يفكر في القيام بحملة ثانية ضده، اجبره على تثبيته في مكانه ومنصبه. وقد شغلته قبيلة كعب بدورها مرات عديدة بل ويمكن القول انه طوال فترة حكمه، لم تمض سنة لم يدخل فيها حرباً ضد العرب او الكُرد. وهي معارك لايتأخر الباشوات من خوضها ليظهروا مدى شجاعتهم واقدامهم. وحتى يتم اعفاؤهم من دفع الجزية للباب العالي نظراً لما تسببه مثل تلك المعارك من مصاريف.

وفي العام ١٧٧٥، قام "كريم خان" شاه شيراز بحصار البصرة. وانتشرت اشاعة تقول، انه قام بذلك، ليس لاثارة عداوات مع الباب العالي، وانما لمعاقبة عمر والانتقام منه لانه سبب له الكثير من المضايقات. وعاد الناس بالذاكرة وظن الناس ان عُمراً يقلد سياسة احمد الذي كان يستفز الفرس ليهاجموه وليدلل على اهميته وضرورة وجوده. وارسل الاتراك جيشاً ضده وعلى رأسه العديد من الباشوات. واستطاعوا ان يتغلّبوا عليه ويقبضون عليه في بدايات ١٧٧٦. وقد وعدوه بالعفو، وبحكومة (الرّها) بدلاً من حكومة بغداد. ولكن الاتراك نادراً ما يتمسكون بوعودهم، وما ان اصبح تحت سلطتهم حتى قطعوا راسه وارسلوها الى القسطنطينية.

وكانت تلك فرصة مناسبة لاستعادة نفوذ الباب العالي الذي فقده منذ ان استولت اسرة حسن على السلطة في بغداد. ولم تسمح زوجة عمر بدورها ان تكون له زوجة ثانية او حتى ان تكون له مملوكة او عبدة. ولذلك فلم يترك ذرية وراءه عند وفاته. ولكن سكان بغداد، تعودوا منذ زمن طويل ان يختاروا الباشا الذي يحكمهم ويقوم الباب العالي بعد ذلك بتثبيته في موقعه. وحدث كهذا لايعيد للباب العالي سيطرته على اسس متينة. وانتخب الشعب "عبدالله كهية"، ليقوم بلاط القسطنطينية بتثبيته كما هي العادة.

وفي بدايات عهد عبدالله في ربيع ١٧٧٧، استولى الفرس على البصرة عبر خيانة الحكومة، ولكن وجودهم في تلك المدينة التي سادتها الفوضى كان غير مجد لهم تماماً. واضطر كريم خان التخلي عن انتصاراته ليجابه اعداء كانوا يهددونه من جهة اخرى.

وطالما انه لايمكن الاعتماد على الامساك الهادئ بمكانة تمنحها غالبية غير ثابتة او مستقرة يوجهها بعض الرؤساء، وكذلك لايمكن الاعتماد على تسميتهم من قبل سلطة عليا تتمتع بحق الخضوع واطاعتها، فاننا نرى عبدالله، عبدي، مصطفى وحسن، وهم اربعة باشوات لم يحكموا فيما بينهم سوى ثمانية اعوام لم يقدموا سوى صورة ظاهرية لسلطة تتقاسمها الشخصيات الرئيسية في المدينة. وهم بالتناوب اما مماليك او طغاة ينزلون الظلم بالشعب او بضباطهم المقربين، ولم يستطع اي منهم ان يثير الاهتمام سوى بضعفه، وأثاره، ولم يتركوا اثراً في التأريخ، هذا اذا لم نكن نود الحديث عن القسوة المبالغ فيها التي مارسها مصطفى ضد جريمة بشعة، وذلك بالقاء المذنب من فوق اعلى المنائر عقاباً له وهي عادة شائعة بين الاتراك.

ومع ذلك، وفي ظل سليمان الذي كان يطلق عليه اسم "سليمان الكبير"، والد صهيود سئ الحظ الذي تحدثنا عنه سابقاً عن نهايته المؤسفة. ترى ان سلطة الباشا يعمل تسامع الباب العالي على تقويتها وتثبيتها. ولكن بقاءها يتوقف في النهاية على امكانياتها الذاتية وحدها. وخلال حكم طويل دام لاكثر من عشرين عاماً، اتبع "سليمان الكبير"، سياسة قوية اكثر منها حكيمة وزاد نفوذه واصبح قوياً لدرجة ازالت تماماً تقريباً. التأثير المتأرجح لبلاط القسطنطينية. وكانت صفاته قاسية جداً لاتتزعزع، ونجح في اقامة ونشر النظام والامن في اراضيه، وقضى في المدينة على تجاوزات الاشراف والانكشارية واوقف في الخارج الاستهتار الذي مارسه العرب والكُرد بقوة السلاح. وترك عند وفاته سمعة حازمة وقوية وقائمة من الاصدقاء المخلصين لمصالحه، واسرة كبيرة العدد مازال الاولاد صغاراً لكي يأخذوا مكانه.

ونظراً لصغر سن ابنائه وعدم وجود من يتمكن من بينهم الامساك بزمام الحكومة، تم الاختيار علي احد ضباطه ليأخذ مكانه ولكنه مالبث ان تم اغتياله في المسجد اثناء صلاة الصبح على يد مملوك جيورجي. ونجح سليمان الصغير، الذي كان قد تزوج الابنة الكبرى لسليمان الكبير، نجح في الحصول على منصب الباشا. وارجع الجميع تقريباً، مقتله لاسباب انتقامية او لعدم الرصانة. وكان الجيورجي قد استغل اللحظة، نظراً لتخلي علي عن سلاحه الثمين المزخرف اثناء الصلاة، وفقاً للعادات الاسلامية. وانظر وتعجب من دقة المنطق التركي. قُتل علي اثناء صلاة الصبح، ومنذ ذلك الوقت تخلى الباشوات عن المشاركة في صلاة الصبح، ولم يفكروا في اتخاذ اجراءات احترازية ضد نفس الخطر الذي يمكن ان يواجهونه عند صلاة الظهر والمساء.

ورغم انه مشهود له بالشجاعة كما هو تقريباً حال جميع الضباط الاتراك، الا ان "سليمان الصغير" لم يكن مؤهلاً بمواهب الامارة الضرورية، وتوفى في احدى الحملات التي لم تجهز جيداً ضد قبيلة عربية اراد اخضاعها. وكان منصاعاً تماماً لتأثير زوجته ونفوذ اسرتها. وفي هذه البلاد حيث تعدد الزوجات، فان من يتزوج من امرأة نبيلة المولد، من الطبيعي ان يصبح اول عبدٍ لها. فهي تحتفظ بكل ثروتها وتواصل التمتع بتأثيرها الكبير، وفي حال عدم انصياعه لرغباتها فانها تجد وسيلة للتخلص منه. وحقيقة اوضاع وظروف نساء تلك البلاد تخدع معارف الكثيرين. وفقط من تقع في احبولة العبودية هن النساء ذوي المكانة الاجتماعية الدنيا. وتزداد امتيازات الرجل في تركيا عُزلة النساء. ولكن يجب ان نتفق ايضاً على ان الخضوع المخالف للطبيعة الذي يفرض على المرأة ذات المولد النبيل من المرجح، يعمل على توازن كفتي الميزان.

وكان سليمان الصغير، كما هو حال اثنين ممن سبقاه ظل محتفظاً بزوجة واحدة، ولذلك لم يترك وراءه ذرية بعد وفاته. وجاء من بعده "عبدالله الطيب"، وجعلته صفاته الجميلة الرحيمة جديراً بذلك الاسم. وكان خلوقاً جداً لكي يستطيع ان يحكم قوماً متمردين. وفي تلك البلاد التي لاتعرف شيئاً عن سيادة القانون، فلن يكون الحاكم انساناً كريماً دون ان يقع في المخاطر؛ لانه لايستطيع ان يعفو عن اعدائه، او ان يثق باصدقائه. كما ان ابتعاده عن الاخذ باجراءات الشدة والقسوة من اسباب ضياعه، لانه لايمكن ان يحكم شعبه الا بالحديد والنار. وان كان يريد اصلاح الخطايا، فان عدالته الخالصة غير المنحازة والمدبجة بالانسانية، واخلاقه تدفعه لان يكون ضحية الانحطاط العام. وقد خانه الجيش في احدى حملاته ضد عرب المنتفك وقطعوا رأسه.

وسعيد، الابن البكر لشخص خلف وراءه شهرة كبيرة، سليمان العجوز، وتسلم زمام السلطة بطلب من جميع اجهزة الدولة حيث كان الجميع

يتوقعون حكماً مُستقراً ومُزدهراً. ومنذ ربيع شبابه، كان هادئاً، دمث الخلق، محترماً في حياته العامة والخاصة. وقد نسى تماماً ان هذه الصفات جميعاً كانت قد حكمت على "عبدالله الطيب"، بالضياع. وكان رمزاً للشعب، ويجب عليه اثبات اخلاصه الاكيد للبلاد كما فعل من قبله الكثيرون. ولكن اول عمل قام به وهو في السلطة هو ان يغمر ذويه واصدقائه بجميع الامتيازات المتاحة له. وقد اسرف كثيراً في كرمه ولم يفكر كثيراً في غده فهو لايألوا جهداً لايجاد الوسائل العديدة ليقدم مكاسب جديدة كما كان محباً للهدوء والراحة، واهمل في واجباته تجاه شؤون الدولة تاركاً اياها لوزرائه وللمقربين اليه. وبما انهم لايمتلكون الخبرة كما حال رؤسائهم لايفكرون الا في التمتع بسلطة لاحدود لها فمن السهل تصور انهم يفضلون حب المتعة والانغماس في مظاهر الترف الشرقي على القيام بشؤون الدولة. وما ان تسلم مقاليد الحكم، حتى ايقن اكثر مناصريه وفاء انه غير قادر على الحفاظ على النظام في البلاد التي خضعت له. وكان صغر سنه ذريعة له، ولكن وبعد مضى ست سنوات تقريبا لم يعد يخفي على احد ان صفاته لاتعود الى اولئك الحكام الذين يكتسبون الخبرة مع مرور الوقت.

ومع ذلك، فان نفوذ وذكرى والده الشهير كانا يحيطان به، ورغم الاضطرابات التي سادت البلاد، ظل يتمتع ببعض الشعبية. ولكن لسوء حظه، وجد عدواً له في الرجل الذي كان يجب ان يكون حارساً له. انه "داود افندي"، المملوك منذ طفولته ولكنه مع ذلك تمتع بنشاة وتربية مميزة وفرها له "سليمان الكبير"، الذي رفعه الى اعلى المناصب في الدولة، بل وحتى شرفه بتزويجه احدى بناته. اذن فهو زوج اخت سعيد سئ الحظ، والذي غمره بالامتيازات والنعم التي لاتحصى. ومع ذلك دفعه عدم الرضا الى ترك بغداد والانزواء في القسطنطينية حيث لم يأل جهداً في خلق انواع المؤامرات للاطاحة بمن غمره بالهدايا ولكي يصبح باشا بغداد بدلاً منه.

الفصل العاشر

ثورة في بغدادد في الفترة التي كان فيها الكاتب في بغداد، عزل الباشا سعيد ووفاته، زيارة خلفه داود باشا لوزرائه، قسوة الباشا الجديد، وصف بغداد، اليهود، الحكومة، الشرطة

***

لقد وصلتُ بتلك النبذة عن تأريخ بغداد تقريباً الى الفترة التي وصلت فيها الى المدينة. وقد اكتسبت اسرة سليمان الكبير، نفوذا لم يستطع الباب العالي الا ان ينظر اليها بعين الحسد. وتداول خمسة باشوات السلطة بدون الاعتراف بسيادة القسطنطينية، بل يعرفون فقط ان عليهم تثبيتهم بشكل يليق بمكانتهم وكرامتهم التي كانوا يتمتعون بها حتى قبل التثبيت، وبحيث كان من الصعب ان ترفض سلطة القسطنطينية طلب تثبيتهم. ولكن، اذا ما كان سلاطين آل عثمان قد اهملوا حقوقهم، في تلك المناطق، الا انهم لم يتخلوا عنها. وجاءت اللحظة المناسبة لينتزعها "محمد الثاني" بقوة وبمهارة. واذ وافقوا على اصدار فرمان بتثبيت "داود افندي" باشاً على بغداد، وطلبوا منه ان يبذل كل ما بوسعه لاقرار الاعتراف به ممثلاً لقوتهم وسلطانهم.

ان مغامرة كتلك ليست صعبة الحدوث في آسيا، كما في دولنا المتحضرة ذات الادارة المنظمة القانونية. ويكفي ايجاد اي عذر او اية حجة لاستخدام السلاح. ومن كان بالامس هارباً، يصبح بطلاً في الغد. وقد ترأس داود افندي جيشاً قوامه اثنى عشر الف محارب وتوجه نحو بغداد بعد ان جمعهم من الولايات المحيطة بها. وكان ايضاً مُسلحاً بفرمان

الباب العالي الذي يفرض تقبله، لكنه لم يجد التأييد المطلوب، او اموراً تنذر بالثورة.

وعند وصولنا بغداد، فان النصر الذي احرزه "سعيد باشا" يدلل ربما على وجود سلطة تعتمد على الاستحواذ، النجاح، او على نفوذ الاسرة وعلى تأييد اقوى القبائل العربية، اي سلطة دائمة اكيدة. ومع ذلك، كانت هناك دوافع تمنع امكانية الاعتقاد بسيادة الهدوء..ورغم ان سعيد باشا يستند على جانب قوي، الا ان ماينقصه هو السياسة والحسم.هذا الى انه اختار وزيراً معروفاً بمواهبه، الا ان وفاءه مشكوك فيه. وشعر داود باشا انه شخص غير مرغوب فيه، في الوقت الذي عادت فيه القبائل العربية التي ساندت "سعيد باشا" الشاب، عادت الى الصحراء نظراً لقلة المراعي في المدينة.

على اي حال، وخلال الايام الاولى التي اعقبت وجودنا في بغداد، تراجع داود باشا مع كُرده، حيث يبدو ان الامن قد ساد البلاد، وتم فتح ابواب الاسوار لمرور المؤن. اما القادة الكبار بشكل عام اتخذوا موقفاً مؤيداً الى جانب سعيد. ولكن الباشا لم يستطع استثمار النجاح الذي احرزه وعاد الى كسله المعهود ومُطالباً كبار ضباطه واثرياء المدينة الى دفع مبالغ باهظة في حال احتاج الدولة الى موارد غير اعتيادية. الى جانب ذلك لم نستشعر شيئاً ينذر بالخطر او يذكر بالخطر الذي واجهته المدينة سوى بعض التغييرات الطفيفة في مناصب الدولة العليا، واشاعات تتحدث عن داود افندي الذي يجمع قوات جديدة ويستعد لهجوم وشيك على بغداد.

في الثاني عشر والثالث عشر عرفنا ان شخصيات كبيرة هامة بدأت تغادر المدينة سراً، اما في الرابع عشر امر سعيد بالقاء القبض على شخصية ثرية جداً رفضت دفع المبالغ التي طلبها الباشا. وتجرأ ذلك

الثري باعلان رفضه علانية وتحصّن في منزله، بل حتى انه اعلن تأييده صراحة لـ"داود افندي". وزادت الثقة في نفوس المناهضين للوضع القائم، بل اعلنوا التمرد واستولوا على اكبر حي في المدينة المعروف بحي الشيخ نسبة الى "الشيخ عبدالقادر" الذي يتمتع بشهرة واسعة وبانه يجترح المعجزات. ان كل ماكان يدور في المدينة يُنذر بكارثة وشيكة وتزايد عدد الهاربين من المدينة، بل ان "ياسين بك" شقيق الباشا كان اول من تركه، رغم الهدايا والعطايا التي غمره بها. وقد وقعت بعض المناوشات الصغيرة داخل المدينة، وكنا نستطيع ان نشاهد كل ذلك من فوق اسوار مقر المقيم البريطاني. ومع ذلك مازال هناك كثيرون يؤيدون سعيد باشا، سيئ الحظ، الذي مازال يسيطر على القصر والقلعة التي تحكم المدينة. ولكن اللحظة الانية تلك كانت تتطلب القوة والعزم والحسم وهو مالايملكه. ونصحوه كثيراً بقصف الحي المتمرد بمدافعه، وهو امر ربما اعاد النظام الى المدينة، الا انه لم يفعل لسوء الحظ. بل انه شغل مرتزقته اي عساكره Asgailis[٢٣] في مناوشات لا فائدة منها وفي محاولات عقيمة للسيطرة على القادة المتمردين.

واغلقنا ابواب مقر المقيم البريطاني، في حين ان حراسنا كانوا دائماً على استعداد. وتحصنت جميع المنازل التي كانت تتطلب الدفاع عنها حيث اقيمت حولها الحواجز والمتاريس، ولم يعد يسمح بدخولها لا للاصدقاء ولا الاعداء. اما المدينة فلا تقدم سوى صورة للفوضى والاضطرابات. فهنا فرقة تندفع للهجوم تملؤها الثقة وتضرب وتحارب وهي تتراجع، اذا مارأت عدواً ما، ونسمع هناك صيحات الحرب يطلقها

---

[23] لم اعرف اذا ماكنت قد استطعت كتابة لفظة الكلمة جيداً. بالاضافة الى انهم ثلة من الجنود العرب، في الضواحي على الخليج الفارسي. وهم تحت امرة من يدفع ويتبنون قضيته. لكنه اذا ماوقع مثلاً، فلاتوجد صعوبة في الدخول في خدمة المنتصر. وفي بغداد، يتبعون شيخاً يُعينه الباشا، ويعتبرون احسن جنوده (عساكره).

المرتزقة وهم يهاجمون احد المنازل، وفي مكان اخر يقود ضباط الحرس الكبار جنودهم ضد المتمردين، او ينسحبوا محاطين ببعض الجنود المخلصين، وتراهم يمرون تحت اسوار المقر وهم يلوحون احياناً بسيوفهم الكبيرة في غضب ويهددون اعداءهم، او احياناً يهربون مع بعض الاصدقاء ويطلقون نظرات الحسد على الاسوار التي تحمينا.

ومنذ بداية الاضطرابات، جاء الكثيرون يحاولون الاختباء في حماية المقر البريطاني[٢٤]. ولم ينجح الحاحُنا او تقدير المخاطر التي تتعرض لها في اقناعهم بالانسحاب من المقر بل قالوا لنا انهم اتوا ليموتوا معنا. باختصار كانوا يشعرون ان ستين جندياً من المقاتلين المخلصين تكفي لكي نتحدى طويلاً قوى المدينة كلها وانهم لايعرفون حماية اكثر ضماناً.

ولخمسة ايام عاشت تلك المدينة نفس مظاهر الاضطراب والفوضى. واخيراً، اعطى سعيد اوامره للعساكر بمهاجمة حي المتمردين. ولكن قائد تلك الثلة من الجنود صرح بانه لايستطيع ان يتحمل النتائج الحتمية الوخيمة التي يمكن ان يفرزه هجوم كهذا. ورفض تنفيذ الامر، وكان ذلك اخر دليل ضعف واولى بوادر السقوط. وبعد عدة ساعات علمنا ان "داود افندي" يتقدم على رأس جيش جرار نحو بغداد وانه على بعد مسيرة يوم واحد. وتمرد العبيد الجيورجيون الذين في القصر على سيدهم واضطر الباشا للهروب الى القلعة، ولكنهم حطموا الكوبري الذي يؤدي الى القلعة حتى يمنعوا عساكره من اللحاق به.

---

[24] ما هو الفرق بين الموقف الذي نعيشه هنا، وبين المواقف التي يعيشها قناصل بريطانيا في بلاد اخرى اسلامية، وفي بغداد المقر البريطاني هو المكان الوحيد الامن في هذا الاضطراب، وحيث ابقى التجار بثرواتهم. في طرابلس او في الجزائر، اذا حدث هجوم فهناك امل للنهب، ومن اين جاء ذلك الاختلاف؟ في السياسة التي نتبعها مع هؤلاء البرابرة الوقحين. في الشرق نتبع مثلاً مفضلاً جداً لدينا: "ليكرهوننا ولكن يهابوننا" واذا لم نجد من يحبنا فانهم يحترموننا ويهابوننا.

وبدأ انه لم يعد هناك امل لسعيد، فلم يبق معه سوى اربعمائة عربي في القلعة، ولم تكن لديهم مؤن رغم انه كان من السهل بمكان ان يجلبوها. وكان المتمردون يسيطرون على معظم احياء المدينة التي دخلها "داود افندي" ظافراً في العشرين من فبراير (شباط) واعطى اوامراً لاجبار القلعة على الاستسلام في الحال. ولم يكن بدٌّ من الحيطة والحذر عند التجوال في شوارع المدينة فمازال هناك كثير من اتباع سعيد الذين صمدوا في مختلف الاحياء. كما كان هناك على الشاطئ الغربي العديد من عساكر سعيد حاملين السلاح رغم ان رئيسهم قد تخلى عنهم وهرب في جبن شديد. ومع ذلك ارسل داود افندي ضابطاً الى المقيم البريطاني ليقدم له فروض التحيات وليخبره ان الهدوء قد انتشر في المدينة.

وآنذاك اصبح في بغداد رئيسان يحمل كل منهما لقب الباشا. ويعترف جماعة كل منهما برئيسه، ولكن سعيد باشا ظل بالاسم فقط. واذا مالم يكن قد اهمل نفسه، واذا ما استمع الى النصائح وكان لديه التصميم، لبقى له بعض الرصيد. ولم يبق معه في القلعة سوى اربعمائة من الجنود العرب الاوفياء. ولكن كانت تنقصه المؤن رغم وفرة المدافع والذخيرة من جميع الانواع. واخيراً، نجح في كل الاحوال في عبور النهر ليلاً وانضم الى اتباعه في الجانب الغربي من المدينة، ووصل الى الصحراء على رأس العديد من الانصار العرب المخلصين.

وكان داود باشا، ذكياً ماكراً، وكان يعرف جيداً ما الذي يستطيع عدوه ان يفعله. فقرر ان يتمهل ويلجأ للحيلة. وكان يهاجم القلعة يومياً الى ان تستسلم بل وهددها بشن هجوم شديد دون ان يصدر امراً بذلك. وطلب من جيشه اللحاق به لانه تقدم مع طلائعه فقط وكانوا قليلي العدد. وشكر علناً الجيورجيين المماليك لانهم حفظوا حياة سعيد. وظل يراقب القلعة بكل اهتمام وسمح بدخول بعض المؤن بل وحتى سمح لوالدة

سعيد سئ الحظ، ان تذهب للحاق به. وسعيد هو ابن سيده عندما كان مملوكاً له، وهو رجل واردف قائلاً: ان سعيداً شقيق زوجته التي قدمها له ذلك الرجل العظيم سيده، وسعيد هذا شاب غرير، والذين نصحوه هم المذنبون وسيلاقون العقاب الصارم على تلك المقاومة التي ابدوها. اما بالنسبة للباشا (وكان يجب ان يلقبه هكذا) فلسوف يرسلونه سالماً الى حلب عندما يعترف باستحالة الصمود والمقاومة لفترة طويلة. تلك كانت الطرق التي استخدمها لكي يقبل سعيد باقتراحاته للتسوية، بل انه نجح بذلك ان يدفع سعيداً الى انهاء خدمة عساكره الاوفياء.

وقد وجد هؤلاء المحاربون الاوفياء عن تخلى رئيسهم واختفى في جبن ونذالة، ووجدوا انفسهم مُحاطين بالاعداء من كل جانب، ورغم قلة عددهم رفضوا الخضوع. وطالبوا بالسماح لهم بالخروج مع اسلحتهم وامتعتهم، وان يرسل لهم داود قرآنا[25] ليكون دليلاً على صدقه. بل انهم هددوا في حالة الرفض باشعال النار في مخزن الذخيرة وتفجير القلعة وجزء من المدينة. واذا وجد الاخرون انهم قادرون على تنفيذ ذلك التهديد وافقوا على شروطهم ووعدهم بالحفاظ على حياة سعيد باشا، وخرجوا آنذاك من القلعة بامتعتهم واسلحتهم.

وتغير المشهد بعد ذهابهم. وفي ليلة الرابع والعشرين، اي نفس يوم انسحابهم، وصل سيد علاوي، اغا الانكشارية الجديد الى باب القلعة. وكان يحمل امراً من داود ويحيطه ثلاثة اتباع. ودخل القلعة دون صعوبة تذكر، وكان يرتدي المعطف الاسود الطويل الذي يرتديه العرب. ولكن كان من السهل التعرف عليه لقامته الطويلة وشرارات الغضب والانتقام تتطاير من

[25] يعتبر ذلك التقليد اهم دليل على الاخلاص الذي يود ان يبرهن عليه المسلم. وهو يقسم على الكتاب المقدس قبل ارساله، حتى يكون شاهداً ضده اذا لم يتمسك بكلمته.

عينيه[٢٦] وانزوى سعيد باشا في شقته. ودُق الباب وفتحته والدته في قلق وكانت ساعة تقديم انفسهم لها فأل شؤم. وحاولت ان تسأل عن سبب مجئ القادمين، الا انها تعرفت على سيد علاوي ولم تعد تشك في حقيقة ماسيحدث. وضمت ابنها بشدة بين ذراعيها، وهي تصيح عالياً وتتوسل برجل لاتعرف الرحمة بالانسان طريقها الى قلبه. ولكن القتلة ارْدَوا ضحيتهم بضربة فأس وتدحرجت راسه ومازالت امه تضمّه بين ذراعيها.

وفي صبيحة اليوم التالي سمعنا خبر المأساة الدامية. وقد نقلوه لنا بنفس اللامبالاة التي نقلوا بها اخبار الامس. وكان سعيد باشا في الثالثة والعشرين من عمره عندما لقى حتفه بهذه الطريقة. وكان بريئاً من التهمة التي الصقوها به وهي مقتل "عبدالله الطيب"، ولم يكن حتى الواعز لحدوثها. وكان يمكن لصفاته الجميلة الهادئة المسالمة ان تجنبه ذلك المصير، بل ربما تكون سنداً له. ولكن وجوده في منصب خطير كهذا، وفي الوسط الذي نشأ فيه، لن تكون الطيبة او الكرم دوماً في صالحه. بل ان طيبته هي الوحيدة التي دفعت مواطنيه ناكري الجميل لوصفه بانه لم تكن لديه القوة الكافية لكي يدين احداً ما. بل يوجد كثيرون من بين الذين عملوا على ضياعه، كانوا يدينون له بحياتهم لانه انسان، بل انهم حصلوا على الجاه والثروة بسبب ثقته العمياء فيهم. حتى شقيقه "ياسين بك" تخلى عنه في بدايات الاضطراب والفوضى، ورغم انه كان اول من تمتع بسخائه وكرمه واسرافه في العطاء. و"داود افندي" نفسه والذي تمتع في عهده وعهود والده بالكرم الزائد والسخاء الى جانب انه قد عاش اشكالاً من الحظوة المعروفة للجميع والتي لايمكن تخيلها والذي كان يجب ان يكن له الاحترام وان يحفظ له حياته لانه يدين له بكل ماهو عليه آنذاك. ووقع سعيد ضحية اشمئزازه

---

[26] لقد كان سيد عليوي، الذي نفاه سعيد باشا، البطل الرئيسي لهذا المشهد الدموي. ولما عاد من منفاه لم يكن يعيش الا للانتقام بسبب الاهانات الحقيقية او الخيالية التي تلقاها.

من اراقة الدماء. وذلك بعد ثمانية ايام من وصولنا بغداد وحيث وجدته يتمتع بسلطات لا حدود لها. وخرجت من تلك المدينة مع اولئك الذين سوف يحملون رأسه الى القسطنطينية ليعلقها سيده الغاضب على باب قصره.

وكانت وفاة "سعيد باشا" نذيراً للقيام بتغييرات شاملة في جميع ميادين الدولة، وضمناً بالاستعدادات لاجراء اول مقابلة مجاملة لمن خلفه. وتحدد يوم السادس والعشرون لتلك الاحتفالية. وخرجنا ظهيرة ذلك اليوم تسبقنا دقات الطبول واصوات المزامير الخاصة بالمفرزة. وافتتح المسيرة ستة من الفرسان ليفتحوا لنا طريقاً بين الجموع. وتبعتهم مفرزة هندية ثم يجئ المقيم ومستشاره الاول وسكرتيره وانا. وامتطى الجميع الجياد وهم في ملابسهم الرسمية. ثم اكتمل الموكب بباقي الجنود والحشم والخدم ووراءهم رعاع بغداد عبرنا الطريق وسط ذلك الحشد الكبير ووصلنا القصر حيث كان كل شئ مهيئاً لاستقبالنا. واحتشد الناس في الباحة الخارجية وقام الانكشارية بتوزيع ضرباتهم السريعة للابقاء على النظام وكونوا سياجاً مُزدوجاً لمرورنا.

وهناك ترجلنا، ودخلنا الساحة الثانية عبر مدخل واطئ حيث اضطررنا للانحناء حتى نستطيع المرور. ووجدنا حوالي ثلاثمائة مملوك جيورجي، معروفون بالجمال وحسن المظهر وهم فخورون بذلك. وكانوا يحملون السيوف التركية الكبيرة والمسدسات والبنادق والفؤوس، وكانوا يتقدمون في صمت مهيب ودخلنا غرفة جانبية داخلية، يمكننا ان نرى عبرها قاعة الاجتماع التي تضم الباشا والديوان. ورأينا الباشا في بزته الرسمية وحراسه الثلاثة للتدليل على مكانته والعلم التركي بجانبه. وكان متكئاً على وسائد مغطاة بالحرير والقطيفة وعلى يمينه اعضاء الديوان. واومأ الباشا برأسه مع كل واحد يقدم اليه، وجلسنا على

كراسي اصطفت على يساره. وقدموا لنا القهوة وتحدث الباشا مع مسيو ريچ، ومع "الدكتور هيني Heine"، الذي كان يعرفه من قبل.

ولم تكن تبدو على ملامحه سمات البربرية، ولايبدو عليه انه السفاح الذي قتل اقرب الناس اليه، وهو الرجل الذي قلنا عنه انه رجل قاس لاتتزعزع قسوته. وكان رجلاً متوسط القامة من غير تكلف، ولربما اعطيته الاربعين فقط هذا اذا ما لم اكن قد عرفت قبلاً انه في الخمسين من العمر. ولحيته سوداء في سواد الكهرمان الاسود، ولكن يبدو انه يعالجها بالصبغات لتبدو في هذا اللون. ويبدو ان اعضاء ديوانه اكبر منه سناً، رغم انهم يغطون بدورهم ذلك الشيب الذي يُزين الشيخوخة. اما صديقنا "درويش آغا"، الذي جاء يبحث عن ملاذ له بيننا، كان احد مستشاريه، وبدأ انه مرتاح لعودة الهدوء. وكان الجميع يلتزمون الصمت، لانه من اصول اللياقة الا يشتركوا في الحديث الا للاجابة على اي سؤال يوجه اليهم، وكان الكلام قليلاً وعرفت في الحال ان اللقاء كان مُحدداً بتقديم بعض التهاني.

وخرجنا بنفس الطريقة وبنفس النظام الذي جئنا به، وامتطينا الخيول، وتوجهنا نحو الوزير بتقديم التهاني اليه بتعيينه في المنصب. وقد استقبلنا تقريباً بنفس اصول الرسميات، رغم انها لم تكن متساوية، اذ قدم لنا عدا القهوة، الغليون والعطور ومختلف الحلويات.

وفي الغد قمنا بزيارة كبار موظفي الباشا آخذين في الحسبان زيارة من أبعدوا. وخلال ثمانية ايام قدموني الى ثلاثة من كبار قادة الجيش وعدد غفير من وزراء الدولة وكبار الموظفين. واستقبلنا جميع هؤلاء الكبار، القدماء منهم او الجُدد، في وقار صامت، ولم يظهروا حيرة في التمسك بالمناصب التي تقلدوها تواً، ولم يشيروا مطلقاً الى الاحداث التي جرت مؤخراً. ولرّبما كان ذلك لعدم الاهتمام بأهميتها بقدر ما يبالون بالتجرؤ لابداء رأي حول مناصبهم غير المضمونة التي تقلدوها منذ

قليل. ولكنني لااستطيع ان امنع نفسي من التفكير بان ذلك على الاكثر هو من دواعي جمود الحس والخمول المميزين لهم.

اما "سيد علاوي"* ، رئيس الانكشارية، هو الذي تحدث بهذا الشأن مع السيد "ريج"، وقد ذكر اثناء الحديث وبكل بساطة بأنه الذي اطاح برأس الباشا السابق. وكان الاغا رجلاً حيوياً، جريئاً كثير الكلام الى جانب انه الروح لذلك الجانب الذي يخلص له. وفي مناسبة اخرى قدم لنا بعض التفاصيل التي نجهلها نسبياً عن الجيش الذي يترأس قيادته. وفي فترة عداوته وايام منفاه، يبدو انه كان يدين بالكثير للسيد "ريج"، واراه يتحدث معه دون تحفظ. وقال لنا ان هزيمة الجيش الذي تقدم وكان يرأسه كانت هزيمة تامة. وانه كان مُعسكراً مع ثمانمائة جندي على مرمى مدافع القلعة، وفجأة هجم عليه الف وخمسمائة من عرب المنتفك، وكانت المفاجأة كبيرة لدرجة ان جميع جنوده هربوا وتشتتوا[٢٧]. وقد زرع الهاربون وهم يتراجعون الهلع في باقي افراد الجيش وبالغوا في تقدير اعداد المهاجمين واصبح الهروب شاملاً. حتى ان "داود افندي" بقى وحده في المعسكر، واذا كان العرب قد استغلوا ذلك النجاح الاول، لكانوا قبضوا عليه او اردوه قتيلاً.

وعندما استقر الوضع للباشا الجديد، فمن طبيعة الاشياء ان يُحاسب من تقلدوا مناصب رئيسية سابقاً حساباً عسيراً. وفي ظل حكومة مستبدة، فان السلطة كما الاسفنجة تمتلئ وتنتفخ بعصائر الترف الزائل حتى تأتي يد اقوى تسيطر عليها وتستولي عليها وتعتصرها اعتصاراً.

ان الاعتدال الذي بدأ به "داود افندي" عهده، لم يخدع احداً ممن عرفوه جيداً وعرفوا جوهر اخلاقه. فقد توقع الكثيرون مقتل سعيد باشا، رغم صلات القربى التي تربطه بالباشا الجديد ورغم ضرورة وجود بعض

* كان "السيد علي آغا" رئيساً للانكشارية أيام حكم داود باشا. [مؤسسة ژين]

[27] انه الانتصار الذي حدثنا عنه عرب قبائل المنتفك ونحن في الصحراء، وعندما اجبروا داود افندي ان يرفع الحصار مؤقتاً عن المدينة.

الحياء ولو قليلاً من ضعف وتواضع سعيد. وقد اسرفوا في الوعود والاحتجاجات من اجل ان يسود الاستقرار العام والثقة في الوضع القائم.، ولمنع الضحايا المُحتملين من الاختباء من ضرباته المتوقعة. ولكن ما ان وصل الجيش، حتى انذروا جميع من كان يؤيد العهد السابق بضرورة تجهيز نصيبهم من المبالغ الكبيرة الضرورية لحاجات الدولة، واحتياجات الجيش الى جانب الهدية الكبيرة الخاصة التي تُقدم للباشا.

وتم القاء القبض في الحال على الشخص المفضل لدى سعيد سئ الحظ وعلى العديدين كذلك. ومن بينهم زوج ارملة سليمان الصغير، شقيقة سعيد، وهي امرأة ذات مقام رفيع وكانت تتمتع بنفوذ كبير كونها زوجة وابنه واخت لثلاثة باشوات مختلفين، وقد رفضت الزواج من قبل من "داود افندي". واصبح التعذيب كما اصبحت التهديدات والالام خُبزاً يومياً. في حين التزم السجناء ذوو الحظ السئ الصمت لانهم يعرفون انه حال اعترافهم بمكان ثرواتهم ستذهب حياتهم هباء، وهكذا انكشفت مشاريع الطمع وسقطت ولكن ثالث رجل في الدولة ظل حراً مع ذلك، وقد كان معتمداً على ثروته الصغيرة وصفاته التي لاتوحي بالقلق منه. وتم استدعاؤه ليمثل في الحال امام سيده الجديد، ولم يساوره القلق من اي خطر يتهدده. وصادف في طريقه بعض الاصدقاء الذين حدثهم بالتشريف الذي سوف يخظى به. وتم استقباله على باب القصر بابتسامة الحفاوة والترحيب. وما ان تخطى عتبة الباب حتى تدحرجت رأسه[٢٨] ويعدّ ذلك المثل على القسوة الصارخة لم يجرؤ احد على

---

[28] كانت رأسه واحدة من الرؤوس التي سوف ترسل الى القسطنطينية. واعتقد كثيرون ان سبب فقدانه هو نفس السبب الذي ساهم بشكل كبير في سقوط سعيد باشا، الى جانب العداوة التي يحملها له داود افندي، وهو من الرجال المقربين للسيد الكبير، ولان المأساة الكبيرة لن تنجح بدون وجود دسائس. وبدون ذلك لكان سعيد يتمتع بمكانته رغم حسد

معارضة رغبات الباشا الجديد. واثارت تلك الجريمة احاسيس ومشاعر الناس، كون ذلك هو الرأس الثاني الذي تدحرج بعد اغتيال سعيد باشا. اما السجناء فقد تعبوا من العذاب وتمنوا الموت واستجابوا لجميع المطالب التي طلبوها منهم. وبعد ان حصلوا على مايريدون، تمت الاستعدادات لارسال رؤوسهم الى القسطنطينية.

وكانت اقامتي في بغداد قصيرة، ولكنها كانت حافلة باحداث جسام، وبواحدة من تلك الثورات المفاجئة التي تكشف صفات الحكومات المستبدة ووضع الناس الخاضعين لمثل تلك السلطة. ولكنني وقبل ان اتحدث عن سفري، توجب علي ان ادلي ببعض الحديث عن الاحوال التي تعيش فيها المدينة والمآسي والتغيرات التي حدثت فيها.

ويضم محيط بغداد ارضاً مساحتها سبعة اميال تقريباً، وقد تحققنا من ذلك فقد درنا حول اسوارها على ظهور خيولنا مرات عديدة. وتغطي المباني جزءاً من تلك الارض بينما تغطي الاطلال الجزء الباقي.

الباب العالي. وقدموا لنا القصة هكذا لان الاسباب الصغيرة تولد الاحداث الكبيرة. وقبل عام من تلك الثورة، كان هناك رجل يهودي يعمل صرافاً لدى داود في القسطنطينية. وارسل احد اقاربه الى بغداد ليقوم ببعض الاشغال التجارية الهامة. وكان فخوراً بنفوذ قريبه واراد ان يستغل ذلك ليقوم بالمشاركة في بعض اعمال الحكومة. واثار ذلك غضب سعيد وعلى الاكثر غضب وزرائه الذين ظنوا انهم لن يخسروا شيئاً بالقائه في السجن، وانزلوا به عقاباً صارماً لان اليهود كانوا محتقرين في العادة وبعد الافراج عنه عاد الى العاصمة. وغضب ذلك الرجل المفضل كثيراً لتلك المعاملة التي قابلوا بها قريبة الذي يوجد تحت حمايته المباشرة. وقد اقسم على اسقاط سعيد باشا. وهكذا كان عقاب يهودي وقح اسقاط سعيد باشا. وعندما كان داود افندي منفياً في القسطنطينية ظل يدبر المؤامرات لكي يصبح باشا بغداد. ووجد له صديقاً مقرباً يساعده في مشاريعه. وانتهز الفرصة لكي يشفى غليله. وحصل داود افندي على فرمان بتعيين داود في منصبه بدلاً من سعيد باشا وطلب الاطاحة برؤوس جميع من كانوا في صف اعدائه.

وكانت تشيد المنازل بالقرميد وكلها ذات طابقين. ولاتطل شبابيكها على الشوارع، الا انها كانت ضيقة وصغيرة بل ونظيفة. ولاتوجد في بغداد منشآت عامة لايثير معمارها اهتمام الرحالة. وتغطي سقوف اسوارها عقود تزين قبابها موزاييك من الاجر الملون. اما مآذنها فتقدم للمشاهد هذا منظراً جديداً مُحبباً. وتنقسم المدينة الى عدة احياء ولا استطيع الان ان اصف حدوداً لها ولكن ابرزها حي الشيخ. ويقع القصر والقلعة على الضفة الشرقية لدجلة، في حين ان المباني القديمة على الضفة الغربية تبدو اقل مستوى من غيرها ولذلك يمكن اعتبارها ضاحية.

عندما استولى مراد على بغداد اراد تحصينها فاقام سوراً حولها من الطابوق ارتفاعه اربعون قدماً ولكنه ليس سميكاً بمافه الكافية، وتوجد على السور تسعة حصون في الجانب الشرقي والعديد من الابراج وحفرة عميقة دون مياه. وجميع تلك المنشآت لاتكاد تستحق وصفها بالتحصينات، فلم تشيد بشكل جيد، كما ان حصونها فسيحة واسعة لكي يتمكنوا من وضع المدفعية فيها. ويمكن الوصول الى جميع زوايا السور المشيد على الحفرة ومايقابله. كما ان القسم الاكبر من المدافع كان مجهزاً تجهيزاً سيئاً لدرجة انه يمكنها ان تكون خارج الخدمة. ورغم كل تلك العيوب صمد ذلك السور مرتين امام محاولات نادر شاه تدميره رغم انه القى عليه المئات من القنابل التي لم تأتِ بنتائج مُجدية. وطالما انه لايوجد سوى عشرين مدفعاً في القلعة وحوالي ثلاثين مدفعاً على السور فان الحاجة تستدعي وجود خمسة واربعين مدفعاً للدفاع عن الحصون التسعة الرئيسية، ولايمكن تحقيق ذلك سوى بتجريد القلعة من استحكاماتها. ومن المحتمل الا تكون مدفعيتهم معدة او مجهزة افضل من ذلك، ولن تدهش اذن اذا ما كان الاتراك قد استطاعوا بنجاح تام الدفاع عن انفسهم ودون ان يعرفوا ان اعداءهم لايملكون مدفعية افضل.

لقد قدرنا سكان بغداد بحوالي مائتي الف نسمة في حين يقول بعض الرحالة مائتي الف نسمة، وبسبب علاقاتهم قالوا انهم ضعف ذلك العدد. الا انه كان هناك رجل موثوق قد عاش عدة سنوات في بغداد واكد لنا ان عدد السكان لايتعدى ذلك الرقم. وكان جزء من السكان من الشيعة والجزء الاخر من السنة ومع ذلك لم يتسبب ذلك الخلاف العقائدي في حدوث اية مشاكل بينهما ومنذ فترة بعيدة. ويوجد بينهم مسلمون كثيرون من الاجانب او منحدرين من اجانب ومع ذلك يعتبرونهم اجانب وذلك رغم تقلدهم احياناً مناصب هامة. وتوجد مائة وستون اسرة من المسيحيين الكاثوليك التابعين للكنيسة الغربية، كما ان هناك بعض الارمن والنسطوريين. ولكل مجموعة قسسها ومحفلها. ولاينظر الباشوات الى تلك المشاكل التي تفصل بينهم نظرة عدائية الا انهم يطالبون الجانبين المتخاصمين بدفع غرامات عندما تسنح لهم الفرص.

اما اليهود فكانوا دائماً موضوع احتقار. (انظر اللوحة الثالثة).



ويعتبرون في بغداد كما في كل مكان اخر من سلع الدولة. ولايتركونهم يكدسون ثرواتهم الا لكي يساهموا في زيادة ثروة الباشا الخاصة. ولكن ماهو مميت لهؤلاء الاسرائيليين المساكين، هو انهم كانوا موضوعاً للسخرية والاستهزاء مهما كان مقدار ما يتحملون من عنت واضطهاد وبقدر ما يتحملون من الغيظ. فاذا ماكان هناك تركي او مسيحي يتمتع ببعض الاهتمام، وشعر بالجور من جانب احد كبار المسؤولين في الدولة، فله الحق في تقديم الشكوى ضده ولومه على جشعه الذي يدفعه للافلاس. ولكن اذا طال الاضطهاد احد اليهود، فان ذلك يعتبر امراً بسيطاً وطبيعياً ولايتحدثون عن ذلك الا لاثارة الضحك. ولايمكن تصور جميع انواع العنت والاضطهاد التي تطالهم، ولانهم معروفون بالطمع وحب المال فلايمكن ان نتصور وجود يهودي لايمتلك ثروة لايعرف بها احد.

وبعد وفاة سعيد، كان يجب على الباشا الجديد ان يرسل الهدية المعتادة للباب العالي، ولان الطرق لم تعد آمنة لارسال النقود، طلبوا من اليهود كمبيالات تدفع في القسطنطينية. ولم يستطع اليهود تجهيز المبلغ المطلوب. ولان الاصول التي يمتلكها اخوانهم في العاصمة تتجاوز مالديهم للمطلوب منهم. واعتبر المسؤولون ذلك ذريعة للتهرب من السداد. وعقد كبار الصرافين عدة اجتماعات، وبعدها صدرت لهم الاوامر بالمثول امام احد موظفي الباشا لمناقشة الامر ومعرفة ماذا يمكن فعله. واستقبلوهم بشكل حضاري ولكنهم اغلقوا عليهم الغرفة دون شراب او طعام. واخيراً، يئسوا في اليوم الثالث وسحبوا جميع الكمبيالات المطلوبة وذلك باعلان انها لاتساوي الورق الذي كتبت عليه. وفي الواقع اعتقدت انها لن تصرف، ومع ذلك تم صرفها وسدادها جميعاً لانهم استخدموا نفس الطرق لاجبارهم على السداد، وهم وحدهم الذي يجب عليهم صرفها

كما استطاعوا. وحكومة بغداد، صورة مصغرة لحكومة عاصمة الامبراطورية التركية. ويتمتع الرئيس في كلتيهما بسلطة لاحدود لها على رعاياه المباشرين. وباشا بغداد ليس مسؤولاً عن ممارسة تلك السلطة الا امام رئيسه الذي عينه. ويساعده في الحكم وزير يحمل صفة "كهية Kiaia"، ويعمل تحت امرته اغا، ورئيس الانكشارية والذي يجب ان يعينه كذلك الباب العالي ولكنه هو الذي يختاره. واخيراً يأتي الديوان الذي يتكون من امين الصندوق ووزراء الدولة، القاضي، المفتي، ثم الحكام القدماء للبصرة، الحلة، وماردين.

وتجب مناقشة جميع الشؤون في الديوان اولاً، حيث البعض ممن يتمتعون بسلطة مباشرة من الباب العالي، بعيداً عن ارادة الباشا. ولكن، بما انه هو الذي يعينهم في الواقع، او يعمل على تعيينهم، تتم استشارة الديوان ولو شكلياً، كما يتم اتخاذ القرارات مُسبقاً، استناداً الى نفوذ بعض المقربين وحتى الى نساء الاسرة. اما موظفو منزله واسرته فلاعلاقة لهم بهذا الكيان السياسي ولكنهم يتمتعون احياناً بنفوذ اكبر. ومن بين اهمهم المسؤول عن الحرملك اي مدير القصر، ومدير الاحتفالات، والمسؤول عن الاسطبلات ورئيس المنفذين للاعمال الكبيرة وهي صفة شرفية، ومن ثم رئيس الرُسل، والمسؤول عن الثياب، ورئيس الخدم... الخ.

اما القوة العسكرية، فهي تحت امرة البعض من هؤلاء الضباط وغيرهم من الرؤساء الذين يحملون مختلف الالقاب والرتب. ومن الصعب الحديث عنها بشكل اكيد. وذلك لانه اذا ما اردنا معرفة من يحمل لقب الانكشارية فيجب ان نحسب ضمنهم نصف النحاسين، والخياطين، والاسكافيين وغيرهم من الحرفيين الذين كانوا يتشرفون بان تندرج اسماؤهم تحت ادارة تلك الفرقة، ولكنهم لايؤدون اية خدمة عسكرية. وعند سقوط سعيد، كان الى جانبه خمسة الاف جندي نظامي بمن فيهم

حرسه الخاص، بالاضافة الى سبعة الاف مقاتل عربي، كما يوجد تقريباً عشرة الاف من جنود الانكشارية الفعليين الذين يكونون عسكر المدينة. وتحوي السجلات اسماء اثنى عشر او خمسة عشر الفاً، ولكنهم لم يمارسوا مطلقاً الخدمة العسكرية. ولكن عندما تتوافق رغبة الباشا مع رغبة السيد الكبير، واذا مادعت الحاجة يمكن انزال جيش في بغداد والمناطق التابعة لها جيش قوامه اربعين الف جندي. ولكن اذا ما كان هناك زيادة على ذلك من اثنى عشر الى خمسة عشر يستحقون لقب جندي فانهم يُلمون قليلاً بالمعارف العسكرية. اما الباقي فمن الكسالى والمشردين الذين يجبرونهم على حمل السلاح، والذين غالباً مايكون وجودهم مضراً اكثر منه نافعاً.

واجمالاً يمكننا ان نقول ان تلك المدينة قد فقدت الكثير من تألقها وروائها. ولايجب بعد ان نحاول البحث في عاصمة كبيرة والتغلغل في حياة الناس المهمين المرموقين وعاداتهم لاكتشاف بقايا ذلك التراكم الحضاري الذي يتبقى بعد زوال الامم. هارون الرشيد، وجمال بلاطه، جعفر والبرامكة، التجار الاثرياء كما الامراء، كل شئ قد اندثر وزال. وعلى اي حال، فان اسواقها الجميلة التي نراها، والشوارع المليئة بالمارة دائماً، تكون مفارقة لوحده وسكونٍ للصحارى المحيطة بها، كما انها يمكن ان تثير اعجاب الرحالة فهي تُذكره بالعجائب التي تبنيناها في سذاجة كبيرة.

هذا هو الواقع الاني لتلك العاصمة الكبيرة، التي تقدم مشهداً جديداً يسر من يراه، وخاصة بالذكريات التي يثيرها. واسواقها اجمل بكثير من تلك التي نراها في كل مكان اخر حتى اجمل من الاسواق القائمة في عاصمة الامبراطورية العثمانية نفسها. وفاكهتها لايوجد مايماثلها في اية ضاحية اخرى في الشرق، كما ان سكانها اكثر حضارية واكثر امانة وشرفاً من كل

اولئك الذين يعيشون في اي بلد اسلامي[29]. ومناخها مريح وجميل، وموقعها مناسب، وتجارتها تسير سيراً حسناً، ومع ذلك، اذا ما لم تكن بغداد تحيطها العجائب والاساطير، ماكنا لنصفها ابداً بمثل ذلك المديح. وهي تقدم الواناً من المباهج للسائح الاجنبي، لكن ميزاتها تفوق ميزات غيرها من المدن الاسلامية. فالشرطة قوية، وتنشط في محيطها وفي داخلها، وحيث لايخشى الاجنبي في جميع تحركاته واعماله ان يواجه اية متاعب. وفي خضم الاضطرابات التي تحدثت عنها تواً، فيماعدا اثناء فترة الثورة كنا نخرج دائماً، ونذهب للحمامات وللصيد. وغالباً ماكنا نضل الطريق، وبعيداً عن اية اهانة كانوا يعاملوننا معاملة مهذبة حضارية وغالباً ماكانوا يساعدوننا على الوصول الى منازلنا.

---

[29] تساعد بعض الحوادث الصغيرة على كشف الرأي العام. وتكشف الحادثة التي سأذكرها الان، كيف ينظرون الينا وماهو رأيهم فينا في هذا الشرق. ذات يوم كنت سائراً امام سراى الباشا عندما اعترضني احد الاتراك في ادب، واقترح علي ان اشاهد مشهداً مثيراً. وتناول مجموعة من المفاتيح وفتح باباً صغيراً يؤدي الى ممر ضيق بين جدارين. وفي مكان كهذا لم تكن المغامرة مريحة بالمرة. ومع ذلك، ولان سيفي بيدي فقد مررت اولاً بعد الحاج دليلي، وذلك نظراً لانه لايستطيع ان يدخل اثنان في وقت واحد في المقدمة. وقطعنا عشرين خطوة في الظلام وفجأة كان هناك منعطف فجائي للممر وساعدني الضوء المسلط من اعلى ان ارى انني كنت وحيداً في مقصورة فيها اسدان ضخماالجثة يلتهمان حيواناً القى اليهما في التو. انه مشهد غريب ذهبت اليه بكامل ارادتي. ولم اضيع وقتي وتراجعت بسرعة شاكراً حظي انهما كانا مشغولين آنذاك. اغلق الباب ثم فتحه وطلب مني مكافأة وهو يبدو راضياً تماماً عن نفسه. مكافأة؟ وبعد ان قلت له هذا بدا وكانه فَهِمَ ما اريد قوله. وقلت له ويجب ان تكون راضياً انني لا اعاقبك على عدم حرصك هذا. ماذا كنت ستقول للسيد ريچ وللباشا اذا ما التهمني هذان الحيوانان؟" واستطاع ان يجيبني بلا مبالاة وقال لي ببساطة: "سيدي، كنت اعتقد حقيقة ان الانجليزي لايهاب شيئاً في الدنيا؟. ولم تكن لدي طريقة لاقاومه، واعطيته مايرضيه وانا اؤكد له ان ذلك اغضبني كثيراً، ولانه لم يطلب مني ان اسحب سيفي واكون مستعداً لقتلهما ان هاجماني.

الفصل الحادي عشر

الرحيل من بغداد، رحلة في جبال كُردستان، قوة وسطوة السوط، اخطار الطريق، المخاوف من الروس، نزاع مع قبيلة كُردية، مقابر تثير الاهتمام، كويسنجق، تفاصيل حول الكُرد، الوصول الى اربيل، الموصل

***

عقدت صفقة مع "علي آغا"– شولنجي[٣٠]، ليصحبني الى القسطنطينية مقابل ستمائة قرش، وهدية صغيرة كان علي ان اقدمها للخادم الذي سيقوم على خدماتي اثناء الطريق. وكان ذلك الشخص (لوحة

---

[30] تشولنجي Chulingi، لقب اضافه باشا مصر الى اسمه الحقيقي "علي آغا"، اي جالب الشؤم. بمعنى (حامل الاحماض)، لانه احضر اليه رؤوس الفرنسيين اثناء عملية الغزو، ووفقاً لقيمة الصرف، تساوي الستمائة قرش حوالي عشرين جنيهاً استرلينياً). وقد صرفت عشر جنيهات اخرى اثناء الرحلة وكنت استطيع توفيرها الا انني اعطيتها للخدم وللسُياس لاغرائهم وتقديمهم لي افضل الخدمات. وتبلغ المسافة بين بغداد والقسطنطينية الف وثمانمائة ميل ولكنها اصبحت اكثر من الفي ميل بسبب الطريق الذي سلكناه. وفي مُقابل ستمائة قرش قدموا لي الخيل والمسكن وكل ماهو ضروري لي اثناء الرحلة، وليس بالطبع بالشكل المترف تماماً، ولكنهم قدموا افضل مايتاح تقديمه. ولو صرفت ستة الاف جنيه فلن احظى بخدمة افضل، بل سيقدمون نفس الخدمة. اجمالاً، سيحصل ذلك التتري على اربعة الاف قرش مقابل هذه الرحلة، واذا مالم احصل على تلك الفرصة لكنت صرفت وحدي الفين من الجنيهات. ويحصل التتر الذين يعملون في الشركة على الف ومائتي جنيه للقيام بتلك الرحلة صيفاً في خمسة وعشرين يوماً وفي الشتاء في ثلاثين يوماً. كمايحصلون على مائتي قرش مكافأة يومية، وذلك عن المدة التي يقضونها في الطريق. لذلك نرى ان من مصلحتهم الا يسرعوا او يجتهدوا في الاسراع بتسليم الرسائل. وهناك امثلة على السرعة فمن المعتاد تماماً ان هذه الرحلة تستغرق عشرين يوماً وهناك من يقطعها في ١٧ يوماً. وسمعت ان هناك شخصاً قطع مسافة الالف والثمانمائة ميل في ثلاثة عشر يوماً.

رقم ٤) مسؤولاً من قبل الباشا الجديد ينقل الرؤوس المطلوبة الى القسطنطينية. وستكون هذه الرحلة مفيدة لهم، فقد دفع له الباشا، ودفعت له الشركة ثم انا كذلك. ومع ذلك لاشئ يمنعهم من التخلص من عادة تكديس البضائع وكان كل مسافر يشعر بالضيق من تلك الحال، ولكنهم يرون في ذلك الكثير من المنافع ويتوقفوا عن التذمر، ورغم المضايقات التي تلحق بمن يصطحبونهم، فهم يهتمون باختيار افضل الخيول لحمل امتعتهم،و تزداد مخاطر الطريق فالقافلة تمثل املاً متاحاً لغارات اللصوص.



وفي الاول من مارس، وفي الساعة الثانية بعد الظهر، جاءني خادم تتري الى المقر، جالباً الحصان الذي سوف امتطيه، وكان حصاناً عربياً اصيلاً، من اكبر ماهو موجود في تلك الفصيلة. وهنأت نفسي على ذلك الاختيار. واستأذنت من مضيفي ومن اسرته وتوجهت معه، وتوقفنا بعد مسيرة ساعتين في شارع ضيق لنأخذ بعض الرسائل والطرود، وهي دون شك ذات اهمية كبيرة اكبر بكثير من شخصي الضعيف. كما ان سلوك رفيقي المحترم "سليمان آغا"، كان قد هيأني لتقبل مضايقات كهذه، ولكنني لم اكن مستعداً ان امارس مثل تلك المضايقات او تحملها، وخرجت تحت انظار اصدقائي.

وعند خروجنا من المدينة توقفنا مرة اخرى لانتظار رئيسنا، واكتشفت ان قافلتنا تتكون من تسعة رجال اشداء، مسلحين جيداً، وهناك ستة بغال لحمل الامتعة، وثلاثة من الخيل احتياطاً، الى جانب خمسة ادلاء مشاة لكل قافلة. وقطعنا الصحراء التي تحيط بالمدينة دون ان نبتعد كثيراً عن شواطئ النهر. وبعد ست ساعات من المسير توقفنا امام خان لنزول القوافل بالقرب من قرية الدخيلة، ولم نكن قد قطعنا الا عشرين ميلاً، لاننا تأخرنا عدة مرات لضرورة ترتيب وحزم الامتعة.

ورحلنا في الثاني من الشهر في الرابعة صباحاً وسرنا عبر سهل حيث رأينا اطلال قرى ثلاث، وفي العاشرة توقفنا امام مدينة صغيرة هجرها اهلها جميعاً تقريباً. وكان من الصعب الحصول فيها على بعض المؤن ولكن رفقائي لم يكونوا رجالاً يقنعون بالاعذار التي يقدمها انصاف الجوعى الذين رأوهم هناك. وادخلنا بغالنا في ساحة اول منزل فارغ وجدناه امامنا. ولما لم تجد توسلاتنا نفعاً لتقديم بعض المؤن لنا تم استخدام القمچي او السوط. وتأخر الطلب الذي اراده واحد من الاتراك. فاحاط حبل السوط برقبة احدهم واستل سيفه ليطيح براسه، ولكن وصل خادمي التتري لحسن الحظ

واستخدم نفوذه بناء على رجائي لانقاذ ذلك المسكين فحياته كانت لاشئ بالنسبة له. وذهبنا الى منزل اخر واستطعنا الحصول على المؤن التي حصل عليها السكان من القوات التي اجتاحت البلد قبيل فترة من الزمن، استطعنا بالسوط والقروش الحصول عليها. ولم نقطع في ذلك اليوم الا مسافة ثمانية عشر ميلاً وثلاثة ارباع الميل، وكان ذلك مايكفي لاناس لم يكادوا يذوقوا طعم الراحة او الغذاء.

وفي الثالث قطعنا مسافة واحد وعشرين ميلاً في بلاد مستوية بها الكثير من الوديان وحيث لحق بقافلتنا عشرة رجال من الكُرد المسلحين وجيورجي واحد، اعتقدت انه كان مملوكاً يخدم في بلاط الباشا الجديد. وهنأت نفسي على هذه الزيادة. ولكنني لم اكن اتوقع ذلك القهر والمضايقات التي يمكن ان يتسبب فيها ظرف ما، شئ كنت اعتبره يبعث على الرضى. لقد جعلونا نعرف ان ذلك الجيورجي كان عبداً يثق فيه الباشا الجديد. وتذكرته، عندما كنا في حضرة الباشا كان يقف مع العبيد في اخر الصفوف. والان تبادلنا المواقع، لانه ومنذ اللحظة التي انضم فيها ذلك الشخص انصبت جميع الاهتمامات والرعاية على شخصه من قبل خادمي التتري الذي احتضنه بافضل مكان يقيم فيه، والاكثر تشريفاً له في حين وجد الانجليزي نفسه محتقراً ومُهاناً ومُهملاً ولا يساوي من الارقام الصفر حتى. واذا لم يجد الجيورجي شيئاً يقوم به، يأتي الي ويمطرني بالاسئلة يُلقيها في تعالٍ وكبرياء، وهي اسئلة وددت ارادياً ان اجيبه عليها وانا حامل سيفي اذا ما واتتني الفرصة و اواجهه وجهاً لوجه.

وفي الخامس، توقفنا ثلاث ساعات في كفري، وعند اقترابنا من تلك المدينة استولينا على خروف وقسمناه بسيوفنا. وذبحناه وقمنا بشيه على النار وفي وقت قليل جداً لايمكن تصديقه. ولم يحاول الكُرد سلخ ربع الخروف الذي اعطيناهم اياه. ولكن عندما وضعنا الخروف فوق الفحم

اكتفوا بشيه شواء خفيفاً. ثم رحلنا في الثالثة مساء متوجهين قليلاً نحو الشمال الشرقي للوصول الى جبال كُردستان ومنذ ان رحلنا من بغداد، تابعنا الطريق المألوف، وخرجنا تماماً من المدينة ودخلنا ذلك البلد المجهول الى الشمال الشرقي من كفري، والذي يظل ابيض فارغاً على جميع الخرائط، بسبب نقص المعلومات الحقيقية عنه. واسفت جداً لانني لم تكن لدي الامكانيات الضرورية لكي استطيع ان اقدم عنها معلومات دقيقة كافية. ولكن واستناداً على العادة والخبرة التي اكتسبتها بتقدير المسافات، فيمكن للمعلومات التي سوف اوردها ان تكون دقيقة بما فيه الكفاية.

ان البلد الذي دخلناه كان جبلياً والارض غير منبسطة، ولم يكن فيها اي اثر للزراعة او مايدل على وجود قرى. وعلى بعد احد عشر ميلاً من كفري، وفي اللحظة حيث بدأ الليل ينشر ظلمته في الافق وجدنا مخيماً كُردياً. وكان الهواء بارداً جداً نظراً لارتفاع الارض حيث نوجد الان. ومع ذلك ولان مضيفينا رفضوا استضافتنا داخل خيامهم، اضطررنا للتخييم في الهواء الطلق وسطهم مع حرصنا على وجود حُراس دائميين مخافة وقوع هجوم مفاجئ.

اما الشعب الذي وجدنا انفسنا بينه كان مختلف تمام الاختلاف من حيث الاصل بعادته وطباعه عن تلك القبائل المتخلفة الرُحل ولكنهم كرماء ومضيافون وقد تجولت كثيراً بينهم. والقبيلة التي كانت تحيط بنا لم تكن بالتأكيد كبيرة لان عدد الرجال القادرين على حمل السلاح لم يكونوا اكثر عدداً منا. ومع ذلك قلقنا اكثر من مرة لان احد هؤلاء اللصوص كان يتسلل بالقرب من مُخيمنا في هدوء بالقرب من حدود مخيمنا واضطررنا ان نقول بأن سيوفنا ستطال اول من يتخطى الحدود التي وضعناها. وكانت ملابسهم بسيطة وتتناسب تماماً تلك الحياة التي يمارسونها، وتتناسب كذلك الحياة الهمجية للمناطق التي يعيشون فيها.

ويرتدي الرجال والنساء معاطف صوفية طويلة بُنية اللون طويلة، مع بنطال واسع يُربط بحزام من الجلد على الخصر، وفوقها قطعة قماش مربعة تغطي الاكتاف ويتم تثبيت طرفاها على الصدر. اما الاختلاف الرئيسي الذي يمكن ملاحظته بين ملابس الرجال والنساء، هو ان الرجال يعتمرون قلنسوة من الصوف تنتهي بطرف مُدبب، اما النساء فيضعن قطعة من القماش حول رؤوسهن على شكل شريط.

وفي السادس، تجولنا في جبال كُردستان الجرداء منذ السادسة صباحاً وحتى الحادية عشرة. وبعد ان قطعنا عشرين ميلاً عبرنا مجرى ماء ربما صغيراً. وتوقفنا في قرية ابراهيم، وهي قرية كُردية صغيرة، وبها منزل لاستقبال المسافرين.

وفي السابع، سرنا مسافة تستغرق سبع ساعات ونصف دون ان نجد قرية واحدة، رغم اننا نقف على المرتفعات يميناً ويساراً. وعدد كبير من هذه المرتفعات تغطيها المقابر، وتذكرنا بتقلب الحياة، وفي تلك اللحظة، فان ادلاءنا الذين يسيرون في المقدمة مع متاعنا، اوقفهم ثلة من الكُرد بدأوا دون انذار بفحص حمولة بغالنا. وجرى ذلك المشهد على قمة جبل، وفي احد تلك المنعطفات والتي كانت دائماً شاهدة على هجمات اللصوص. وفي الحال هرب الادلاء الذين يسوسون البغال، وتوجهوا نحونا وهم يرددون الصيحات العالية. اما انا فكنت على بعد مائة خطوة تقريباً. وصاحوا بي ان اتوقف. وتجمعنا كلنا وانتظرنا كلمة واحدة تؤكد لنا ذلك الذعر الذي انتاب ادلاءنا والذي جعلنا نتصور الامر. ورحلنا في الحال، وبعد ان قطعنا ربع الميل تقريباً. رأينا قطاع الطرق الذين انتهوا من فحص الامتعة، ويعيدونها على ظهور البغال بُغية سحبها. وهجم التتار في الحال وسيوفهم مُشرعة وهم يطلقون صيحات مخيفة. ولكن الكُرد وقد رأوا عددنا لم يقرروا بالطبع ان ينتظروننا بل وهربوا مسرعين تاركين الغنيمة وراءهم، واصبحنا اسياد ميدان القتال.

وبعد ان قطعنا مسافة سبعة وعشرين ميلاً توقفنا في قرية (كچان Kitchan)، وهي قرية صغيرة بائسة تقع على منحدر تل، ومنازلها منحوتة في الصخور ومغطاة بالطين والقصب. ولم نستطيع ان نجد حتى كوخاً واحداً يأوينا من البرد القارص وحيث السماء تنذر بالمطر. وعند مجئ التتار فقط الذين داعبوا الجميع بالسوط رجالاً ونساءً واطفالاً، قدموا لنا آنذاك خيمة وبعض الاعانات.

والسوط هو كل شئ للتتري. وكنت دائماً معجباً بسطوته. اذا ما كان حصانه جيداً، فيكفيه ادنى صوت ليضاعف خُطاه. واذا كان كسولاً فهم بواسطة السوط يعيدون له نشاطه. واذا ما سقط من فرط التعب يعيد له السوط قواه. واذا ما احتاج التتري بعض المؤن فانه يطلبها اولاً، ويشكو عند رفضهم اعطاؤها اياه، ولكنه في نهاية الامر يلجأ للسوط ويوزع افضاله على الجميع دون استثناء هنا وهناك حتى يقدمون له مايحتاجه. وفي القرى البائسة، حيث من الصعب اخذ دجاجة حتى، رأيت ان السوط يعمل على وجود اثنتي عشرة وفي مناطق اخرى. وحيث لانرى ان العشب لايكفي لاطعام خروف، كانوا يسمحون لنا بالاختيار لاخذ ما نريد من بين القطعان كلها. وباختصار، فان السوط هو السلاح الطبيعي للتتري ووسيلته الوحيدة التي لاتُخطئ في اية فرصة كانت، واذا كان هناك شئ ما يدهشني، فهو ان ارى ان هؤلاء البؤساء وهم يعرفون بالخبرة اية معاملة ينتظرون، لايريدون ابداً تقريباً تلبية مطاليبنا قبل ان يُجبر على فعل ذلك بتأثير السوط. فلماذا اذن نرى تلك الشعوب التي تحمل كراهية شديدة ضد الظالم، لايقاومونه ابداً ولايستلون سيوفهم ضده ويرمون بجرابه في مهب الريح. انه الخمول لدى الفرد الذي يعاني على الصعيد الشخصي من انواع العذاب، ولكن لاتحركه شرارة الجوع.

ولننظر الى المستقبل، وسنرى الافاً من القبائل المقاتلة تستجيب للنداء يرسله اول محرر يتوجه نحوها، ويرفعون آنذاك السلاح في وجه المستبد. ويمكن ان نتكهن بسقوط تلك القوة الجبارة المتسلطة التي عانت وعاشت دموعاً ودماءً من جانبي العالم شرقاً وغرباً، والتي تسير بخطى سريعة نحو ضياعها، ويجب عليها بعد قليل ان تفسح الطريق لاسياد جدد، او ان تغرق في الفوضى. والامبراطورية العثمانية الان وهي امام احتمالات انهيارها غرباً في احضان اليونان العريق نراها بنفس الضعف في جانبها المقابل الاسيوي شرقاً، الا اذا رايناها تُركز قواها الذي لن يقدم لها انتعاشاً جديداً، بل من المحتمل ان نراها تنحصر في حدود ضيقة تفرضها جبال طوروس والصحراء وجسر البوسفور. ويمكننا ان نتساءل اذن آنذاك، اية سلطة يمكن ان تخلفها؟ ولكن جدل امر كهذا يصبح غريباً على رحلتي.

واستأنفنا طريقنا في الثامن في الساعة السادسة صباحاً حيث كنا فوق مستوى الوديان. والصعود اصبح اسرع، كما تقدم لك البلاد مشهداً افضل. واذ مررنا بالقرب من تجمع للكُرد خيموا اسفل الجبل، اغار التتر عليهم وسلبوا جميع الخيول التي استطاعوا التوصل اليها. وطاردنا رؤساؤهم، ولكن عددنا كان اكبر بكثير فلم يحاولوا مهاجمتنا. وكان رفاقي يلعنون تلك المناطق التي نجتازها، كما لو ان سكانها هم فقط من اللصوص وقطاع الطرق والاشرار. ولكنني اود ان اثبت هنا اننا نحن كبار اللصوص والسلابة في كل مكان نتواجد فيه ونجد انفسنا نحن الاقوى.

وبدلنا اسوأ خيولنا بتلك الخيول القوية التي سرقناها وبدأنا نصعد جبلاً هائلاً كان يتطلب بالطبع خيولاً قوية. وميزنا تماماً تلك الثلوج الخالدة التي تغطي القمة وكأنها سحابة بعيدة. وكنت انذاك في المؤخرة مع احد التتر، واطلقوا علينا النار من وراء احد الصخور. وانبنى الجميع كثيراً

على ابتعادي عن القافلة نظراً لانهم رأوا في الجوار فرقة تبدو مريبة. والحقيقة هي اننا اذا صادفنا رجلاً ما نعتبره عدواً. ورغبة مني في تأمل ومشاهدة ذلك المنظر الجميل من جميع جوانبه, ولانني احسست بتعب حصاني، سرت بهدوء، ولكنهم استخدموا نفس الطريقة المشهورة واذا به يقفز بطريقة اخافت من لم يعتد عليها.

ومازلنا نصعد منذ اليوم الرابع، ومازال علينا الصعود اكثر. وقد قطعنا لتونا صحراء لم نكد نجد فيها سوى قرية صغيرة وبها مجرى ماء وشجرة. ولكن امتداد اراضيهم بعيداً يشير الى ان عدد السكان كبير. وقد بدأت الاشجار تقدم لنا تباشير الشتاء واصبحت الثلوج اكثر عمقاً. واخيراً وصلنا الى القمة التي تطل عليها جبال اكثر ارتفاعاً بالطبع. ثم بدأنا بعد ذلك في النزول من منحدر سريع لدرجة ان موكبنا اصبح مكشوفاً. ونادراً مانرى التتار يدرسون الارض لمعرفة ما اذا كان من الضروري زيادة السرعة او تقليلها. وكنا نقفز بخيولنا كما لوكنا نركض فوق سهل مستوٍ. وكنت اتوقع في كل لحظة ان اقع انا وجوادي في هاوية ما، على طرف الجبل. ولكنني وللحفاظ على كرامتي، تظاهرت بعدم القلق. ولكن اصدقائي كانوا يسألونني في سخرية اذا ماكنت احب ان اسافر على الطريقة التتارية. وعندما وصلنا اسفل ذلك الجبل، بدأ الطريق ينحدر الى الاسفل ولكن الميل كان اخف بكثير. وكان علينا ان نعبر معبراً مائياً يخرج من الجبال. ولم تجد خيولنا موطئ اقدامها وغرق احدها وجرفه التيار.

ثم توقفنا مساء في (دولان– دوْلاّن Dollan) وهي قرية جميلة تقع في وادٍ تحيطه جبال شاهقة قليلاً. ويرويها ثلاثة نهيرات صافية المياه. وقد نزلت في احداها لازيل تعبي. وكانت هناك نساء يسبحن بدورهن بعيداً، واومأن الى دون تحفظ، وطلبن الاقتراب، وكنت اعرف خطورة الاستجابة ولكن

لكي اقول الحق، فقد كن امهات كبيرات السن، ومن بينهن واحدة ليست حلوة بالمرة، ولم يكن من ذلك النوع الذي يحاول اغراء مُسافر متعب. اكملت حمامي وتوجهت للمنزل الذي نقطنه. ووجدت رفقائي يستمعون لاحد منشدي الجبل، يرافقه طبل كبير ويقوم بحركات عنيفة. وبعد ان جمع بعض المال، انسحبنا. ولكي اتفادى القمل والدخان قررت النوم في الهواء الطلق. وفي هذا اليوم قطعنا واحداً وعشرين ميلاً. اما الممر الذي مررنا به عبر الجبال فكان يُسمى (سگرمه Saogirmah).

وفي التاسع، وبعد ان قطعنا واحداً وعشرين ميلاً عبر الجبال والوديان، ولكن بشكل عام ونحن ننزل، دخلنا الى سهل خصب تبلغ مساحته من حوالي عشرة الى اثنى عشر ميلاً عرضاً وخمسة وثلاثين طولاً. ويرويه نهير يمكن عبوره ويمر في السليمانية، عاصمة كُردستان حيث وصلنا ظهراً. ان ما يجب ان نراه حقيقة في تلك المدينة هو ان محيطها ميلان ويمكنها ان تمتد اكثر اذا اردنا ان تحتوي المباني المستقلة والقرى القريبة منها. والمنازل مبنية من الطين والطابوق النئ وهي من دور واحد. اما السقف فسميك ومستوى. وهي بشكل عام قبيحة الشكل وغير مريحة. والسكان الذين لايزيد عددهم عن اثنى عشر الفاً او الخمسة عشر الفاً هم في الغالب اكراد فيما عدا بعض الاسر اليهودية والارمنية الذين يهتمون وحدهم بالاعمال التجارية.

ولأن لدينا رسائل يجب تسليمها الى السلطات من قبل رؤساءهم، ولأن باشا كُردستان كان آنذاك في مخيم داود باشا، فقد استقبلونا استقبالاً مُشرفاً. واقمنا في القصر، وقدموا لنا غذاءً رائعاً شبيهاً بما يقدمونه في فارس او في تركيا. ولن اتحدث عن ذلك، فهناك الكثيرون من الرحالة الذين وصفوا تلك المآدب. ومع ذلك يجب ان اقول شيئاً عن طبق قدموه لي على وجه الخصوص كونه كما يقولون الطبق المفضل في كُردستان. وطبق اللحم هذا

هو يخنة الارنب البري والتي تدلل رائحته على انهم حفظوه حتى تفسخ تماماً. وهو يطبخ بالدم والدهن والثوم وجميع انواع التوابل المعروفة. ورغم انني كنت معتاداً على اليخنة المتبلة، فلم استطع ان اتحمل الطعم ولا الرائحة. ووجدتني مُجبراً على ابعاد طبقي واعادته مع ما صاحب ذلك من مرحٍ غامر لدى الجميع فهم لايتصورون ماهو افضل من ذلك الطبق، بل وتعجبوا لانني غير قادر على تذوق الطعام.

ولكن عندما انكشف سرّي، وعرف الضيوف انني اوربي، رجل انجليزي غير معتاد على تلك الاطعمة الجيدة، تصورت انهم سوف يمزقونني ارباً، فقد ظهر فضولهم الشديد لرؤية ولمس من يسمونه الفرنجي. وامطرني الجميع بالاسئلة في وقت واحد، واراد كل منهم ان يرى سيفي، ساعتي ومسدساتي وابدوا اعجابهم بدقة ومهارة الصناعة، وخشيت ان تضيع الاشياء بين ايديهم ولكن ولحسن الحظ كانوا جالسين في وقت الراحة والاسترخاء. وطلبوا مني ان اطلق رصاصة على احد الاعمدة في الساحة وكنت سعيداً جداً بذلك لكي ارسل تلك الطلقة. وتعجبوا من السرعة التي جهزت فيها المسدس واقتنعوا بأن الاوربيين هم بالتأكيد اكثر شعب يثير الدهشة في العالم.

واخذوا يقصّون عليّ كيف ان الاسكندر، ذلك المحارب الاوربي الكبير قد غزا بلادهم. واخذوا يسردون الوان البطولات والقصص السخيفة التي لم افهمها تماماً. وقالوا انهم علموا بأن الروس وحدهم القادرين على غزو بلادهم وانهم اخبروهم بذلك الغزو. وسألوني، اذا ما كان الانجليز يعيشون في سلام. فهم لايعرفون من الشعوب سوى الروس والانجليز والفرنسيين، وعرفوا الانجليز لان البعض منهم كان في بغداد، اما بالنسبة للفرنسيين فعرفوهم لانهم قاموا بغزو مصر.

انها لحقيقة جديرة بالاهتمام، فالخوف من قيام الروس بغزو البلاد ينتشر في طول البلاد وعرضها والتي قمت بزيارتها. وكان ذلك الموضوع محور الاحاديث الدائرة بين الجميع. ويسألونني في كل مكان، اي موقف سيتخذه الانجليز آنذاك، او "بونابرت". اجبتهم بأن "بونابرت" سجين لدينا وفي حراسة جيدة. لم يصدقوا ذلك بل كانوا يأملون العكس، فهم يعرفون انه عدو للروس الذين يكرهونهم بشكل عام، ويعتقدون ان الروس لايُقهرون.

وفي العاشرة، عبرنا الوادي بطوله، وقطعنا حوالي خمسة وثلاثين ميلاً، ومررنا بأربع قرى ووصلنا الى حافة حوض كبير دائري يقع اسفل تل، وحيث تصب فيه دزينة من الروافد الصغيرة ذات الماء الرقراق تنزل من اعلى وتكون ونحن نخرج من الوادي نهراً واحداً كبيراً. وهذا النهر قائم بذاته يرقد فوق ارض فسيحة وكبيرة وطويلة، ويتغذى غيره تقريباً بمياه تتدفق من الاعالي: وهي نقطة تشابه واضحة مع منابع النيل كما وصفها "بروس Bruce".

وتوقفنا في قرية صغيرة اسمها (سوسه)، رأينا فيها حوضاً مشابهاً لذلك الذي وصفته آنفاً ولكن تعيش فيه كمية هائلة من الاسماك، وهي تظهر على سطح الماء مع اي صوت وتنتظر الارز وفتات الخبز الذي يُلقونه اليها[٣١].

---

[31] لكانت تلك الواقعة لتدهشني اكثر لو لم اكن قد رأيت شبيهاً لها وفي ظروف اكثر اثارة. في ضواحي "ماننتودي" في مالابار وبالقرب من احد المعابد على شاطئ احد الانهار، نجد عدداً لايحصى من الاسماك المستأنسة والتي لاتبتعد ابداً عن ذلك الحي. كما يبدو انهم في امان به. وقد ذهبت صوب ذلك المعبد مع بعض الاصدقاء للترفيه. وبدأنا تجربتنا بالقاء بعض فتات الخبز والارز وبعض النباتات، ورغم الضجة التي تسببنا فيها في تكاسل على الشاطئ وجاءت تلك الاسماك حتى الشاطئ وباعداد كبيرة جداً غطت صفحة النهر. وكان هناك في الماء شئ من المامبو يمكن الارتكاز عليه. واتت الاسماك عبره لتتناول من ايدينا. ثم تغطس لتعود لتتناول قطعة ما

ومنذ ان ترجلنا، بدأنا في تفريغ حمولات جيادنا، وكنا قد استولينا على سقيفة رغم ارادة اهلها، الذين طلبوا منا الخروج ولم نفعل ورفضوا ان يقدموا لنا اي شئ. ولم نر سوى شيوخاً ونساءً واطفالاً. واستخدم التتار لغتهم الطبيعية وسحبوا سياطهم ووزعو بحرية فضائلهم. وفي الحال، رأينا ثلة من الفرسان على خيول جيدة، اندفعوا نحونا بعد ان سمعوا اصوات المضروبين بالسياط. لقد عرفت مرات عديدة سطوة السوط، ولكنني واصلت تفريغ حمولة حصاني ولكنني لم اشعر بالخطر الا عندما سمعت التتار يطلقون صيحات الحرب، وحولت انظاري نحوهم ورأيتهم جميعاً وسيوفهم مُشرعة. وفي الحال، هجم الاعداء علينا، في حين كان سكان القرية يرجموننا من الخلف بالحجارة. وكان الاعداء يفوقوننا عدداً ولكن تسليحهم لم يكن بمستوى تسليحنا، كما انهم لم يكونوا معتادين على القتال مثل رجالنا الذين ابدوا شجاعة فائقة. و"علي اغا"، كان مُبرزاً بينهم. ونجحنا في اجبارهم على الهرب. واصيب احد رجالنا بجرح في كفه وآخر بجرج خطير في كتفه. ولم تكن جيادنا في حالة جيدة لكي نتبعهم، حيث انهم قد انسحبوا الى شارع ضيق كان من الخطر مهاجمتهم فيه.

وكان رئيسنا رجلاً حريصاً جداً ليخاطر بشئ معاكس. ولما كان قد قنع بهذا النجاح، طلب منا ان نحذر ولا نفترق. وجميع المنازل هجرها اهلها او ظلت مغلقة، وتوجب علينا ان نتخلى عن المأوى وعن المؤن.

ثانية. ويبلغ طول العديد من الاسماك من اربعة الى خمسة اقدام، رغم ان هذا النهر ليس كبيراً واكدوا لي انه من الخطورة النزول للاستحمام فيه. ويعتقد السكان الاصليون ان تلك الاسماك الهائلة تعيش في حماية المعبد وآلهته، ومن يمسك بها او يذبحها فانما يجرح مشاعرهم الدينية. ولا اعتقد ان اي اوربي استطاع معرفة نوع تلك الاسماك. ويؤكد الاهالي ان من يتناولها يموت نظراً لان لحمها مقدس. ويمكن لهم ان يتفهموا ماسيكون ذلك بالنسبة الانسان مثقف حساس معتد بنفسه يتجرأ على تحدى الخوف الذي يوحون به اليه.

وانتظرنا مجئ الليل لكي نرحل، ولكن ادلاءنا الكُرد قد عقدوا شكلاً من اشكال الهدنة مع السكان الذين اقتنعوا باننا مستعدون للدفاع عن انفسنا واننا لن نخسر الا القليل. ووافقوا على ايقاف جميع اشكال المناوشات العدائية، الا انهم رفضوا بعناد تقديم اي شكل من اشكال المؤن.

وفي فجر الغد رحلنا، فلم نكن نستطيع الاعتماد على صدق نوايا اعدائنا كما كنا نريد ان نتجنب وقوع هجوم جديد، وكانت البلدة تكسوها الجبال. ووصلنا مع الظهر الى قرية تقع على ضفاف النهر، ويسميها رفاقنا "الزُور"، وعبرنا على شباك وضعت عليه على قِرَبٌ من جلد الخراف مليئة بالهواء. وكان مجرى الماء سريعاً جداً وعرضه مائتان واربعون قدماً. ولم اره على اي خريطة وحُددت له حدود دقيقة. وهي تسير في اتجاه الجبال. ثم تستدير بعيداً نحو الشرق، وتقطع الطريق الذي كنا نظن ان "هرقل" قد قطعه عند عودته من (Guzuca). كما انها تحدد الاراضي التابعة للسليمانية. وقد توقفنا ساعة ونصف الساعة نتأملها. ومن ثم استأنفنا السير حتى وصلنا الى قرية تسمى (كهليخان Kouli Khan)، بعد ان قطعنا سبعة اميال على الاقل.

ونحن اذ نتحدث عن انسحاب "هرقل" بعد حملته الثالثة، فيجب علينا ان نتقبل انه ورغم كل ما يقال عن العقيد "كينير Kinneir"، سوف نحمل انفسنا الكثير اذا ماقلنا انه يمكننا ان نجد بعض الآثار. ومع ذلك تجدر الاشارة الى ان ذلك العدد الكبير من المقابر التي شاهدناها اليوم تدعو للاعتقاد بان معركة قديمة كبيرة فظيعة قد وقعت على هذه الارض. لاننا لانرى اي اثر لاية مدينة، او قرية او اطلال يمكنها ان تحكي انه كانت ثمة مدينة ما كبيرة هنا.. لاشئ. وبالاضافة الى ذلك، فهذه المقابر لاتصطف في النظام المعروف الذي نراه في مقابر المناطق المأهولة. فهي ليست مجتمعة في مكان خاص مجهز لاستقبال الموتى ولكنها منتشرة في جميع الجهات،

مكونة دائرة يرتفع في وسطها قبر اعلى منها قليلاً ومُغطىً بالاحجار وذلك للاشارة ربما الى رئيس ما وحوله جنوده. واخيراً، فان الموقف النسبي لتلك المقابر انها تشكل فيما بينها خطاً مُنبعجاً انبعاجاً كبيراً من الوسط اكثر منه في الاطراف، ويبدو انها شيدت بعد معركة عنيفة دامية.

ويصنع الكُرد في كلي خان، بُسطاً من اجمل الالوان. وقد سمحوا لنا بالبقاء في احد الاكواخ البائسة، ولكنهم قدموا لنا طعاماً جيداً من الارز والمشمش المكبوس المحفوظ. وقد رأى بعض الكُرد من تلك القرية مُسدسين لدى احد التتار، حيث الماسورة يصل طولها ١٨ بوصة، واصر على الشراء. ولما لم يكن التتري راغباً في البيع، طلب منه عشرين دولاراً. قدمها له في الحال، في حين انهما لايساويان اربعين سنتاً. وقال لي التتري وهو يضحك من جهلهم انه قد جمع ثروة صغيرة منذ اسبوعين في مخيم داود افندي حيث كان الموكب على بُعد ثلاثة ايام من بغداد. وقد اشتروا منه كل ماجلب من القسطنطينية. وتدلل طريقة الشراء القسري تلك على معرفة طبائع تلك القبائل. فهم لصوص بقدر ما يُبدون من كرم وسخاء. لقد اخذوه، وابقوه في المخيم العائد لـ"داود افندي" ، حيث كان الموكب على بعد ثلاثة ايام من بغداد. وقد قاموا بعدة محاولات لاجباره على فتح امتعته دون جدوى. وفي الليل فتحوها عنوة، وطلبوا منه في الصباح ان يحدد سعر كل بضاعة ودفعوا له ثمنها في الحال، وهذا لانهم عاملوه كصديق. اما ذا كان عدواً، كان يمكن ان يفقد حياته بعد ان يفقد بضاعته، هذا اذا ما حاول مقاومتهم.

وفي الثاني عشر، وبعد ان قطعنا ستة عشر ميلاً ونصف الميل، وعبر شارع جبلي شاق، دخلنا واد حيث تقع مدينة كويسنجق. وقبل ان نصل اليها، رأينا اطلال بناء كبير، وعبرنا مجرى ماء وهو من روافد الزاب الصغير، وحيث يوجد جسر حجري كان موجوداً قديماً ولكنه انهار. وتقع

تلك المدينة على مرتفع يبعد عن النهر. وهي محصنة جزئياً، واكبر من السليمانية وابنيتها اجمل. وربّما يبلغ تعداد سكانها اثنى عشر الف نسمة. وتوجد فيها مساجد عديدة جميلة تعلوها قباب. كما توجد فيها بعض الحدائق الغناء على شاطئ النهر. ويمكن تفضيلها بشكل عام على كثير من المدن الاسيوية. وهي نظيفة جداً حيث توجد البالوعات وبعض المنشآت العامة من نوع آخر. لااستطيع ان اذكر اسماءها هنا. وسوق كويسنجق كبير وملئ بالبضائع. ولا يجب ان انسى ماقالوه لي ونحن ننزل الممر المؤدى للمدينة وهم يشيرون الى جبل قنديل. ويُقال ان الاسكندر قد خاض فيه معركة كبيرة. وتنتهي تلك المنطقة الجبلية المرتفعة بمدينة كويسنجق، ومركزها السليمانية مع انها ليست الاكثر ارتفاعاً. انه اكبر جزء جبلي في كُردستان، وسنعرف يوماً ان الملاحظات التالية كلها صحيحة.

١. الاتجاه العام لطريق كفري- كچان Kitchan. يرتفع دوماً ويعبر الجبال والوديان لمسافة (٥٨) ميلاً ويتجه نحو الشمال الشرقي.

٢. بين كچان ودولان، يمر المرء عبر سلسلة الجبال الكبرى التي تنزل الى كويسنجق، ويمتد من الشمال الى الجنوب والى الغرب اكثر كما توضحه الخرائط.

٣. ينزل الطريق عامة من دولان وحتى وادي السليمانية، ويتجه نحو الشمال الى الممر المؤدي الى كويسنجق ثم يستدير نحو الغرب ليصل الى اربيل. الطريق المباشر من بغداد الى الموصل.

٤. يصعد الطريق من السليمانية وحتى قمة ممر كويسنجق قليلاً، وبنفس المسافة التي ينزل بها منذ دولان.

تلك هي اذن السليمانية، التي تقع في مركز اعلى وادي في كُردستان، الوادي المحيط بجبال شاهقة مغطاة بالثلوج طيلة ايام السنة

تقريباً. وتتمتع بكل مميزات مناخاتنا الاكثر اعتدالاً. وبخصوبة ارضها الفائقة التي تضاهي خصوبة المناطق الحارة. وفي الحقيقة، فان وادي السليمانية، يعتبر واحداً من اخصب وديان العالم. والكُرد، امة متنقلة من مكان لآخر ومنذ عصور سحيقة. وينحدرون من الفرثيين، ومازالوا يحتفظون بعاداتهم القديمة في تلك الجبال حيث يعتزون باستقلاليتهم وبنفسية ترفض القمع والتسلط، ومع ذلك فمن الغريب ملاحظة ان هناك خطورة حتى في مواجهتهم، ويختلف الجبليون عن مواطنيهم القاطنين في السهول، وهم قطاع طرق متمرسون، ينشطون باستمرار، وشغلهم الشاغل البحث عن فرص ملائمة للسلب والنهب. واذا اردت صورة لهم ستجدهم رجالاً اشداء، ذوي بنية قوية موفورة الصحة والحيوية والنشاط. وتغطي اللحي الطويلة ذقونهم واسفل خدودهم، كما ويتناقض سواد شواربهم وزرقة عيونهم العميقة، ذات النظرات النفاذة كما الصقور التي تبحث دائماً عن الفرائس وعن لذة الانتقام. وتراهم دائماً مُدججين بالسلاح ويحتفظون في منازلهم بالمسدسات والخناجر والسيوف حادة النصل. وعندما يخرجون يحمل واحدهم فاساً وبندقية وحربة ودرعاً. وتبدو عليهم بوادر الصحة والعافية التي تبعث الانتعاش في بشرة تميل الى الصفرة، وتلك اذن صورة لساكن الجبال، قاطع الطريق القوي العنيد.

وتأتي المرأة الكُردية لتكمل تلك اللوحة. وفي فترة الصبا، تنضج البشرة السمراء بالحيوية وتراها مرحة ويمكن ان تعتبرهن حوريات الجبل. ولكنهن مايلبثن ان يُصبحن فارسات يصحبن ازواجهن في جميع رحلاتهم. ولكن سحرهن مايلبث ان يخبو مع متاعب الحياة المتنقلة.

وتنفجر جاذبيتهن بكل عنفوانها من سن الخامسة عشرة الى العشرين فقط. وتراهن دائماً راكبات. وهن يفُقنَ ازواجهن بجرأة وسرعة حركتهن. وقليل من الخيول فقط يمكن ان تُضاهي خيول كُردستان وخصوصاً في سرعة صعودها ونزولها من التلال المتشعبة جداً والاكثر انحداراً. ويعشق

الكُرد غزال الريم، ويطاردونه بنفس العنفوان والحماس رغم وعورة الارض فخيولهم الجميلة اكبر حجماً من الخيول الاخرى، الى جانب ان ركوبها آمن، ولا تتعب بسرعة، وهي جميلة وتشتعل نشاطاً وحيوية.

ولا استطيع ان اتحدث عن التقسيم الجغرافي لكُردستان بدقة، فداخل تلك البلاد مجهول تقريباً. ولايوجد رحالة اجنبي استطاع ان يعبر تلك الجبال في الاتجاه الذي سرنا فيه؛ ومع ذلك يبدو ان تلك المنطقة كانت معروفة قديماً، اذا اردنا ان نعتمد على وفرة النقود الذهبية والفضية اليونانية والرومانية، والتي يستخدمها الاهالي لزينة النساء والاطفال.

ويعود جزء من المنطقة اليوم الى تركيا، والاخر الى فارس، ومقسمة الى حكومات صغيرة يحكمها باشوات ينتظرون دورهم. ولايعترفون الا ظاهرياً بسلطة رؤسائهم هنا او هناك. وهم يتقاتلون فيما بينهم ويفصلون في خلافاتهم والسيف في ايديهم حيث توارثوا عداوات قبائلهم وينقلون روح الانتقام الى من يخلفهم. هذا الى جانب ان السلب والنهب والاعتداء خبز يومي، وكثيراً ماتستخدم حالة الفوضى حُجة لوقوع الكثير من الجرائم. ولان الكُرد بطبعهم قطاع طرق مهنيون وحقودون فان شرور وفساد حكوماتهم لاتؤثر كثيراً على حياتهم الاعتيادية اليومية.

ومع ان الجبال تُعتبر نهاية الممر الذي يؤدي الى كويسنجق، ظللنا نسير طيلة النهار يومي الثالث عشر والرابع عشر حتى الظهر على تلال صخرية وعرة تقطعها وديان عميقة وعبر طريق شاق خطر. واعترض اللصوص عدة مرات خطوطنا الامامية لوقف سير قافلتنا، ولكننا كنا اقوياء بما فيه الكفاية لردعهم. هذا الى اننا لم نكن نحمل الكثير من الامتعة التي يمكن ان تثير اهتمامهم. وواصلنا سيرنا ووصلنا بدون حوادث الى اربيل، اربيل القديمة، وبعد ان عبرنا الاسواق والشوارع

القذرة، اخذونا الى اجمل منازل المدينة، وكان من السهل معرفته انه رغم الحفاوة التي قابلونا بها، يرى الجيورجي، انهم لم يستقبلوه كمايجب، وهو المملوك المفضل لدى باشا بغداد. ولعب دور الرجل الكبير، والتزم الصمت حفظاً لكرامته، بل انه اظهر تحفظاً متعالياً ورفض الاندفاع الودي الذي حاول الحاكم اظهاره ليطلب وده. وكانت تلك الزيارة متأخرة وفقاً لقواعد اللياقة. وشعر الجيورجي بالاهانة من تصرف الحاكم، الذي لم يقدم له فروض التكريم والتحية عند وصوله، وهو تكريم اعتقد انه سيكون اكبر من حجم ومكانة الجيورجي. وقد عامله الحاكم بفتور، واصبحت لديه اسبابه للخوف من نتائج خطئه السياسي ولذلك حاول تهدئة مشاعر ذلك الشخص الهام في محاولة لدغدغة غروره.

وجمع الحاكم جميع قوات الحرس ورجالات الدولة في الساحة حيث المنزل الذي نقيم فيه. وبعد عدة طلقات اطلقها الفرسان في الهواء، تمت قراءة الفرمان الذي يقضي بتعيين "داود افندي باشا" على بغداد. وهنأ الجميع بعضهم بعضاً، وتماسكوا جميعاً بالايدي ليؤدوا رقصة فرح هادئة تصاحبها اغنية هامة رتيبة قدمها رئيس الحفل. وكان من السهل ان نرى ان مظاهر الفرح تلك لم تكن من القلب، فهم يحتفلون فقط بتبديل مستبد باخر، وهو تعبير يتم هنا في الشرق على حساب الحكام، ولان الناس في السلطة لايتركون الغنيمة الا بعد الشعور بالتخمة. وجاء العامة على فترات للانضمام للحفل وللهتافات. وعندما لاتكون الاصوات عالية جداً، فهناك اناس، باسم الحفاظ على الامن، يلكزون اكتاف المشاهدين يميناً ويساراً حتى تعلو وتتسارع اصواتهم. وينتهي الرقص باطلاق العيارات النارية في الهواء بشكل غير منتظم. ولان الاسلحة النارية محشوة، فمن حسن الحظ ان الحوادث لم تقع.

وبعد انتهاء الاحتفالية شاء سوء حظي كوني اوربياً ان يهجم علي جميع مرضى وكسيحو المدينة معتقدين انني استطيع ان اقدم لهم الشفاء. وفوجئوا، ولم يتقبلوا قولي لهم وانا اشير الى سيفي ومسدساتي ان مهنتي هي ان اقتل وليس ان اشفي. واحد من بينهم الح ان العب دور الطبيب رغماً عني[٣٢]. ابعد عني جميع المرضى وقال لي انني محق في ايجاد ذريعة للتخلص منهم وقدم نفسه على انه رجل مهم وفي مستوى الحاكم وطلب مني ابداء رأي في مرضه الذي وصفه. وانه يعلم جيداً ان الاوربيين خاصة الانجليز علماء في الطب. وقدم لي اسماء عدة من موظفينا على انهم اطباء مهرة[٣٣]. بل اشاد بلحية احدهم الطويلة وجديته في التعامل. ولم تبق امامي فرصة للتخلص منه، وخشية من فقداني هيبتي وجدارتي كانجليزي، ولاني لم اكن ارغب في ان العب الطبيب، نصحته بالسفر الى بغداد لاجراء عملية كنت اعرف ان مرضه يتطلبها، ولكي اتخلص من الحاحه اعطيته كمية من الادوية التي لدي، ثم طلب مني علاجاً لضعف في احد اعضائه المعينة واعرف انه لايوجد اي شئ في العالم لعلاج ذلك، قلت له انني لا اعرف، ولا اعرف مطلقاً دواء يُشفى ذلك الوَهنَ، وعندما قلت له ذلك، قال لي انه سوف يجرب تناول دوائي ولكنه لم يعد يصدق انني عالم.

وفي المساء، تمت دعوتنا لتناول عشاء فاخر يحوي على الاقل اربعين نوعاً مختلفاً من اللحوم. وقدموا للضيوف ابناء الحاكم للتعرف عليهم، ثم قدموا لنا من يسردون القصص ثم الموسيقيون وذلك لتسليتنا. واذ لم اسمع الا بصعوبة ما ارادوا قوله لي بشكل عام، على

---

[32] اشارة الى مسرحية موليير المعروفة ((طبيب رغماً عنه)). [المترجمة]

[33] عندما يقال في العامية الفرنسية بان الفرد ((نِدٌ لفلان))، ذلك يعني طبيب ماهر لان "اسكلبيوس" انه الطب عند اليونان وابن للاله ابولون.

وجه الخصوص، افترضوا انني لا اجد اي تسلية في سماع قصص مواضيعها مجهولة لي ولا استطيع فهمها. اما بالنسبة للموسيقى فقد كانت نشازاً وبدائية لاتتقبلها وبسرور الا الاذن التركية، وهي تشبه اناشيد الشعراء الجوالين في جنوب فرنسا حيث استمعت اليها في قرية جنوبية هناك، ولكن شتان بينها وبين وما قدموه وهو اقل منها قيمة بكثير. ومع ذلك بدأ السرور والحبور على رفاقي وشاركتهم الترحيب الذي قوبلت به. والاتراك كما الاسيويون، لاتجذبهم روعة تناسق الالحان وتذكرت ماقيل لي في احد الاعياد العامة وفي بلاط نظام وحيث عزفت فرقة موسيقى الجيش التابعة للشركة اعذب الحان السمفونيات المعروفة، ولكنهم طالبوهم باللحن الذي سبق تلك السمفونيات والذي لم يكن سوى مجرد توافق الآلات استعداداً للحفل.

ولما انفرط عقد الضيوف، تهيأت للنوم على البساط والوسائد التي في القاعة، حيث تناولنا العشاء. وجاءني التتري الخبيث ليطلب مني ان اذهب الى احدى الغرف في الطابق السفلي. وتصورت قبلاً ان القاعة مخصصة لاغراض اخرى، حين علمت انهم ارادوا تهيئة اجمل شقة لرفيقنا الجيورجي. وشعرت بالغضب لاهانتي، ورغم الصيحات التي ارتفعت ضدِّي، اخترت المكان الاكثر راحة، واستلقيتُ بهدوء استعداداً للنوم. ولرّبما انتقد البعض تصرفاتي ونعتوني بقلة الادب واللياقة، ولكن خبرتي بطبائع الآسيويين، علمتني انه اذا وافقت الان على ذلك ستسقط هيبتي والمرتبة التي يحفظونها لي في نفوسهم. ولانه في تلك المناطق حيث يجهلون امبراطورية القانون، اذا ما اظهرت بعض اللطف والتواضع فانهم يعزون ذلك اما الى الخوف او الى الشعور بالدونية. وبما انني تشرفت بالمثول في حضرة الباشا وعندما كان ذلك العبد الجيورجي الوقح يقف في اخر القاعة ولم يُدع للمثول في حضرته، كنت متأكداً ان رفاقي سيظنون برفضي انني في منزلة هامة من الصعب ان اتنازل عنها.

اربيل، ارابيل القديمة، تشتهر بتلك المعركة الشهيرة التي تحمل اسمها، بالرغم من انها وقعت على مسافة بعيدة عنها، كما اشتهرت لأن "دارا" قد لجأ اليها بعد هزيمته. انها مدينة قبيحة، قذرة يوجد في مركزها اطلال القصر- القلعة. كما انها تقع على احد تلك المرتفعات الاصطناعية التي تتوج السهل الذي تطل عليه. وهي تبدو للناظر كتلة هائلة من الاطلال والمواد المكدسة. وسكانها خليط من المسيحيين والعرب والاتراك والكُرد واليهود واليزيديين عبدة الشيطان. وتشتهر اربيل بصناعة الاغلفة السميكة الممتازة جداً لمقاومة للرطوبة.

وتركنا اربيل في الخامس عشر من الشهر صباحاً، ورافقنا الحاكم نفسه مع حرس الشرف لمسافة ثلاثة اميال، واستأذن الجيورجي في احترام كبير مودعاً اياه، ولكن دون ان يكلف نفسه توديع جماعتنا. وبعد مسيرة خمس ساعات، في سهل يقطعه بعض التلال، وصلنا الزاب الكبير حيث وجدنا قبيلة صغيرة من اليزيديين ساعدونا على عبور النهر بواسطة شباك تحمل قُرباً مليئة بالهواء. وكانوا عراة تقريباً واظهروا مهارة كبيرة في السباحة ونقل جيادنا للشاطئ المقابل وحتى الاولاد الصغار كان كل واحد منهم وبسهولة يجر جوادين او ثلاثة حتى الشاطئ المقابل. ولم نفقد سوى حصاناً واحداً اراد الرجوع بعد ان اقتربنا من الشاطئ. وفي اللحظة التي امتطيت فيها حصاني امسك رجل غريب الاطوار بجوادي طالباً مكافأة وبضع بارات، كانت لتكفي ولكن لم يكن لدي. فاعطيته قرشاً واحداً، واعاده لي باحتقار طالباً المزيد، فأخذته واعدته الى جيبي. ولم يكن يتوقع ذلك التصرف من جانبي، وحاول الامساك بلجام حصاني وجره محاولاً انزالي وهو ينعتني بالكافر وبالمسيحي الكلب، واوقعته بضربة من سوطي وسط ضحكات رفاقي لذلك الانتصار. وقالوا له انه لم يكن يعرفني وانني لم اكن مسيحياً بل انجليزياً. وهي مقارنة لم افهمها وكان ذلك تصرفاً غريباً بالنسبة لي.

ويبلغ عرض الزاب الكبير ثلاثة اقدام وهو عميق وسريع الجريان في هذا الفصل من السنة. ثم عبرنا سهلاً يشبه السهل السابق حتى وصلنا قرقوش، بعد ان قطعنا حوالي اثنين واربعين ميلاً. وهي قرية كبيرة يسكنها بعض اليزيديين، ومنازلها تعلوها قبة في الوسط وهو مايميز تلك المنطقة. وسكانها شرفاء واحوالهم المعيشية طيبة. وهم في هيأتهم العامة جيدون اما نساؤهم فجميلات جداً. ومع انني لا اشكك ابداً في دقة معلومات السيد "ماكدونالد كيوبير Macdonald Kiuneir" الا انني لا افهم لماذا يظن ان قرقوش، هي قرية (ميميوم Memmium)، على مسيرة اربعة ايام يقطعون فيها مسافة ثمانين ميلاً على الاقل.

وفي قرقوش، نزع التتري قناعه تماماً ليظهر امام اصدقائي مدى اعتداله وتوازنه. فقد انعزل في احدى الغرف الخاصة مع اربعة من اهم رفاقنا قاصداً تناول الشراب حتى الثمالة، وبنفس القدر من الجدية التي يؤدي بها صلواته، ولسوء الحظ، او من الافضل ان اقول لحسن الحظ، كانت الخمر تنقصهم لتحقيق مشروعهم. وبما انه لاتوجد في المدينة اضطروا للذهاب للنوم قبل ان يسكروا كما كانوا يأملون في قضاء ليلة سكر وعربدة.

وامتطينا في السادس عشر، خيولاً نشيطة ممتازة، وكان تأثير ابخرة الخمر التي احتساها هؤلاء الخمسة بالامس لم تتبدد بعد، وجعلونا نرحل وبسرعة كبيرة لم نالفها في سفراتنا السابقة. وكانوا يركضون بخيولهم غاضبين، ويضربون خيولهم بالسياط حتى يُسرعوا اكثر حتى وصلنا الموصل خلال ساعة ونصف الساعة، رغم ان الخريطة تقول ان المسافة التي قطعناها تبلغ خمسة عشر ميلاً.

الفصل الثاني عشر

اطلال نينوى القديمة، قبر يوحنا، وصف مدينة الموصل،رحلة في قلب صحراء نصيبين الصغيرة، الوصول الى ماردين، وصف تلك المدينة، بعض التفاصيل عن اليزيديين او عبدة الشيطان

***

يعتقد البعض ان الموصل تقع في مواجهة الموقع الذي اقيمت فيه مدينة نينوى القديمة. وتقع تلك المدينة على شاطئ دجلة الغربي، وتبعد حوالي اربعمائة ميل عن بغداد، ونصل اليها عبر جسر حجري يعلوه خمسة عشر قوساً، وقد تهدمت الاقواس الخمسة في الوسط. وعبرنا النهر على متن قارب خشبي. ولم اكن اعرف واؤكد على ذلك، سوى ان تلك المرتفعات في الارض وبعض المواد المجهولة والتي تكون جزءً من تلك المدينة الكبيرة التي يفترضون انها اقيمت في ذلك الموقع. ويتطلب الامر وجود معارف كثيرة متشعبة لتأييد ذلك الرأي، وتأكيده بالبراهين. ولكنه من المؤكد ان نرى على مسافة ابعد قليلاً من المدينة بعض الارتفاعات الارضية الاصطناعية، وهي تشبه كثيراً اطلال مدينة بابل. ويبعد الارتفاع الاول مسافة ميل عن الموصل، ويقع على شاطئ دجلة ويبلغ محيطه ميلاً تقريباً. والارتفاع الثاني اكثر ارتفاعاً ولكنه اقل انتشاراً ويعلوه مبنى عليه قبة، يقال انه قبر النبي "يوحنا"، حيث يأتي الحجاج اليهود لزيارة القبر.وتحيط به قرية تحمل اسم المدينة القديمة، ويعتقد كثيرون انها بقاياها. وقال لي دليلي ان ارتفاعات كهذه في الوادي تمتد لعدة اميال. واشار الى بعض الاكواخ مقامة على ارض مرتفعة، واذا صعدنا النهر في اتجاه تلك المرتفعات التي يعود بعضها الى عهد نادر شاه على قوله هو.

والعلماء مشغولون على ماعتقد بتحديد الموقع الذي كانت تلك المدينة قد شيدت فيه قديماً. وتنقسم اراؤهم حيث يرى البعض انه الموقع الذي يواجه الموصل وحيث يوجد قبر "يوحنا"، ويرى البعض الاخر انها ضواحي القرية الصغيرة حيث توجد بعض الاكواخ. ولكن اذا مادققنا النظر عند دراسة المدن التي تُشيد على شواطئ الانهار، سنراها تتبع في اتجاه الشوارع اتجاه مجري النهر، وقدموا نينوى على انها مدينة كبيرة، فلم يعد هناك احتمال ان هذين الرايين يستندان على اساس كما ان هذه المدينة الكبيرة تحتل مساحة (١٨) ميلاً ممتدة على طول النهر. ونحن اذ نصعد ذلك النهر انطلاقاً من الموصل، سنجد وبشكل رئيسي تلك الاكوام الترابية المرتفعة والتي يمكن افتراض انها اطلال قصر او بقايا جدران مباني نينوى الرئيسية، واستناداً على ذلك المنطق تشكل في الاساس حدود الجانب الجنوبي للمدينة.

وتلك المدينة في وضعها الحالي كبيرة جداً، رغم انه ربما كانت تحيطها جدران عالية جداً، عند افولها، و كانت محاطة باسوار من الحجر عالية جداً. وقبل الحصار الذي سوف اتحدث عنه، كانت المدينة تحوي عشرين الف منزل كما يُقال. وقد تدمر ثلثها، ولم يبق منها ماهو مأهول الا نصف ماتبقى من المنازل. واذا اردنا تقدير عدد السكان ، لنفترض ان ستة او سبعة اشخاص يقطنون في كل بيت، وستكون النتيجة ان العدد يصل من اربعين الى (٤٥) الف نسمة. من بينهم اثنى عشر الف مسيحي، ولهم ثلاث عشرة كنيسة ويسكنون في الف وستمائة منزل ولكنها ليست بافضل المنازل. وداخل المدينة يحوي الكثير من الخرائب، ولكن توجد كذلك مباني جديدة، وحمامات ممتازة ومساجد اجمل. اما الحمامات فهي من اجمل مارأيت في حياتي حيث ترى واجهاتها من الرخام وهي كذلك انيقة جداً ونظيفة. ومن بين الستة عشر خاناً، يوجد عشر او اثنى عشر

خاناً كبيراً جداً وتقدم للمسافرين كل مايرغبون، كما هي عادات وطبائع اهل البلاد الشرقيين.

وترى السكان اقل تحفظاً من سكان المدن الاخرى، ولاتلبس النساء الخمار ولايفرض الحجاب قسراً الا في بغداد. وتعكس تجارة السجاد والادوات من الحديد والنحاس ومعدات الخيول، تعكس الواناً من الثراء والثقة في السوق، وبشكل اكبر مما يمكنك ان تراه في غيرها من المدن الكبيرة. والموصل، وكذلك المنطقة الصغيرة التي تحيطها تتمتع بالاستقلال في ظل حكم باشا من الطراز الاول. لقد حاصر، نادر شاه تلك المدينة دون جدوى في ظل حكم حسين باشا. وقد ساهم المسيحيون في الدفاع عنها في حماس وشجاعة مما اثار احترام واعجاب الجميع، ومازالوا يتمتعون بذلك حتى اليوم. وظل حكم حسين باشا. وظل الفرس يهاجمون المدينة لثلاثة ايام اثناء حصارهم لها دون جدوى، فقد كانوا يرتدون كل مرة خاسرين. وما ان يفتحوا اية ثغرة في الجدار حتى يسدونها في الحال و اقسم الاتراك وهم يمطرونهم باسوأ الشتائم واللعنات، ان يذبحوا جميع نسائهم وبناتهم، وسيكون ذلك افضل من تركهن اسيرات هؤلاء الهراطقة المكروهين.

وتحوي الجبال المحيطة بعض المعادن من الفضة وبعض مراقد المرمر. وفيما عدا ذلك، لا اعرف بوجود شئ آخر يمكن ان يثير الاهتمام. واذ قضيت امسية سيئة مساء ذلك اليوم لدى وصولنا، اخذت حمامي صباح الغد وذهبت الى الخان وشهيتي ممتازة. ولكن التتري كان قد ذهب الى الباشا دون ان يهتم باحتياجاتي، اما الخدم فتصرفوا نفس التصرف والتهموا كل ما هو موجود من مؤن ولم يتركوا ادنى شئ. وقد جرح ذلك الاهمال مشاعري، الى جانب ان هؤلاء البؤساء يضحكون مني. وانا وحيد، ومازلت امامي سفرة مؤلمة سأقوم بها برفقتهم، فلا فائدة من حدوث صدام. واتبعت اذن خطتي الاعتيادية. وهي ان اثبت لهم انني استطيع الاستغناء

عنهم. وذهبت الى الحمام مع احد خدم الخان الذي تأكدت من صلاحيته وقدمت له هدية صغيرة على خدماته. وطلبت منه ان يصحبني الى السوق لاشتري بعض المؤن واشتريت ما احتاجه لتهيئة وجبة فاخرة. وعند عودتي وانا محمل بالمؤن وجدت رجالنا وقد تجمعوا حولي بمن فيهم حتى سائق البغال وتدافعوا حولي املاً في الحصول على حصتهم. ولكنني قلت لهم انهم قد تناولوا عشاءهم، ورغم انهم انتظروا ان انتهي من عشائي، لان الانجليز لايتنازلون ويجلسون على المائدة مع اناس من العامة. ورغم سُخف تلك التصرفات التي اضطررت ان اتعامل بها حفاظاً على مكانتي، فقد وجدت فيها بعض الفائدة مع الناس الذين اتعامل معهم. وامرت ان يحملوا الى غرفتي جميع الاغذية التي اشتريتها لنفسي، ولم يعد حولي سوى خدم الخان المتواضعين الذين خدموني بحماس واخلاص املاً في تقاسم ما يتبقى. وعندما عاد التتري، احسست بتأثير تصرفاتي تلك فقد زجر رجالنا وقدم لي اعتذاراته على اهماله لي.

وفي السابع عشر رحلنا ووصلنا قرية صغيرة بعد مسيرة استغرقت ساعتين وثلاثة ارباع الساعة. وتوزعت ضربات السياط على الجميع كالعادة، ولكننا لم نستطع الحصول على اي شئ. واستأنفنا السير، وبعد مسيرة ساعتين وجدنا مخيماً عربياً في الصحراء الصغيرة الممتدة مابين الموصل و نصيبين، وحصلنا منهم على جدى صغير، وقمنا بشيه في الحال. وبعد ان اشبعنا جوعنا استأنفنا السير. وفي الحادية عشرة والنصف التقينا بقبيلة اخرى، ولكننا لم نتوقف الا للوقت الكافي فقط لاختيار ادلاء. وسرنا طيلة الليل ولم نتوقف الا في صبيحة اليوم التالي، على شاطئ مجرى نهر صغير حتى تتمكن خيولنا من ارواء عطشها. ومع الظهر وصلنا الى تلة مرتفعة مخروطية الشكل، صعد عليه ادلاؤنا للتعرف على ثلة من الفرسان رأوهم من بعيد. اما بالنسبة لي، فلم اكن ارى سوى نقطة سوداء تبدو وكان الرياح

فصلتها عن الضباب الذي يغطي الافق. ولكن عيون ادلائنا القوية المتمرسة عرفوا ان تلك النقطة ما تلبث ان تكبر وتنتشر. ولكن بعد ان انضم الينا بعض المسافرين من الموصل، اصبح عددنا ثمانين رجلاً مسلحين جيداً. ومعروف ان السناجق يجتمعون عادة في فرق قوية، تتكون الواحدة من عدة مئات، وطلب منا التتري آنذاك والذي كان قد اعفى بعضاً من كشافينا، طلب منا ان نصعد التلة.

وقال لنا اول العائدين ان نستعد للمعركة. وفي الحال، بدأ بعض رفاقنا يطلقون صيحات الحرب وهم يلوحون بسيوفهم وبمسدساتهم، وذلك لانه مع تصاعد ضجيج الصيحات يتحلون بالقوة وبالشجاعة. واعتقدت ان الظرف يسمح لي بابداء رأيي، وطلبت منهم التزام الصمت التام والقيام بترتيب امتعتنا مما يجعل منها متاريس في المناطق التي فيها ثغرة يمكن استغلالها. وكادت تفقدني تلك النصيحة شهرتي القليلة بالشجاعة والتي اكتسبتها في سوسه، ولكن يبدو ان رفاقي كانوا يظنون ان الصياح كان افضل وسيلة ودليلاً على الشجاعة. فواصلوا اذن صياحهم وضجيجهم في الوقت الذي وجدت فيه بعضهم جالسين على الارض، يتمتعون في هدوء بتدخين الغليون. وبقينا على هذا الحال لمدة نصف ساعة. وحينئذ وجدنا باقي الكشافين في صحبة بعض الفرسان الذين انفصلوا من قوات السناجق، ولم يتوقفوا الا عندما رأوا عددنا، وتماسكنا التام ومواقعنا. فسلموا علينا آنذاك، وانسحبوا ركضاً وانضموا لقواتهم التي مالبثت ان اختفت آثارها تماماً.

وكنا سعداء اذ تخلصنا من عدو تصورنا اننا ارهبناه بشجاعتنا. واستأنفنا المسير، وبعد مسيرة ساعتين ونصف الساعة، فان رؤية جماعة اخرى من قطاع الطرق فرضت علينا ايضاً ان ننظم مواقعنا بين اطلال كثيرة كانت على يسارنا. وبدأ لي ان تلك الانقاض كانت لخان كبير جداً،

في حين يؤكد بعض الرفاق انها انقاض فيللا كبيرة ورووا قصة من قصصهم الفارغة التي يكررونها عندما تحين الفرصة لذلك. وتركنا تلك المنطقة في الرابعة ولو بقينا سائرين حتى منتصف الليل.

وقضينا ساعة من الراحة، ثم امتطينا جيادنا مرة اخرى، وتقدمنا في حذر شديد، حيث طلب منا التتري ان نلتزم الصمت والا نتفوه بكلمة والا ندخن مخافة ان يفضح الدخان موكبنا الصامت. وظللنا دون توقف ودون اخذ اية فرصة راحة منذ السابع عشر، ومنذ الخامسة مساء، حيث لم نتناول خلال سفرتنا سوى قطعة خبز سمراء وبعض البصل. وفي سفرتنا صبيحة التاسع عشر، وجدت حصاني مجهداً ومتعباً جداً لدرجة انه القاني في المستنقع. وعندما توقفنا في العاشرة والنصف امام قرية بائسة وآملت ان نلقى فيها بعض الراحة فيما تبقى من اليوم، ولكن صدرت الاوامر في الحال بالسفر وتوجب علينا ان نمتطي خيولنا.

وحتى هذه اللحظة، لم تسنح لي الا فرص قليلة لكي اشكو من سكان البلاد التي قطعناها سفراً. واذا ما عانيت من بعض التصرفات كالاهمال والوقاحة، فكان ذلك من جانب تركي متعجرف، او من قبل تتري نصف متحضر ممن هم في قافلتنا. ولكن في ذلك اليوم، لعبوا معي لعبة احدثت لي بعض الضرر: فقد تبللت جزمتي الطويلة نتيجة لذلك الحادث الذي وقع لي. وبعد ان يبست صارت ضيقة واصبح من المستحيل ان اضعها في قدمي. وتقدم نحوي فلاح وهو احد ادلائنا، وعرض علي ان البس زوجاً من الجزم مستعملاً وقديماً وعرض ان يأخذ جزمتي حتى ماردين. وكنت دائماً على حذر من ان اقع ضحية الاحتيال. ولكن كانت تبدو عليه مظاهر الامانة التي اقنعتني واعطيته بعض القروش لانه اهتم بي. وبعد قليل عرفت ان شقيقه ترك المعسكر ومعه جزمتي. فجذبته من ياقته وكنت على وشك معاقبته على هذا الاحتيال، ولكن التتري منعني وهو يعدني بأنه سيقوم باقرار العدالة.

ولكنه كان وعداً لم يتحقق مطلقاً. واخيراً، وفي العاشرة والنصف مساءً دخلنا في خان، حيث قضينا الليلة، واستأنفنا الرحلة في العشرين في السادسة والنصف صباحاً، والتقينا في الطريق بمجموعة قوية من التتر، وتقدمنا اليهم بطلب تبادل الخيول، ولكنهم كانوا من الذكاء لئلا يقعوا في الفخ. ثم وصلنا نصيبين بعد مسيرة متواصلة لاربع ساعات ونصف الساعة.

ونصيبين، هي اطلال مدينة كبيرة قديمة، وتقع على شواطئ نهر ليس عريضاً كفاية، ولكنه سريع الجريان. خطها الدفاعي يعتبرُ من جهة الشمال، في حين يحميها مستنقع كبير من جهة الجنوب. ونحن لانرى فيها تقريباً سوى انقاض وان دائرة البريد قذرة جداً بشكل مزعج. وبقايا قناة وبعض المؤسسات الاخرى التي تدلل مع ذلك على اهمية كانت لها قديماً.

ونرى مبنى يبدو انه كان قصراً او قلعة قوية به ثقوب كبيرة. كما نرى مسجداً من الحجر. تعلوها منارة وكذلك انقاض كنيسة كانت قديماً قد وهبت للقديس "چاك". وحوالي خمسة اعمدة من الگرانيت المنحوتة قطعة واحدة. وارتفاعها من خمسة عشر الى ثمانية عشر قدماً.

وبعد ان قضينا فيها حوالي الساعة والربع لتناول الغذاء ولاخذ قسط من الراحة، استأنفنا المسير، وبعد ان قطعنا حوالي سبعة اميال، رأينا اطلالاً هامة، وعرفنا بعد ذلك ان الاسم الحقيقي لها هو قصر جيهان. وتعرض تلك الاطلال فكرة وجود قلعة قوية تمتد على مساحة كبيرة، ومازالت جدرانها السميكة العالية قائمة. واكدوا لي على وجود بئر في الوسط ماؤه عذب رائق، ويمكن النزول اليه عبر سلم حجري، ومازال قائماً لليوم. وقضينا الليلة في قرية حمودة، الصغيرة والتي تقع على مسيرة اربع ساعات من نصيبين.

وفي الغد، شاهدنا الاطلال العظيمة لمدينة دارا، وهي كانت قديماً في الخط الامامي وتتمتع بأهمية عظيمة. وقدم العقيد "ماكدونالد كينير"

وصفاً دقيقاً لها. ووصلنا ماردين بعد مسيرة خمس ساعات ونصف الساعة وكانت قديماً تسمى (ماردا)، وتقع المدينة على جبل يمكن الوصول اليه، عبر طريق وعر ضيق وصعب، وفي نهايته نرى تنقيبات هامة حُفرت في الصخر.

وقد استقبلنا الحاكم استقبالاً كريماً، كما استقبلت انا عدداً من رجالات المدينة والذين قدموا لي بكرم كبير، خمراً فاخراً وخبزاً من افضل الانواع، وامطروني بالاسئلة حول القسم والاحوال العامة. وبعد ان خرجوا، سارع رفاقي لاخذ نصيبهم مما قدموا لي، وداعبوا القنينة بطريقة جعلتني اعتقد ان هدفهم كان التوصل الى التمتع بتلك اللذات التي يشعرون بها في هذيان السكرة. ولايمكن تحمل الاتراك في ذلك الاتجاه وهم في الظاهر يتظاهرون بالقرف من جميع المشروبات الروحية، وانهم يقنعون بشرب الماء النقي، ولكنهم اذا اتيحت لهم الفرصة المناسبة فانهم يتناولونها في شراهة تامة.

ويبلغ محيط مدينة ماردين ثلاثة اميال. وتقع في الجنوب وعلى منحدر جبل، اسفل قلعة قديمة فوق قمة الجبل. ويحيطها سور حجري اما منظرها فهو اجمل من كل المدن التي رأيتها حتى الان. وشوارعها ملساء ولكنها غير مريحة، الا انها نظيفة جداً، ويعود ذلك لانها شديدة الانحدار، كما يكتسح اقل مطر كل الطين في الطريق. والمدينة هي المقر الرئيسي لمطران المسيحيين الكاثوليك، والذي كنت قد التقيته في بغداد، ويحكمها حاكم يسمى "المُتَسلِّم"، ويعينه الباشا. اما مكونات الشعب فهي كالاتي: مسيحيون كاثوليك، نسطوريون، ارمن، اتراك، عرب، يهود وبعض الاسر الفارسية. ويُقدر تعداد سكان المدينة بحوالي عشرين الف نسمة. ويُقال ان المسلمين يقطنون في الفي منزل، بكل مذاهبهم. (لوحة رقم ٥)



وقبل ان نترك ماردين، يجب ان نقول شيئاً حول اليزيديين من جبل سنجار والذين من النادر ان نلقاهم خارج المدينة. وهم فئة من المتطرفين الذين اجتاحوا الصحراء الصغيرة مابين الموصل ونصيبين. ويصفونهم بأنهم عبدة الشيطان. ولكنني اعتقد انه من الافضل القول انهم يحاولون فقط استبعاد غضبه. ويبدو لي انهم في نفس وضع تلك المرأة كبيرة السن التي كانت تشعل شمعة على شرف جلالته الشيطانية. ويقولون: ((انه ليس سيئاً بالدرجة التي نعتقدها))، ((ومن الضروري ان يكون لك اصدقاء في كل مكان)).

ونحن نعرف القليل عن عقائدهم، وذلك لان الاتراك لايسمحون الا للطوائف التي تمتلك قانوناً مدونا، كما المسيحيين واليهود، ولذلك نرى اليزيديين يعتقدون بضرورة التعايش مع مثل ذلك الوضع، فيقولون انهم مسلمون، مسيحيون، او يهود، حسب الظرف القائم.

ويدعي البعض انهم يقدسون الكتابات المقدسة، كما القرآن، ويحترمون بالمثل السلطات الدينية للمسيحيين والمسلمين، وآخرون يقولون انهم ينحدرون من يزيد ومن اولئك العرب الذين قتلوا الحسين حفيد النبي وطاردوا اسرة علي بعنف وعناد. وعملية الطهور شئ مشترك بين الاتراك والمسلمين، حيث يخضع الذكور لتلك العملية. وهناك امم اسيوية تتبنى بدورها القيام بتلك العملية، ولايعني ذلك انهم يتبعون نفس العقيدة. وبعيداً عن كراهية الخمر كما يفعل المسلمون، ترى اليزيديين يقدسونها كونها نعمة من نعم العناية الالهية. ولايحبذون فقدان نقطة منها. وعند تناولها يمسكون الكأس بيديهم الاثنتين، واذا ما وقعت بعض النقاط عن طريق الخطأ، يغطونها بالتراب فهم يحفظون حصة قوة عليا. الى جانب ذلك لايجب ان يثملوا، لان نسيان ذلك ولو للحظة واحدة، يمكن ان يتسبب في انهيار جميع احلامهم في العيش بسلام.

ويعتمد جميع اليزيديين مبدأ عاماً يقول ان رحمة الخالق لاحدود لها كما ان حكمته لانهائية. واذا ما تحدثوا باحترام عن المخلوق الذي يتهمونهم بعبادته، او لقبوه بالمولى او السيد، فلانهم يعتقدون تماماً انه سيعود يوما الى رحمة الله وطاعته، وتعود اليه يوماً ما كرامته وهيبته التي فقدهما بعصيانه. فلماذا يثيرون غضبه على حد قولهم؟ ولماذا يتدخلون بين ملاك سقط وسيده الخالق؟ وهل ان الله في حاجة الى ان نلعن من يعاقبه؟ الايمكن ان يحدث ان يعفو عنه؟ وكذلك، ايجب ان ترفع سيفك في وجه احد المقربين من الامير غضب عليه اليوم، الا يمكن ان تعود له في الغد جميع حقوقه وكرامته؟

وهم يقيمون على الاكثر في ضواحي سنجار، وهو واحد من سلسلة جبال تقطع سهول بلاد مابين النهرين في جنوب شرق ماردين وحيث تنمو اشجار الكروم والتين والمشمش وبشكل عفوي فيها. اما في الشتاء فيعيشون في كهوف منحوتة اسفل تلك الجبال. اما في شهور الصيف ينتشرون في السهل حيث يهاجمون القوافل ويسلبون جميع المسافرين الذين يلاقونهم دون تمييز. وحينذاك يخيمون في الصحراء على طريقة البدو، ويحاربون بالسيف وهم على ظهور الخيل وكذلك الرماح والمسدسات والبنادق. وهم كما الفرثيين، الذين يعيشون في قسم من البلاد تراهم يعرفون جيداً كيف يستخدمون النار وهم يفرون او يعودون. ويصيبون الهدف دائماً الا فيما ندر.

ويرتدي اليزيديون لباساً يشبه الزي التركي، وهم رجال وسيمون، اجسادهم قوية، يمتطون خيولاً جيدة. معتادون على استخدام السلاح منذ شبابهم، وقادرون على تحمل جميع اشكال التعب والحرمان، ولكنهم خونة وقساة القلوب وجبناء يقتلون اسراهم واحياناً يتركونهم عراة في الصحراء بعد ان يسلبونهم، حيث يتعرضون للموت جوعاً وبؤساً. وضربوا لنا العديد من الامثلة على المعاملة البربرية التي يعاملون بها المسافرين الذين يقعون بين ايديهم. ولكن، في مناسبة او مناسبتين فأن شجاعة وتصميم رجل واحد تكفي لهزيمتهم ولانقاذ قبيلة باكملها.

ويزداد تعداد السكان على المليون، ان لم يصل الى المليونين وذلك استناداً الى بعض التقارير. وينقسم السكان الى عدة قبائل صغيرة مستقلة، لكل منها رئيس. ويُقال انهم جميعاً ينحدرون من خمس اسر ولكنهم اليوم قبائل رحل او مستقرة. وبعضها كما البعض الاخر، يتكون من اليزيديين البيض والسود، انه لون الملابس الذي وضع لهم ذلك التوصيف. السود هم القساوسة الذين لايهتمون فقط بالتزاماتهم، وانما يقومون كذلك بحراسة القطاعات العامة للقبيلة.

وواحدة من الخرافات المثيرة التي يتهمونهم بها وعن حق احتمالاً وهو انهم يجتمعون مرة في السنة على حافة مغارة كبيرة اسفل جبل عبدالعزيز. ويقدمون للشيطان جزءً من ثرواتهم ومجوهراتهم الثمينة ويلقون بها في تلك الهوة. ويمثل ذلك القربان رمزاً لاحتقارهم ثروات العالم ويصحب كل ذلك احتفالات كافرة رهيبة حيث يرقصون رقصة متوحشة على انغام الابواق والدفوف ويقومون بحركات مجنونة كما لو كانوا مأخوذين بالهام ديني.

ويشتري اليزيديون نساءهم من والديهم، لايسمحون بالطلاق حتى بعد استهلاك الزواج الا عندما ينخرط احدهم في الاكليروس. حينذاك فقط يسمح لهم بالطلاق والزواج من جديد. وهو امتياز يمكن ان يشرح لماذا نرى عدداً كبيراً من اليزيديين السود. ولم استطع الحصول على اية تفصيلة حول الاحتفالات التي تصاحب مولد ابنائهم. ولكنني علمت انهم يقيمون احتفالات جنائزية عند دفن الميت تصحبها بعض الملذات. ولكن اذا كان المتوفي قد مات ميتة عنيفة. ولم ينتقم له احد، تتم مراسيم الدفن في سكون. ويقوم اقرب اقرباء المتوفي بقص اللحي علامة على الحداد وفقدان الشرف.

ولا يعودون الى اطالتها الا بعد ان يتم الانتقام للميت وتهدأ احزان الميت وحينذاك فقط تقام الاحتفالات الجنائزية. ومن المحتمل ان تكون الخرافة التي تحدثت عنها سابقاً قد ولدت الاسطورة الشعبية القائلة بانهم يخبئون كنزاً كبيراً في اعماق بئر. ليكن طمعاً للحصول على ذلك الكنز المخبؤ، او لعقابهم على السرقة او القسوة. قام سليمان الكبير، على رأس جيش عرمرم بالهجوم عليهم قديماً، ومطاردتهم حتى جبالهم، وهدم كرومهم والزرع والضرع، وقطع رأس زعيمهم. واجبرته اخبار انتفاضة في مكان اخر، ان يذهب واسلحته، ولكنه لم يترك وراءه الا ذكريات تصرفاته البربرية وكراهية عميقة للاتراك.

الفصل الثالث عشر

الرحيل من ماردين، تزيان Tezian، وصف دياربكر، جبل طوروس، ملاطيا، وادي سيواس، وضع الفلاحين في تركيا، آماسية، بولي، هندك، الوصول الى سكوتاري

***

تركنا ماردين باكراً في صبيحة الثاني والعشرين، وبالامس، عبر لي المتسلم، عن رغبته في شراء المسدسات المتدلية من حزامي. ولأنني كنت متمسكاً بمسدساتي طلبت سعراً كبيراً لعل ذلك يردعه. واتمسك بها اكثر من المال، لانها يمكنها ان تحفظ مالي فيما تبقى لي من الرحلة، ولكن حقيبتي لن تدافع عن شخصي. ولم اكن اود كذلك ان ارد طلبه بخشونة، فقلت انني لاستيطع ان اتخلى عنها الا مقابل مائتي قرش وليس اقل، معتقداً بان سعراً كهذا سيشفيه من نزوته. ومع ذلك ففي اللحظة التي كنت اهم فيها بركوب حصاني احضروا لي المبلغ، واضطررت ان احفظ كلمتي وتم الامر.

وهكذا يقوم الكبار باعمال التجارة في الشرق، اما المسافر الذي يقع في نطاق سلطتهم فلن يكون له حق الاختيار، بل انهم يستولون احياناً على مايملكون دون ادنى اعتبار ودون مقابل حتى. ولكن يحدث احياناً ان يربح الجانب الاضعف كما حدث في واقعة تجارة مسدساتي بالقسر.

يعتبر الجزء الاول من الطريق بعد خروجنا من (ماردين) صحراء، ثم مناطق جبلية وكلها تزخر كما يقول رفاقي بعدد كبير من قطاع الطرق. واضطررنا ان نسير اذن في مجموعة متراصة قدر الامكان. ولان جيادنا في حال جيدة فقد وصلنا (تزيان Tezian) بعد مسيرة ست

ساعات، ودون حوادث تُذكر. ولكن لا، بدون اية نذر خطر. وكانت احاديث رفاقي تكفى لأن نتفهم ذلك. ولكن من المؤكد اننا التقينا اكثر من مرة بمجموعات من الناس المسلحين الذين يثير مظهرهم التشكك، ويبدو عليهم انهم يتربصون لايجاد فرصة تسمح لهم بالهجوم على المارة. ويظهر هؤلاء المجرمون عادة في مجموعات صغيرة، من خمسة او اربعة اشخاص، تقف على قمة احد المرتفعات التي نعبرها، وكل منهم يمسك ببندقية يرتكز طرفها على الدغل استعداداً لاطلاق النار حين تسنح الفرصة. واطلقنا بعض الطلقات في الهواء لندلل لهم اننا مستعدون للدفاع عن انفسنا, ورأيناهم وهم يفرون عبر الجبال الاكثر وعورة، وهم ينظرون الى الخلف مخافة ان نكون وراءهم نطاردهم. ومن المحتمل، انهم من جانبهم كانوا يخافون، لان قافلتنا معروفة ويقودها اعتى اللصوص المعروفون ابداً في البلاد.

و(تزيان -خان Tezian Khan) قرية صغيرة تصب النهيرات التي ترويها في نهر دجلة، ويوجد في وسطها، وفوق تلة مرتفعة اهم مبنى فيها. وعندما وصلنا، اقتادونا الى قاعة كبيرة مظلمة. وبعد فترة جاء رئيس القبيلة ليزورنا مصحوباً بزمرة من عشرين حارساً مدججين بالسلاح، ينظرون الينا في عدوانية وتبرم. واخرجونا في الحال من المناطق التي نوجد فيها واحتلوها. وقد تسبب ذلك في حدوث مشاحنة عنيفة بين التتري ورئيس القبيلة. وكان كُردياً طويل القامة، متين البنية، متوحش المظهر. ويبدو انه كان متشككاً في حقيقة الفرمان الذي نحمله واراد لكي يقتنع، ان يرى الرؤوس التي يحملها التتري الى القسطنطينية. وانتزع التتري من حقيبته علبة صغيرة مربعة الشكل، وفتحها ورأى راس الباشا المسكين، وهو يقول له بحزم، ((هكذا يمكن لرأسك ان تسقط. "مصطفى اغا"، اذا ماتجرأت على اهانة موظفي الدولة)). ويبدو ان ذلك المجرم لم

يهتم كثيراً بذلك التهديد، ولكنه ترك تأثيراً ما عليه، لانه انسحب وهو يؤكد لنا انه يحترم الفرمان. ولانه كان فخوراً ومغروراً باستقلاليته، فانه رّبما لايصادف موقفاً مماثلاً، ولكنه اوعز له بالتأكيد افكاراً مزعجة. وفي المساء، ارسل الينا الكثير من المؤن، كما ارسل لنا مهرجاً ليقدم لنا ضروباً من التسلية. ولما بدأنا استعداداتنا للنوم، طلب منا رئيسنا ان يكون سيفنا في متناول ايدينا وان نكون على استعداد لاستخدامه اذا ماوقع اي ظرف طارئ، خيانة مثلاً.

وفي الثالث والعشرين عبرنا بلاداً اكثر جفافاً واكثر وحشية، ولايوجد فيها اي شكل من اشكال الزراعة. ومع ذلك، وبعد ان عبرنا قريتين تقريباً، لم ندخلهما ابداً. ولكن المناظر الطبيعية بدأت تتغير واختفت التلال الجرداء لنشاهد بعد ذلك وادياً فسيحاً مزروعاً زراعة منتظمة، وفيه الكثير من القرى حتى ان الزراعة قد وصلت فيه درجة عالية من الكمال، والحقول مليئة ويقومون على حرثها بالمحراث الذي تجره الابقار القوية ذات الذيل الطويل. واثناء سفرة قطعنا فيها الف ميل، كانت تلك هي المنطقة الوحيدة المزروعة بشكل نظامي كنت قد رأيتها اصلاً. ومع ذلك، وفي كل مكان اخر، وعندما كانت الارض مهيأة لتخرج المحاصيل، فهم لايطلبون منها الا ما كان ضرورياً فقط لاشباع حاجة سكان قليلي العدد. وعند اقترابنا من دياربكر، اصبح الطريق اكثر وعورة وكانت كثيراً ما تقطعها المستنقعات، وعادت الطريق لتضيق لمسافة الاربعة اميال الباقية منها وتنحصر بين الجبال، وعدنا لرؤية نهر دجلة من جديد، الذي يجري سريعاً ليدور في منعطفات كثيرة اكثر مما عليه حالة جنوب الموصل. وبعد ان مررنا بثلاثة جسور، ثالثها كان مُشيداً جيداً ويحمل عشرة اقواس جميلة، وصلنا في الخامسة والنصف الى ابواب المدينة الخارجية.

وعرفت (دياربكر)، دائماً بأنها (العمادية القديمة)، وسماها الاتراك (قره عمادية) او عمادية السوداء وذلك بسبب الاحجار السوداء التي شيدت بها مباني المدينة. وتوجد في الشرق اماكن قليلة يمكنها ان تقدم جديداً يثير شهية الرحالة الاوربي، ويبدو ان دجلة يقرر فيها حدود الحياة الانسانية، وما ان عبرنا الجسر، فرض الموت نفسه امامنا حيث احاطتنا المقابر، يحيطها جدار مرمري اسود، مُضاعفاً بذلك جرعة الافكار السوداء... وتحت البوابات الضخمة المرتفعة رأينا جموعاً من أناس خائفين يرتدون ملابس من كل الالوان وكأنهم جاءوا من عالم آخر عائدين الى مناطق كانوا قد عاشوا فيها قبلاً. وظل نفس الانطباع في داخلنا ونحن نمر في شوارع المدينة. ولايحتاج كل ذلك لخيال حي، لان من يمر هناك سوف يعتقد انه يوجد في مركز وادي الدموع في زمن الياس وعصوره المسحورة وكأن شهرزاد الجميلة تقدم له وصفاً رائعاً حياً.

وما ان دخلنا الخان المجاور لقصر الباشا، حيث يستضيفون الرسل الشعبية، قدموا لنا عشاءً على الطريقة التركية، يعني طبقاً بعد الاخر واول طبق كان من الارز المطبوخ سيئاً. ولكن مسيرة احدى عشرة ساعة جعلت منه طبقاً متبلاً لذيذاً. وجاء الطبق الثاني، ثم الثالث ولم يكونا افضل حالاً. ولكنني عرفت اننا سوف نرحل في الحال. ولم افكر الا في استخدام وقتي استخداماً جيداً؟ وما لبثوا مع ذلك ان قدموا لنا الارز المفلفل واليخنة اللذيذة الى جانب معجنات من مختلف الانواع. واعترف انني حينذاك قد اقترفت خطأ فظيعاً في السياسة ووعدت نفسي ان احتفظ بقواي في المستقبل حتى نهاية المعركة. ومع ذلك، ففي الغد، اهملت الطبق الاول والثاني في انتظار الثالث ولكنهم لم يقدموا شيئاً، ولم اتناول العشاء: انذار للرحالة الحساسين المثقفين ولمصلحتهم اروي الحكاية التالية:

حصلت على القليل من المعلومات عن هذه البلدة التي كان يجهلها البعض. فقد تجولت فيها مساء. وفي صبيحة الغد كذلك، برفقة احد الارمن الذي عرض نفسه ليكون دليلاً لي. ووجدت ان الابنية مشيدة تشييداً جيداً، وافضل من مباني اية مدينة اسلامية اخرى دون ان استثني حتى مدينة القسطنطينية. وكانت الشوارع مرصوفة ونظيفة، كما انها عريضة جداً، بل اعرض مما هي عليه في المدن الاخرى. واسواقها كبيرة ومليئة بالتجهيزات. والحمامات من الرخام الاسود ومريحة جداً وانيقة. والمساجد التي كانت في اكثرها كنائس مسيحية قديمة، كانت كثيرة العدد ومشيدة جيداً. وتحمي المدينة من الشمال بقلعة تحيطها جدران عالية جداً، وبنفس قوة سور المدينة. وتحيط القلعة عدة ابراج مستديرة ومربعة والمزينة بالمدافع خارج نطاق الخدمة ولايمكن استخدامها، وتغطي النقوش تلك الابراج التي يبدو انها شُيدت في عدة عصور، وكذلك على الابواب. وبعض هذه النقوش محفورة على الحجر او على الطابوق. ولكن لم يكن لدي مايكفي من الوقت، او معلومات عن لغة النقوش حتى استطيع ان افهم ماتعنيه تلك النقوش. اما دليلي، الذي بدأ لي رجلاً ذكياً، قال لي انهم يفترضون انها كما النقوش الموجودة على الجسر، فانها تدل على تأريخ اقامة ذلك البناء، واسم السلطان او الباشا الذي كان يحكم آنذاك. وبعد ان قمت بدورة حول السور انطلاقاً من باب ماردين وحتى باب (داغ Dag) اي نصف السور، استطعت ان اعرف محيطها الذي يمكن ان يصل الى خمسة الاف ميل وثلاثة ارباع الميل. ومن هنا يمكنني ان اتصور تعداد سكانها. فبافتراض ان ثلث المساحة المحصورة بين الاسوار فيها شوارع، يمكن للمساحة الباقية ان تحوي احد عشر الف منزل، كل منها مساحته سبعة عشر قدماً تبلغ مساحة كل منها سبعة عشر قدماً مربعاً، ويتكون كل

منزل من طابقين بشكل عام. وبافتراض ان يعيش في كل منزل خمسة افراد، فسيكون عدد السكان خمسة وخمسين الف نسمة. وتساوي هذه النتيجة عدد سكان المدن الشرقية التي نعرف تعداد سكانها.

ورحلنا في الرابع والعشرين في الواحدة بعد الظهر. وظلت السماء تمطر معظم الليل وطيلة الصباح، حتى غطت السيول الشوارع بالكثير من البرك، لدرجة ان السوط لم يعد يستطيع دفع الخيول الى التحرك حيث يغطي الطين سيقانها. وفاضت مياه النهر سيلاً لايمكن عبوره الا سباحة. واصبحت الخيول متعبة ومنهارة مع مجئ الليل، ولدرجة ان التتر وحدهم ظنوا انهم قادرون على دفعها للسير. وبما انني كنت مع التتر، استأنفنا المسير، رغم ان حراسنا الذين رافقونا منذ دياربكر، رفضوا ان يتبعونا ابعد من ذلك، وتركونا لقدرنا. واثناء الاربع او الخمس ساعات التالية رحلنا وكانت الظلمة حالكة، وصحبنا مطر لايتوقف، بحيث ظننت اننا لن نقطع اكثر من اربعة او خمسة اميال. وكانت خيولنا تسقط مع كل خطوة ولكن جرعة السوط المضاعفة تعيدها للوقوف. واخيراً، كاد اثنان من اهم رفاقنا، وهم يحاولون عبور النهر، كادا ان يغرقا بعد ان جرفهما التيار، وظنا انهما سيموتان غرقاً مع خيلهما، مما دفعنا الى الاصرار عن التوقف عن متابعة السير. وتعرضنا لهطول مطر مدرار استمر احدى عشرة ساعة، ووجدنا انفسنا وقد ضللنا الطريق تماماً، فلم نكن نعرف هل نتقدم ام نحن نتقهقر. وكم كانت سعادتنا اذ لاح من بعيد ضوء يلمع، فتقدمنا نحوه ونحن نغوص في الاوحال بين النبات والانقاض. وظهر انه كوخ مشيد اسفل الجبل. وكان الجو رديئاً لدرجة ان الاصدقاء والاعداء وجدوا فيه المأوى. فقد التقينا فيه بتجار مسيحيين وبمسافرين وبعدد من قطاع الطرق الذين يعتاشون من السلب والنهب. ولم يكن الكوخ كبيراً بمافيه الكفاية ليأوينا مع من كانوا فيه قبلنا. ولكن

التتر، لم يردعهم شئ، وطردوا من كانوا فيه لندخل نحن، ويجب ان أقول الحقَّ لصالحهم حيث انهم ظهروا في هذه المناسبة لايميزون احداً على احد، او مؤمناً على كافر.

وقضينا بقية الليل في ذلك الكوخ، مبللين حتى العظام وملطخين بالوحل حتى الركب، نتضور جوعاً ونكاد نختنق من دخان النار التي اشعلناها. اما الحقيبة التي تحوي الرؤوس التي نحملها الى القسطنطينية فقد اصبحت وسادة لرأسي حيث اتكأت عليها ويمكن لاي كان ان يتصور حالنا، فقد كنا سعداء ان وجدنا ذلك المأوى. ومع ذلك لم يكن ذلك اخر مصائبنا. منذ استمر هطول المطر صباح الغد، وصاحبه ضباب كثيف. ولم يكن لدينا ادلاء، فوجدنا انفسنا وقد ضللنا طريقنا للمرة الثانية. وقضينا يوماً كاملاً للوصول الى مدينة (ارگونا Arguna)، التي تقع اسفل جبل طوروس، في الوقت الذي لايستغرق سوى ثلاث عشرة ساعة، لكي نقطعه ونصل للمدينة.وطيلة ذلك الوقت كله وجدنا انفسنا بدون زاد من اي نوع كان. وكنت قد رأيت عندما كنت في الهند فيضاناً فجائياً لنهر ينحدر من اعالي الجبل، ولكنني لم ارَ مطلقاً مايشبه تلك السيول التي رأيتها الان. ووجدنا نهراً استطعنا مع بعض التعب تمييز مجراه، وكان البحر المتوسط قد حطم سدوده وحواجزه ليُغرق ذلك السهل. وان اولئك الذين يمرون في ذلك المكان من بعدنا، سوف يصل الماء الى الخصر في الوقت الذي لم تكد تتبلل حوافر جيادهم عندما يمرون من قبل في ذلك المكان.

وتقع (ارگون)، كما (ماردين) على قمة جبل عال جداً. وحَالَتْ كثافة الضباب، وتواصل هطول الامطار، الى جانب عدم اخذي قسطاً وافراً من الراحة، حال كل ذلك دون رؤيتي لها. وتشتهر تلك المدينة بكرومها والتي تنمو في ضواحيها وبخمورها. مثلها في ذلك مثل كروم وخمور جبل طوروس، وسهول كاربوت من جهة اخرى. ويقال ان الكروم

تقدم انواعاً من العنب مختلفة ومع ذلك لم استطع الحصول على قنينة من النبيذ الاحمر الحلو الذي لايمكن ان ينكر جودته وقيمته كروم (بورجونيا La Bourgoyne)* .

وفي السادس والعشرين، استأنفنا السير، ممتطين خيولاً جديدة قوية، وذلك في الحادية عشرة صباحاً. وكان التتري حامل الرؤوس في المقدمة مع خمسة او سبعة رجال آخرين. وكان الطريق وعراً وانا اصعد. وفي الواحة عبرنا احد فروع دجلة، وهو نهير صغير يرتفع عليه جسر ذو ثلاثة اقواس. ثم بدأنا نصعد السلسلة الرئيسية لجبال طوروس. وبعد مضي ساعة عبرنا جسراً اخر يحمل قوسين، عاليين. ووصلنا (معدن Maden)، وهي قرية كبيرة تقع على احد جبال طوروس. وشهير بمناجم النحاس كما انها مقر ناظر المناجم. وفي الخامسة عبرنا جسراً آخر فوقه قوس واحد، ثم توقفنا امام احد المنازل والذي يُستخدم كمعصرة على جبل طوروس، وذلك بعد ان سرنا خلال سبع ساعات بالسرعة التي تسمح لنا خيولنا بها.

ومنذ ماردين، كنا نسير باستمرار ونحن نخوض في الثلوج، ولان الطريق لم يكن مرسوماً او ممهداً فقد كنا على حافة وهاد الجبل المخيفة. وكانوا يظنون ببساطة انني لا افكر كثيراً فيمن يشكلون الخط الامامي لنا، ولا الحظ حتى غيابهم. ولكن حين وجدتني اجلس امام النار في ركن دافئ واحتسي النبيذ الفاخر الذي قدمه لي مضيفي، بدأت ادهش لعدم رؤيتهم واختفائهم هكذا، حتى التتار وخادمي التتري اختفوا جميعاً وتركوني وحيداً مع الامتعة ومع رجلين متوحشين ذوي قسمات غير مريحة بل مخيفة ولا اكاد اعرفهم. ولم يكن ذلك بالشئ الذي افهمه. وسألت عن التتري وقيل لي انه قد واصل طريقه الى القسطنطينية، حيث مازلنا على مبعدة ثمانمائة

---

* منطقة في فرنسا تنتج اجود انواع الكروم. [المترجمة]

ميل. وتصورت انها مزحة ربما لاخافتي ولكن مالبثت ان عرفت الحقيقة. فقد حدث ان بعض المسافرين كانوا قادرين ان يذهبوا الى السلطان قبلهم ليخبروه بنجاح "داود افندي". فضاعفوا من سرعتهم حتى يسبقونهم وبدون مقدمات تركوا لي امتعتهم وطلبوا ان اتبعهم فيمابعد مع الامتعة.

واذ تركوني وحيداً مع الغرباء وفي بلد مجهول، ودون عون اذا ما احتجته في ظرف ما، وعلى قمة جبل طوروس، يمكن تصور انني اجد نفسي في موقف يدعو للغضب والقلق، ولكن ذلك لم يحدث. وكانت الامتعة التي تركوها وراءهم ثمينة جداً بالنسبة لهم، ليخاطروا بفقدانها. فلم يكن اذن اي داع للتخوف من مخاطر تهددني بشكل خاص. وفي المساء، وجدتني في موقع جيد متكامل والنبيذ كان فاخراً. ورأيت ان الرجلين كانا مستعدين للضحك مني، وعلى حسابي، بدلاً من ان يقدموا لي اية منفعة. ورأيتهما يريدان استغلال السلطة العليا على الوضع وعلى الحيوانات التي عليهم قيادتها، ظنوا انهم يستطيعون التصرف على طريقة اسيادهم الذين هم اكثر تحضراً منهم بالطبع، فارادوا اختيار افضل الخيول، واتخاذ افضل مكان بجوار المدفأة، وافضل بساط ليناموا عليه. ولكن، وكما شعرت بنواياهم الخبيثة ولم اتنازل كما يحلولي، قررت ان اضعهم مرة واحدة وللابد في مكانهم الصحيح، او ان اصل معهم لمقاطعة مكشوفة واسافر وحيداً، ونجحت بسهولة وانا ادفع لمضيفي كل ما اخذناه منهم واتخذت مظهراً متعالياً يوحي بالاهمية مما فرض على الاثنين ضرورة الاحترام. وفي السابع والعشرين صباحاً، بدأنا نهبط الجبل ولايمكن مقارنة المصاعب التي لاقيناها في الصعود بتلك التي لاقيناها في الهبوط، ويعلم الكثيرون ان ارتفاع جبل طوروس يصل الى عشرة الاف قدم. وبما ان الاتراك لايهتمون بجعل الطريق اقل سرعة واقل خطورة ويتحركون يمنة ويساراً، فالطريق مستقيم وعر، يمر عبر المناطق الاكثر

صعوبة، والاكثر خطورة والتي لايمكن تصورها،ويبلغ سمك الثلوج من ستة الى ثمانية اقدام، فيماعدا المنطقة المطروحة التي داستها الاقدام، ولان ذلك الطريق عرضه ثماني عشرة بوصة فقط، واحياناً اقل، فان اية خطوة توضع خطأً على الارض يمكن ان ندفن في الثلوج. او تنكسر اعناقنا في الهاوية. ويمكن استيعاب تلك الاخطار بشكل اقل عند الصعود، ولكننا نحس بها تماماً ونحن نهبط. ولم استطع مع ذلك من الاعجاب بذلك الحزم الذي ابداه الرجلان وهما على متن الجياد بل وكيف ساعدا من تبقى من رجالنا على قيادة الخيول التي تحمل الامتعة. وبالنسبة لي، كنت اتعرق لو اضع قدماً على الارض، ولكن الخجل كان يمنعني وجاهدت قدر المستطاع على تتبع التتري وادلائنا. ومع ذلك، كان من الصعب الا ابقى في المؤخرة. اذ ربما لكنت ضللت الطريق، اذا ما لم يعطني احد التترين درساً في ركوب الخيل لم اكن افكر ابداً في تطبيقه. وفي انجلترا، عندما يهبط احدهم الجبل، فانه يكبح جماح جواده ويسير الهويناً بمنتهى الحذر. ولكن التتري قام بالعكس تماماً، ورقى باللجام على رقبة حصانه، وجعله يحس في كل خطوة بالسوط وبالمهماز، ويفقد بذلك الحصان تردده الطبيعي ويضرب الارض بقدميه الاماميتين في قوة بحيث تصبح خطواته مضمونة تماماً. وقمت ببعض المحاولات، الى جانب ضرورة الموقف، مما ملاني ثقة ووصلنا في الخامسة اسفل الجبل، بدون اية حوادث تُذكر، سوى فقدان جواد واحد وقع في الهاوية وكان بها سيل قد جرفته المياه بزبدها في التو واللحظة. واثناء الاربع ساعات التالية عبرنا سهلين يفصلهما جبال عالية: وفي الثانية بعد الظهر، وصلنا الى (خربوت karpout) او (شاربوت) القديمة. وهي مدينة كبيرة تقع في وادى الصوفان، وتحميها قلعة قوية، ويحكمها والمناطق المجاورة باشا مدينة (معدن).

لم نتوقف سوى ساعتين ونصف الساعة لانعاش الخيول. وبحسبان ذلك اليوم اسرعنا في المسير بحيث انه لم تسمح لنا سرعتنا الفائقة ان نشاهد اي شئ. وكان رحيلنا في الساعة الرابعة والنصف مساءً وسرنا دون توقف حتى اوكسولي حيث وصلنا في الثامنة والعشرين الساعة الخامسة صباحاً. وهي مدينة صغيرة تقع على الضفة الشرقية لنهر الفرات. ويقطنها فلاحون كُرد، واعتقد انهم يطلقون عليها كذلك اسم چيس اوغلي، ثم لحق بنا خادم تتري كان يترأس القافلة. والذي تركه التتري ليترأس قافلتنا. ثم لحق بنا "حمود بك افندي"، (اللوحة ٦) وهو شخصية تركية متميزة وزوج اخت "سليمان الصغير". وكان قد فرّ من بغداد هرباً من قسوة "داود افندي" وطلب ان ينضم الينا مع تسعة او عشرة اشخاص من اتباعه.



وتركنا المدينة في الحادية عشرة، وبعد مسيرة استغرقت ست ساعات، وصلنا (مالاتيا)، او (ماليتينا) القديمة، وكان جوادي في حالة جيدة جداً، وحاولت ان ارى ان كان من الممكن ان ارحل وحدي، فتقدمت على اقراني وسرت باقصى سرعة حتى وصلت منايل خانه قبل ساعة من مجيئهم، وحيث رأيت انني بمالي يستقبلونني جيدا حتى ولو كان في اثرى دزينة من التتر وكانت (مالاطيا) قديماً عاصمة اسيا الصغرى، ورغم انه يبدو انها سقطت تماماً، الا انها مع ذلك ظلت تحتفظ ببعض الالق.

وتركناها في الخامسة مساء، وبعد ان سارعنا في سيرنا بكل قوانا طيلة خمس ساعات، وصلنا في منتصف الليل الى قرية تسمى حسن بادريك، ولم تكن النساء مشهورات بحسن السمعة كما ان الرجال ذوي ميول مرذولة. وقال لي رفاقي ان السكان ليسوا مسيحيين ولا مسلمين، وانهم فقط كفار زناديق، وللتتر في سفرهم طريقة خاصة بهم وهي متعبة جداً. اما عندما يستبدلون جيادهم، يسيرون بخطوات بطيئة، ويشعلون الغليون ويدخنون، وعندما يخفت الدخان يصبح السير خبباً، ثم يسرعون وهم يحركون السنتهم ويصدرون صيحات تشبه صوت الخيل وهو يتبع تلك الخطى البطيئة. ثم يركضون باقصى سرعة وتصبح صيحاتهم مخيفة ومتواصلة وهم يضربون جيادهم وجياد غيرهم بالسياط حتى تكاد تلك الحيوانات ان تسقط اجهاداً وتعباً وارهاقاً. وحينذاك يعودون الى الخطوة البطيئة، ثم الخبب ويشعلون الغليون ثم يقفزون ويركضون ثم العدو، ويتكرر كل ذلك حتى يصلوا الى نقطة التوقف. وفي التاسع والعشرين كنا نعبر ولسبع ساعات بلداً متخلفاً جبلياً. وتوقفنا بعد ذلك امام قرية (حكيم خان) حيث قضينا الليلة في كوخ بائس. ولم افهم ذلك السبب ولربما من باب الكيد لوجود "حمود بيك افندي" وقد احس بالاهانة وجرح المشاعر والكرامة، ليقيم بعد ذلك في منزل عام بدلاً

من القرى الصغيرة التي لايعرفه فيها احد وكان يمكن ان يجعلونا في مجموعات ولان صحبته كانت تسبب لي المتاعب قررت ان انفصل عنهم في اقرب فرصة، فقد كان رجاله يستولون على افضل الخيول وعلى كل مايجدونه الافضل.

وفي الغد سرنا احدى عشرة ساعة وقضينا الليلة في قلعة صغيرة تسمى (حلوچه خان). واثلجت الدنيا مرة اخرى اثناء الليل حيث اختفت معالم الطريق واصبح من الصعب التقدم في السير. وكانت اقدام خيولنا تنغرس في الثلوج حتى الرُكبة، حتى ان احدها قد انجرف وسقط في الهاوية مع حمولته. وكان جرحه غائراً لدرجة اننا قررنا اهماله. ووصلنا (دارغليناخ Darghiltach) او (غليتاش؟)، بعد مسيرة سبع ساعات ونصف ودخلنا كوخاً بائساً، في حين اقتادوا "حمود بك" الى اجمل منزل. واعتقدت انه من حقي ان اشاركه ذلك النعيم، كما شاركني من قبل كل ماخصص لي، وتبعته دون مقدمات، كما كان يفعل معي من قبل ليشاركني. وحاول اتباعه ايقافي، ولكنني رفعت رأسي عالياً، وتعمدت ان اريهم مسدساتي، وسحبت سيفي الطويل وجرجرته على الارض، وسرت دون ان يجرؤ احد ان يمنعني، وقمت بذلك وقد فعلت حسنا عندما قمنا بذلكً. فقد حصلت على عشاء فاخر، ومكان فاخر اقيم فيه، ولانني لو حفظت له اعتباره، لتصرف معي تصرفاً غير لائق، ولم اهتم اذا تصرفت بادب وهي صفة لايعرفها الاتراك، ولكنت تعرضت للمضايقات وربما حتى للاهانة.

وفي الاول من ابريل نيسان، رحلنا في الواحدة صباحاً، وبعد مسيرة تسع ساعات على طريق مُعبدة عبرنا (السلة؟ Sullah)، ودخلنا (سيواس Siwas)، وهي مدينة كبيرة قذرة نوعاً ومبانيها لم تُشيد جيداً، وتقع شمال واد خصب حيث يقومون بتربية الخيول الجميلة. وقد سنحت لي

فرصة رؤيتها، ويبلغ حجمها على العموم حوالي خمسة عشر شبراً، قوية مع جسد متناسق يشتعل نشاطاً، وتبدو ملائمة لاعمال الفروسية. واشترينا خبزاً كافياً ليومنا كخطوة احترازية لباقي اليوم. وبعد ان عبرنا جبلاً بركانياً. وصلنا بعد سبع ساعات ونصف الى قرية صغيرة بها خان حيث قضينا ليلتنا.

واستأنفنا طريقنا صبيحة الغد في الخامسة والنصف، وتناولنا غذاءنا في مزرعة صغيرة، يتكون من خبز اسمر فاخر، وقشدة وعسل طبيعي، وغيرها من الاغذية الريفية المعروفة من نفس النوع. وكان صاحب المزرعة كبير السن، وزوجته اولاده استقبلونا جيداً وقاموا على خدمتنا. وشاهدنا بعض الشباب يسترق النظر الينا من وراء الستار.

واعتقد ان كثيرين لم يتفهموا جيداً موقف الفلاحين في البلاد الاسلامية. ومن مساوئ الاستبداد ان الانسان يشعر بنفوذ الحاكم مباشرة اذا لم يكن ظالماً. فبعيداً عن تلك الاشعة التي تضئ له، تكون لذة النوم هي تلك الاشعة التي تستهلكه. واذا ما كان ذلك الوضع لا يليق بالطبيعة الانسانية، فعلى الاقل نراه مُطابقاً للسلام والسعادة المنزلية. فالفلاح التركي الذي يعيش في تلك الوديان ان لم يكن في كل بقاع الامبراطورية، يلبس جيداً، ويأكل جيداً، ويعيش في شقة فسيحة تحيط بها الاراضي الخصبة حيث انواع المزروعات، ويمتلك قطعاناً جيدة عديدة، ومناخ بلاده من اجمل مناخات العالم. اليس سعيداً اذن؟ يجيب المنظرون التجريديون سلباً على ذلك السؤال، لانه عبد. ولكن الخبرة والنظرة الثاقبة تقول العكس، لانه لم يكن يعرف سوى ذلك الوضع من قبل. وماهو، بل ماهو اذن وضع الفلاحين في اكثر مناطق العالم حرية ونعرفها كلنا؟ يقول الدكتور "جونسون" على ماعتقد ان الفلاح يمتلك الاختيار: اما ان يعمل او يموت. تلك في الحقيقة هي مساحة الحرية التي

يتمتعون بها: صيام، او عمل، بالاضافة الى انه لايستطيع دائماً ان يعمل مايحلو له، ولكن، طالما ان المصير واحد في ظل مناخات كل الدنيا نستطيع القول بان العمل يخلق السعادة اذا ما وفر للفلاح طيب العيش الرغيد. واذا ما كان مُهتماً باعالة عائلته، فليس لديه وقت للانسياق وراء مقولات نظرية مجردة. انه يشعر دائماً ان لاحاجة للتفكير. وطالما انه بعيد تماماً في الفعل المباشر لعملاء الاستبداد، وحيث لايشعر بالظلم يُثقل كاهله كما يفعل مع ساكن المدينة، يُعتبر تقاعده عن العمل شكل من اشكال الحرية. ولان الظالم يبحث في المدن فقط عن ضحاياه، ويجدهم، نرى انه في المدن حيث يسود حكم طاغ قوي تنتفض العقول الحرة دفاعاً وانتقاماً للحقوق السليبة للطبيعة الانسانية. وسعيد ذلك الذي يلتهب حماساً دفاعاً عن تلك القضية الرائعة الا ينسى ان الحرية هي حق القيام بكل ما تمليه وتسمح به القوانين كما يقول مونتسكيو.

وبعد ان تركنا وراءنا اجمل المناطق المسالمة في انحاء الامبراطورية المترامية الاطراف والتي الهمتني بالملاحظات السابقة، سرنا في طريق معبدة خمس ساعات وربع الساعة لنصل الى مدينة (توقات Tokat) والمعروفة قديماً بمدينة (بيريزا Berisa) التي تقع في واد يرويه نهر (قزل ايرماق)، المعروف قديماً بـ(ايريس Iris). وهي اكبر مدينة في آسيا الصغرى ويبلغ تعدادها ستين الف نسمة. ولم نتوقف فيها الا من اجل استبدال خيولنا وانطلقنا لنقطع مسيرة ثماني ساعات اخريات لنصل بعدها الى مدينة (چوركات Gourkat)، والمعروفه قديماً بـ(سيباستوبوليس).

واستولى "حمود بك" على خادمى التترى الذي كان يصطحبني، كما كان يدير تحركاتنا على هواه، واصر على تفادي المدن الكبرى وجعلنا نقيم في اكثر القرى بؤساً. وقلت له بوضوح في الثالث من الشهر،

بانني ارجوه ان ننفصل ويسافر كل على حدة وانه يمكنه ان يختار اي تتري يريد ولكن ان يترك لي خادمي الذي عرضت عليه مكافأة ان اراد ان يتركه. ولكن لذلك لم يكن في خطط حمود بيك، الذي رغم التعالي الذي يبديه لم يكن في حقيقة الامر الا انساناً هارباً. كما انه لم يكن لدينا سوى فرمان واحد يخص قافلتنا ولكنه كانت لديه افكاره التي استطعت ان اتفهم ما ترمي اليه. كان في شبابه عبداً مملوكاً لدى سليمان الكبير بعد ان اشتراه. وتلقى تربية خاصة يستطيع بها ان يرقى لاعلى المناصب حتى تم تعيينه حاكماً على البصرة وتزوج شقيقة سليمان الصغير. وبعد وفاة سليمان الكبير، جابهته بعض المتاعب نتيجة عدم رضا "عبدالله الطيب"، عنه، فقد كان قد انضم للمتآمرين لاستبعاد ذلك الرئيس الطيب لصالح سعيد ليكون باشا بغداد. واصبح مغضوباً عليه وفي قائمة المُطاردين المطلوبين. وفي غمرة ذلك الصراع، هرب من بغداد مع تسعة او عشرة من اتباعه الذين صمموا على اتباعه. ويُعتبر محظوظاً جداً انه قد احتفظ برأسه فوق كتفيه. واخبرني انه ذاهب الى القسطنطينية ليدافع عن نفسه امام السلطان ولكي يعهدوا له بوظيفة في مستوى "كابيدچى باشي"، مثلاً. وكان يظن ان سفيرنا لدى الباب العالي سوف يؤازر طلبه.

واذا ماتم تعيينك في ذلك المنصب الرفيع، فما هي الرأس الذي سوف تطيح بها وتهديها للسلطان. "انها رأس داود باشا دون منازع"، اجابني: وانه لو استطاع لكان يرسل رأسي. وهو وحده السبب في عدم تعييني باشا بغداد فاسمي كان اول الامر في الفرمان. ولكن ما ان اصل الى اسطنبول، ستُقدمني الى السفير الانجليزي لانني ارى في تصرفاتك رجلاً من مستوى راقي، رغم انك تسافر وحدك كما يفعل الاوربيون عادة الذين يريدون البحث عن معلومات. ومكانتك مكانة السفير سيعملان على تعزيز وانجاح مخططاتي، عندها سيأخذ داود حذره. والى ان ياتي ذلك الوقت، ليساعدنا

الله. (فالاتراك يذكرون الله دائماً اذا ارادوا ان يقترفوا فظاعة او قسوة). وسوف اعمل على قطع رأسه واستولى على مكانه.

وكانت تلك الطموحات متواضعة من لدن شخص كانت رأسه تقف على شعرة قبل ايام. وقلت له، وكان كلامي معقولاً، بانني لا اتمسك بالانفصال في الرحلة، وشرحت له بعد ذلك متاعبي ومخاوفي، ولك ما استطعت الحصول عليه هو انه لن يتسبب في ازعاجي وانني يمكنني ان اختار الحصان الذي اريد واحتفظ بخادمي التتري كذلك، وانه سيحتفل مستقبلاً مع توقفنا كل يوم.

ونتيجة لتلك الترتيبات استطعت الحصول على جواد ممتاز ونحن نترك توركات. وللاحتفاظ بذلك مسيرة ثلاث ساعات في عبور بلد جبلي جميل، دخلت الى كوخ حطاب في احدى الغابات وحصلت على فنجان من القهوة. ولكنني ركبت حصاني حال وصولهم. وبعد مسيرة ست ساعات تقدمت عليهم كذلك في مدينة (اماسية Amasie).

وتقع تلك المدينة في وادي ضيق بين جبال عالية، وتحتل مع حدائقها شطآن نهر (قزل ايرماق)، وتشتهر المدينة بان "سترابون" من مواليدها، وهو الذي سمى ذلك النهر بـ(ايريس) وقدم لها بعد ذلك وصفاً رائعاً. وتضم المدينة كذلك رفات ملوك "بونت Pont"، حيث كانت جزءاً من مملكتهم قديماً. وسرنا ست ساعات، وقضينا الليلة في مدينة (مارسوان marsowan)، وهي مدينة كبيرة كذلك ولكنها لم تعرف مطلقاً كمدينة نظيفة.

وفي الرابع من الشهر، وبعد مسيرة اربع عشرة ساعة وصلنا الى مدينة (عثمان جيك) وهي مدينة يسكنها جنس مختلف فظ، وتقع على نهر يصب في (قزل ايرماق)، وتشتهر بقلعتها الجميلة القديمة وبجسر جميل يقال انه قد شُيد بامر من "السلطان بايزيد Bayazet". وسرنا بعد ذلك مدة تسع ساعات في السهرة وجزءً من الليل، وبعد ان مررنا بممر

ضيق محفور في الجبل وصلنا قلعة (حاجى حمزة)، وهي قلعة صغيرة تسمى (اندرابية القديمة Au drape).

وفي الخامس، وبعد ان قطعنا ثلاثين ميلاً في منطقة فخمة، التقينا في (طوسيا Tossia)، بشخصية ايرانية كبيرة وكان عائداً الى بلاده، وكذلك التقينا مالطياً يتحدث قليلاً بالفرنسية واصطحبني في الاسواق.

وفي ذلك اليوم، التقيت بمثل اخر لانعدام الضمير، كما الموظفين الاتراك والتتر لكي يحصلوا على كل مايريدون بالقوة المفرطة. وكنت اتقدم جماعتي ببضعة اميال، عندما تقدم التتري بسرعة لكي يُعد الجياد. ولكنه عاد بسرعة ليسألني عن باقي افراد القافلة. وبعد ان تحدث قليلاً، فحص مسدساتي، وفحص مسدساته وطلب مني ان اتبعه، وكنت اعتقد ان هناك من سوف يهاجمنا ولكن العكس هو الصحيح. ففي اول انعطافة للطريق، التقينا ثلاثة رجال، مسلحين جيداً يقطرون خمسة عشر جواداً من افضل الجياد. وهجم عليهم ومسدسه في يده، وقبل ان يجدوا الوقت الكافي للدفاع عن انفسهم، اقتدنا سبعة او ثمانية من افضل الخيول الذين اخترناها ونحن نقسم اننا سوف نذبح من يعترضنا ويقاوم. واستغرقت القضية لحظة واحدة حيث تمت العملية بسرعة حتى قبل ان افكر في نتائجها. وكنت اعتقد ان اقل ماسوف احصل عليه لقاء خدماتي ان اختار الحصان الذي اريد، لان حصاني كان منهكاً تمام الانهاك. ولكن التتري الخبيث قال لي وهو يضحك هانئاً. انها مخصصة لحمود بيك واتباعه. واذ رأيت ان ذلك امر غير عادل، بل ضد اي مبدأ من مبادئ التعامل الشريف بين افراد الطبقة الواحدة، لم اهتم بما يمكن ان يُقال من قبل حمود بيك، او اتباعه، اخترت جواداً وضعت عليه لجام جوادي وامتطيته في الحال وبدلاً من ان يغضب التتري اخذ يضحك وهو يقول: ساعدني الاوربي على اخذ الجياد ورغم انه من العدل ان ناخذ من الاجانب

كل مانحتاجه الا اننا جنود ومسافرون، وسيكون من الجنون ان يتشاحن الرفاق فيما بينهم، تلك كانت مبادؤه ولم يمنعه ذلك من المواجهة مع تتري اخر لم يجرحه بسيفه فقد اخذ الثاني موقف الدفاع عن النفس، ولم نستطع تفريقهما الا بعد ان هجمنا عليهما وفي ايدينا سيوفنا.

وفي السادس، وبعد ان مررنا بمدينة (قراچوان Karajouan)، وهي مدينة صغيرة تقع في سهل خصب. وقضينا بعض الوقت للراحة في "قراچوان" بعد مسيرة عشرين ساعة دون توقف. ورحلنا في السابع من الشهر، وكان الجو بارداً جداً استمر ليومين اوثلاثة كما كانت الثلوج تهطل بغزارة وباستمرار. وقابلنا بعض المسافرين الذين نصحونا بعدم التقدم في السير نظراً لانهم قد لاقوا مخاطر كثيرة في الطريق. وكانت الثلوج قد غطت معالم الطريق. ولكن التتري قرر مع ذلك مواصلة الرحلة سواء كان ذلك عناداً ام احتقاراً بالمخاطر والمتاعب. وقد كان جوادي وجواد حمود ممتازين. فقد تقدمنا على الجماعة وحاولنا اللحاق بالتتري وبالدليل وكانا قد رحلا قبلنا بنصف ساعة. ورأيناهما على مسافة قريبة رغم ان استمرار هبوط الثلج قد منعنا تماماً من رؤيتهما بل حتى انه غطى اثار جيادهما. وعبرنا وحدنا سلسلة جبال الاوليمب وظللنا نتجول طيلة الليل مخاطرين في كل لحظة بان تطوينا الثلوج او نقع في هاوية ما اذا ابتعدنا عن الطريق الضيق الذي يجب ان نتبعه، والذي لم نعد نستطيع التعرف عليه، لولا غريزة جيادنا. واخيراً وبعد ان قطعنا ست عشرة ساعة لمسافة يمكن ان يستغرق قطعها تسع او عشر ساعات فقط. ووصلنا (حماملي Hamamly)، مع هبوط الليل، ولم يلحق بنا رفاقنا الا صبيحة اليوم التالي حيث جابهوا نفس الصعاب التي تحملناها، الى جانب انهم فقدوا حصاناً، وكان الثلج يهطل دوماً ولكن بشكل اخف. وبعد عشر ساعات من السير وصلنا الى مدينة (گريدا Geirida)، وهي

مدينة صغيرة لاتثير الاهتمام ومنازلها خشبية، ولم نستطع ان نحصل فيها على اية جياد، ولكننا قضينا ليلتنا فيها.

وفي التاسع، توجهنا الى (بولي Boli)، وكانت جيادنا متعبة حتى اننا لم نصلها الا بعد ثلاث عشرة ساعة وبالسياط التي نلسع بها اجساد جيادنا. وكانت الطريق معبدة الا اننا لم نر خلال الساعات السبع الاولى لا قرية ولا اي شئ يدل على الحياة..ولكن تلك المدينة نقطة توقف ممتازة ورأينا فيها منزلاً عاماً وسوقاً عربية كبيرة وحمامات صغيرة الا انها نظيفة ومعتني بها. اما السهل الذي يحيط بها فهو مزروع جيداً وملئ بالقرى التي تقع عادة على حواف. الانهار الصغيرة التي يمكن عبورها والتي تصب في البحر الاسود.

وفي العاشر، اصبحت جيادنا مرهقة تماماً. وكما حدث بالامس، فان اسوأ حصان كان من نصيبي.ولكن الحصان السئ لم يكن حجة بالنسبة للتتري لكي لايعدو اذا ما قرروا ذلك. وكانت الطرق سيئة وسيقان حصاني يغطيها الوحل حتى الركب، بل احياناً تنغرز ارجل الخيول بين جذوع الاشجار كانها انغرست في فتحة باب. ووقع الحصان الذي كنت اركبه من كثرة الارهاق وكان من المستحيل اجباره على الوقوف ووجدنا انفسنا مجبرين على تركه. واعطوني اخر، كان افضل حالاً قليلاً. والطريق كت معبدة. ورحلنا ونحن نضرب بالسياط جيادنا ونصيح كما المجانين حتى ندفع خيولنا للركض. ووقع حصاني مرتين تحتي دون ان اترك لجامه ولكن وبعد ميل واحد وقع في مستنقع من فوقي وظللت مضطرباً من شدة الضربة. واصررت على حصان اخر، ولكنهم استخدموا ماتبقى في حوادث متشابهة ووجدت نفسي مضطراً للاقتناع بحصاني.

تلك كانت طريقة السفر مع التتر وكان حظي جيداً ان بنيتي قوية، ولكن تلك الحوادث الصغيرة يمكن ان تكون درساً وتدلل على ضرورة

حسبان القوى جميعاً قبل الشروع، في سفرة كتلك. ومع القليل من المال الذي استطعت ايجاده، ولكن اذ كنت قادراً على الحصول على تتري وعلى خادم، مع التجهيزات الجيدة، وبعض المسافرين يلحقون بنا من آن لاخر لكانت رحلتي هذه اكثر راحة. ولكن لانني لم استطع ان اهئ لنفسي تلك الميزات وجدتني محظوظاً ان ظفرت بتلك الفرصة التي سنحت لي ورغم ان حضوري لم يكن بالطبع مزعجاً لرفاق السفر، بل كانت قوة مضافة لقوتهم، الا انهم كانوا قليلي الاهتمام باحتياجاتي، بل كان من المحتمل ان يتركوني وحيداً ويتخلوا عني لولا انني كنت مثلهم اتحمل التعب والحرمان.

اما (دوستشه Dustacha)، حيث قضينا ليلة العاشر من الشهر، لم يكن فيها سوى بعض المحلات المخصصة لراحة المسافرين. وتركنا في الحادي عشر حيث سرنا مسافة اثنتي عشرة ساعة بين الغابات والطرق الوعرة حتى وصلنا (هندك Hendek)، ولم نجد سوى مزارع تحيطها الكروم وبدات الآمال تنتعش. والشئ الوحيد المثير للاهتمام اثناء ذلك النهار ثلاثة مطاحن خشبية او اثنين وآلية استخدامها -رغم بساطتها- تعلن عن تقدم فني وحضاري لايمكن توقعها في بلد ريفي متخلف.

وتقع هندك، على بعد مائة وعشرين ميلاً من القسطنطينية، وسافر رفاقي وهم مصممون على مواصلة الرحلة دونما توقف. ولم يكشفوا لي عن اسرارهم ولكنني تبعتهم دون ان اكون مستعداً لمثل تلك السفرة الطويلة، وعبرنا جبل سنجار فوق جسر خشبي مشيد على مجرى ماء سريع الجريان لايوحي بالامان. وعبرنا مجرى اخر وهو فرع للنهر السابق. وفوق بقايا جسر فاخر. ويبد ان المياه قد نسيت مجراها القديم. فما كدنا نرى في مجرى النهر سوى خيط مائي رفيع، ولايوجد ما يوحي ان الوضع كان افضل منذ سنوات.

وفي الساعة الثانية عشرة، ولم نكد نصل هندك، وجدنا (سابانجية) الواقعة على بحيرة جميلة يجاورها الطريق بعض المسافة. وهي مدينة صغيرة، استبدلنا فيها خيولنا ثم رحلنا. وسرنا في طرق قديمة معبدة تمتد فوق مستنقع، وقادنا بعد عشر ساعات الى (ازميد Ismid) (نيقوميديا القديمة)، التي تقع في شبه جزيرة تمتد في بحر مرمرة.

وكان الليل قد هبط عندما دخلنا تلك المدينة. ولم نقم الا باستبدال الخيول فيها وتابعنا سيرنا. وقطعنا الستين ميلاً الاخيرة دون توقف. سوى لاستبدال الخيول ودون التزود باية مؤن الا ما استطعنا تناوله ونحن مازلنا نمسك بلجام خيولنا. وفي الثالث عشر من ابريل وفي الساعة الواحدة بعد الظهر، وصلنا الى (سكوتاري Scutari) حيث نهاية رحلتنا.

النهاية



٩١٠,٤ هويد، وليم
هـ ٣٤٨ رحلة من ساحل مالابار الى القسطمطينية/ تأليف وليم هويد.
السليمانية: مؤسسة ژين، ٢٠١١.
٢٢١ص: ١٤,٨٥×٢١ سم. التسلسل؛ ١٣٣.
١- رحلة- العراق- كُردستان- ايران- تركيا
٢- العنوان: د. سعاد محمد خضر (مترجمة)

مشرف المطبوعات: صديق صالح

التسلسل: ١٣٣
الكتاب: رحلة من ساحل مالابار الى الشسطنطينية
تأليف: وليم هويد
ترجمة: د. سعاد محمد خضر
تنضيد: سهَند
تصميم: لاس
خط وتصميم الغلاف: أحمد سعيد
عدد المطبوع: ٨٠٠
السعر: ٤٥٠٠ دينار
رقم الإيداع: ١٩٥٣ لسنة ٢٠١١ من المديرية العامة للمكتبات العامة
مكان الطبع: السليمانية، مطبعة شڤان

الكتاب الأصلي:
Voyage de la Co'te de Malabar a Constantinople, fait en 1817, by William Heude, Paris, Librairie de Gide Fils, Rue Saint-Marc-Feydeau, No. 20, 1820.

مؤسسة ژين
لإحياء التراث الوثائقي والصحفي الكُردي
العراق: إقليم كُردستان، السليمانية؛ الشارع ١١ بيرەمكرون، محلة ١٠٧ بَرانان،
(عمارة ژين) بجانب (مسجد الشيخ فريد) الأرضي: ١-٣١٩٤٧٣٢
آسياسيل: ٠٧٧٠١٤٨٤٦٣٣ أو ٠٧٧٠١٥٦٥٨٦٤، كورك ٠٧٥٠١١٢٨٣٠٩
العنوان: info@binkeyjin.com الموقع: www.binkeyjin.com